ما لمْ تَروِه ريحانة

رواية

أدهم العبودي

إهداء

إلَى رَوحَي أبي وأمّي: اللّذيْن آمنا بي قبْل أن أؤمِن بنفسي، ولو أنّهما تركاني عَرَضًا في مفترق الطّريق ورحلا.

إلَى زوجتي: ذات الدّلال الذي لا ينضب، وذات الرّبيع الذي لا يزهر إلّا في أحلك الأوقات.

إلَى ابني البكر "محمّد": الذي مات قبْل أنْ أعلّمه نُطق كلمة "بابا".

إلَى ولديّ "محمود" و"ميس": عسَى أن يبلُغا حلمًا تركتُه لهما بما يليق بأنْ يترحّما عليّ عندما أصبح مجرّد روح.

قسرًا نقول وداعًا؛ وإنْ كنّا نرجو اللّقاءَ!

فيمـا قبْـل، بعْـد، المـوتِ، حكايـةٌ، لـمْ يُكتَـب
لهـا فصـلٌ أخيـرٌ.

(22)
24 تشرين الأوّل- 2014
سجن كوهردِشت- مدينة كَراج- غَرْب محافظة طهران

«شُعلة»:

هذه ليستْ حكاية "ريحانة" التي ستُعدَم ذات غفلةٍ إنسانيّةٍ، إنّها حكايةُ جُرحٍ بعُمقِ وامتدادِ التّاريـخِ، علَى أيّةِ حالٍ؛ نحن لا نكاد حبيبتي نصل إلَى الحقيقةِ ولا إلَى أقربِ تصوّرٍ عنها مهما استعنّا بالخيالِ، فالحقيقةُ لا تكفيها ألفُ حكايةٍ مِنْ مثْل ما يُحكَى بالوجعِ، وعَنْ الوجعِ.

"شُعلة"؛ أنتِ تعرفينني، تربّيتُ علَى تعاليمكِ، أنا لستُ قاتلة، ولمْ أكن أبدًا، منْذ متى وأنت تعرفين عنّي رغبتي في إنهاء حياةِ الأشياء؟! بلْ قضيتُ حياتي وأنا أحاول منح الأشياء أعمارًا إضافية، كلّ الأشياء مِنْ حولنا، رغم المخاطر!

إنّ أوّلَ مرّةٍ أقتُلُ، بإرادةٍ حُرّةٍ، دونما إكراهٍ، كانتْ "وداع"؛ بطلتِي، طفلةَ الألوانِ، قتلْتُها دونْ أنْ يَطْرِف لي جفنٌ، لئلا تُتْرَك وحيدةً مِنْ دوني، وفي حينِ نُزِفتْ أمام عينيّ، كانتْ دماؤها قدْ خضّبتْ البَصرَ، فاطمأننتُ، كأنّي اقتَلعْتُ بها، فيما اقْتُلِعَ، سرطانًا للمحبّةِ استشرَى في رأسِي.

حبيبتي؛ يقول "هيمنجواي"، الذي كنّا نقرأه معًا في أوقاتِنا المُختَلسة: "أعرِفُ أنّ الحياةَ مأساةٌ، وأنّ ليس لها إلّا نهاية واحدة".

لكنْ يبدو أنّكِ لا تعرفين عنّي شيئًا، لا أحدَ يعرِف، إنّما؛ أو لمْ يكن ثمّة وسيلة للاستدلال عليّ بخاصيّةِ الحاسّة الشّفيفة التي تميّزكِ؟! اعتدتُ مُنْذ قبْل أن تستقرئي أحداث حياتي دون أنْ يغافلني لساني بالفضفضةِ! عمومًا؛ أظنُّ يا "شُعلة" أنّني التي لم أعُد أعرف شيئًا، أُوجِزتْ معرفتي في معنى التّرقّب، إنّه الملخّص والغاية، أترقّبُ لا لشيءٍ إلّا لأنّ الترقّبَ صار فضيلتي في السّجنِ هنا، مَعْ كلّ شمسٍ أترقّب مغيبًا مأساويًا؛ كعادتي، أترقّبُ حادثةً مَعْ كلّ زكّةِ مزلاجٍ، أترقّبُ مهانةً جديدةً، فكرةً مُستحدثةً كي أذوق الألم، أترقّبُ العفو، فلا يجيء، كأنّه عصيٌّ علَى مثلي!

اليوم؛ حان لي أن أحدّثكِ، ولو بمثْل هذا العجز، كي لا أرحل بأسراري.

كنتُ و"وداع" سجينتين في زنزانةٍ واحدةٍ، وخيالٍ واحدٍ، وفي اللّيلةِ التي أجهزتُ فيها عليها لمْ أنم، كادتْ روحي، هي الأخرَى، تُنتَزع منّي فيما ورائِها.

رأيتُها تعوم في بركةٍ مِنْ الدّماءِ، حدّقتْ في صمتِها طويلًا، ثمّ تخشّب جسمي بعْد أنْ كنتُ قد استرحتُ ولو للحظةٍ عابرةٍ، أدركتُ أنّي تهوّرتُ، ولو هذا الإدراك المتأخّر القاصِر، أهذا الذي أتتْ يداي لحظة اليأس؟! لطمتُ خديّ، والجدران، ألقيتُ نفسِي فوق دمائِها، مرّغتُ جسدي في اللّون الأحمر، كأنّ بي أشاطرها الموتَ عبثًا، تقيّأتُ وسعلتُ وانقبضتْ عضلاتي، مثْل الذي أفاق مِنْ غيبةٍ عارضةٍ، تمنّيتُ لو أستعيدُها في اللّحظة التي قضيتُ عليها فيها، تنازعتُ فيما بين بين، ذات المنازعةِ التي أودتْ بي، بذات الحماقة

يا "شُعلة"، الحماقة القديمة، الخبل الفُجائي، ذات المرارة، مرارة لا بدّ أنْ يحصدها الجميع ولو بتوقيتاتٍ مختلفةٍ؛ هكذا تعلّمتُ علَى يديكِ، أليس كذلك؟!

تدثّرتُ بلوعتي يا "شُعلة"، كيف انسقتُ وراء الغفلةِ الدّمويةِ؟! لا أعرف! قبعتُ جوار الجدارِ أجرَعُ الألمَ تداعيات لا تنقطع، ومِنْ خارج النّافذةِ يهبط الثّلجُ دموعًا لا تتوقّف، كأنّ السّماءَ تبكي أوجاعها، يهبط ويجرفني معه، تتراصف الأيّامُ في ذهني، وأذكر ما جرَى بيني وبين "وداع" في قديمِ الذّكرياتِ، أنا لا أخافُ مِنْ الظّلامِ ولا الوحدةِ ولا الآلامِ، بلْ أخاف مِنْ ذكرياتي أكثر، إنّها تدفعني للمقاومةِ، وكنتُ أودّ لو أستسلم هذا الاستسلام المُطلَق، ليست المقاومة تُجدي شيئًا ها هنا في نهايةِ الأمر.

أذكرُ عندما رافقتني "وداع" في شطرٍ لا بأس به مِنْ حياتي، بين الشّوارع وفي زحامِها، بين الأحلامِ ونفوقِها، سردتُ لها أشواقي وآمالي، استعضتُ بها عَنْ أنسٍ غائبٍ لمْ يُدرَك آنذاك، لمْ يكن ثمّة بديلٌ عَن الشّكوى، وكنتُ أشكو لـ"وداع" كلّ حرماني وتساؤلاتي، نعم يا "شُعلة"، ثمّة أمور لم تخرج عنّا، لا يعرفها سوانا، لا تعاتبيني يا "شُعلة"، إنّها بعض الأسرار الصّغيرة، وبالكاد كانتْ لي بعض الأسرار، كيف كان يُمكن أنْ أشكو إليكِ ضيقي مِنْ عودة أبي مخمورًا في بعض اللّيالي؟! كيف كان يُمكن أنْ أشكو جارنا الذي يتلصّص على جسدي مِنْ نافذتِه كلّما تحمّمتُ ثمّ حاول الاعتداء عليّ؟! هل كان يجوز أنْ أخبركِ عَنْ "إيوان"؟! وتعاليمكِ وفضائلكِ ونصائحكِ! إنّها أمورٌ لا يُباح بها إلّا لمَنْ يعذر، و"وداع" كانتْ تعذر الأسرار.

غير أنّي قتلتُها، لعلّها لحظةُ هوانٍ، تلك؛ التي اجترّحتُ فيها الجريمةَ، طوعًا، لمْ تكنْ روحي قدْ تعوّذتْ، بعْد، مِنْ الألمِ.

رجوتُ، تحصّنًا، بما أتتْ يداي مَعْ "وداع"، أيضًا، أنْ أصرِف عنّي -فيما يفوح الدّمُ- رائحةَ البراءةِ، أُسرّيها بعيدًا عَنْ أنوفِهم، فهنا، "شُعلة"، أنتِ لا تعرفين ما الذي تُحدثه براءتُنا فيهم! إنْ اشتمّوا، فقط، رائحتَها، تُكسِبْهُم غرورًا علَى غرورٍ، غيًّا علَى غيٍّ، تُحيي خبائثَ أنفسِهم، كأنّ البراءةَ تُبيحنا لهم، كأنّها تصريـحٌ بمباشرةِ كلّ نزقٍ، كلّ عُدوانٍ، وعلَى ما يَشْتَهون.

تُرَى؛ حبيبتي، كيف يُمكن أنْ يُشتَهى البَطشُ؟!

تنقّلتُ بين السّجون، وأدركتُ البطش من سجنٍ إلى آخر.

كانتْ ذروةُ البطش يا "شُعلة" في سجن "شهر ري"، ظلّوا يؤدّبوننا بمنعنا مِنْ قضاءِ حاجتِنا لأيّامٍ، يحبسوننا داخل العنابر فلا نخرج حتّى للفناءِ كسائرِ المساجين كي نفسّح صدورَنا، وكنّا نفرِش زوايا الجدران بخِراج بطوننا، كانتْ الرّوائح تماثل إحساسنا بالمكان، فلمْ نكن نشمئزّ، علَى العكس، كنتُ –مثلًا- أضع نفاياتي لحظة تنتهي إحدانا من التغوّطِ، فتتكوّم النفايات علَى بعضها طريّةً، بلْ، ولمْ يكن ثمّة مانع أنْ تجلس واحدة علَى هذه النّفايات، كأنّنا نؤمن أنّ الأوساخ علقتْ بدواخلنا، فتساوتْ العلّات.

يوم عَفوا عنّا يا "شُعلة"، وأخرجونا إلَى الفناء، وكان هذا عقب أسابيع قضيناها لا نرَى بارقةَ ضوءٍ، كان يومًا مشهودًا، كانوا يستكمِلون تأديبنا.

في البدايةِ رصّونا في صفٍ طويلٍ إلَى الجدارِ، ثمّ تخيّروا منّا واحدةً فأخرى، دَخل الحَرسُ بجرادل المياه المغليّة، أجبروا واحدةً فثانيةً أنْ تضع يدَها داخل الجردل، كانتْ اليدُ تخرج وجلدُها ذائبٌ، وحتّى صراخ الألمِ، لمْ يكنْ مسموحًا به، فإذا صرختْ واحدةٌ، سرعان ما ينزل عليها سوطٌ يلهب ظهرَها، فتعاود وقفتَها جوارنا في الصفِّ إلَى الجدارِ، ثمّ رفع الحَرسُ بنادقهم، تقدّمهم ضابطٌ قصير القامةِ وبه عرجٌ طفيف، ترافقه "سيما خانم"؛ ضابطة خفر العنابر، ومِنْ حينٍ لآخر تميل علَى أذنِه هامسةً فينطلق إلَى ضحكٍ، كأنّهما علَى وِفاقٍ مزاجيٍّ، كان دائم التّفلِ ففطنِتُ أنّه يمضغ الأفيون، كلّما أشار إلَى واحدةٍ أُطلِقت بندقيةٌ، لتسقط مضرجةً في دمائِها، ثمّ يجيء حارسٌ وينقش بدمائِها اسمَها علَى الجدارِ في الفراغ المهجورِ؛ الذي كانتْ الضّحيةُ تملأه منْذ قليلٍ، وآخر في يدِه دفترٌ يقيّد فيه مَنْ ماتتْ فاستراحوا منها، قال أحدُهم وهو ينفخ دُخان بندقيته:

- هكذا نخفّف الضّغط عَنْ الزّنازين.

وفيما كان الضّابطُ الأعرجُ منهمكًا في حوارٍ جانبيٍّ مَع "سيما خانم"، أطلق عسكريّ رصاصةً، يستعرِض، تجهّم الضّابط، وثب نحوه، أمسك بندقيتَه وطوحها أرضًا:

- هل أمرتك بالضّربِ؟

لمْ ينطِق، بدا الذّعرُ علَى وجهِه.

- أنا فقط مَنْ يحدّد موتهنّ.

جرّده مِنْ أشرطتِه، تحفّظ علَى بندقيتِه، كبّله بالأصفادِ وترك عسكريْن آخرين يمضيان به، وقال:

- إنْ حوكم فلغبائِه وعدم التزامِه بالأوامرِ.

ثمّ استدار إلى "سيما خانم" وغمز لها يقول:

- النّظام نظام "سيما خانم".

استكملوا تحديد مَنْ قُرّر موتُها حسب هوَى الضّابط، لمْ أنجُ إلّا لأنّ أصابعَه لمْ تشر نحوي، كان باديًا علَى وجوهِهم الرّضا، التّشفّي، في كون المحكومات مجرّد أهدافٍ نُصبِتْ لإشباعِ غرائزِ رصاصِهم، وبعْد قليلٍ، حيث سقطَ نصفنا أرضًا، بدأوا يعقِدون حبلًا علَى فرعِ الشّجرةِ الوحيدةِ التي تتوسّط الفناء، ثمّ اختار الضّابط، في عشوائيةٍ، إحدانا، غمّوا عينيها بعصّابة سوداء، رفعوها ولفّوا الحبل حول رقبتِها، لمْ تحتمل كثيرًا، قضتْ في لحظةٍ، انفصل عنقُها عنْ جسدِها، سمعنا قرقعةً، لحظتئذٍ ظلّ جسدُها يفرفط وساقاها ترتعشان، كنّا لا نصدّق أنّ الموتَ قد يُصبح أحيانًا مجرّد فكرةٍ طائشةٍ راودت رأسًا فاسدةً يا "شُعلة"!

كيف استُبيحَ الوطنَ ذات قهرٍ؟ انطفأ لمعانُ الأعينِ، إلى الأبدِ ربّما، عُدنا إلَى العَنبرِ ورؤوسنا منكسرةٌ، عليهم أنْ يدفِنوا اليوم قتلاهم، وليدفِنوا معهم عزّةَ أنفسِنا إلى لا قيامٍ، الحلوقُ جفّتْ، فلا صراخَ ها هنا، لا نَحيبَ، بل الصّمت، ولا إحساسَ غيره.

أجل؛ "شُعْلة"، كنتُ وقتئذٍ أريدُ أنْ أبْغِضُ كلَّ براءةٍ، علَى إطلاقِها، وكانتْ "وداع" بريئةً، كهالةٍ مِنْ ضياءٍ، حدّ اللا مساس،

لكنّي مسستُها، قرّرتُ أنْ أهلِكها كما أُهلِكتُ تمامًا، ونفّذتُ الجريمةَ في الزّنزانةِ الانفراديّةِ بعْدما استحَكم بي القنوطُ، مِنْ كثرةِ ما انتهكوا جسدي.

إنّما؛ الآن، والنهايةُ أشرفتْ، بينما تتراءَى المسافات الهاربةُ، بينما يُستَوقد فيّ ضوءٌ، لا أعَدمُ حيلةً للاستشرافِ، كأنْ أُوحَى لي بطاقةٍ مِنْ الغيبِ، أُسرَى بي إلَى حيث تتكشَف الأسرارُ، ولسوف أرَاكِ "شُعْلة"، مِنْ جُمْلةِ ما أرَى، وأنتِ تكوّمين جبلًا مِنْ الفاكهةِ، وبدافعِ الحزنِ، مِنْ انفلاتِ الأملِ بلا رجعةٍ، ستقومين به تُنهِين عليه، ثمّ، ومَعْ حلولِ الظلامِ، ستنزلين إلَى الشّارعِ، ستقفين تتفقّدين جيرانَنا، ستُخبرينهم بعينيكِ أنّ ابنتكِ، ريحانتكِ، غدًا ستموت، غدًا.

بلَى، هو هذا الغد، الذي ستُشرق فيه أوّل شمسٍ علَى الفَقدِ، ستهيلين التّرابَ علَى رأسِكِ، سوف تستصرخينهم: ابنتي؛ هذه، التي ربيتموها علَى أيديكم، لنْ ترَى المغيبَ غدًا، لنْ ترسم وجهًا جديدًا.

وربّما تتحدّرين كسيلٍ بلَغَ حافّتَه، أو يدروشكِ الحُزنُ، بلْ ربّما ترقصين كمولويّةٍ أثملَها الذّكرُ، ربّما تخصّلين شعرَكِ مثْل سباطةِ نخلٍ، أو تفتّلِينه كعجوزٍ يائسةٍ أدركتْ المعنَى، ربّما ستحلِقينه، تصيرين صلعاءَ، كالأيّامِ، كالزّمنِ المُقبِل عليكِ، يوم تصبح الذّكرَى مقدّسةً، والحزنُ أيضًا.

ستصنعين مثْل البابِ أبوابًا، ستحبِسين نفسَكِ، ستُستعَمرين بالعُزلةِ، كي لا تُباشري العالم بدوني، ستسجدين للّه صبرًا، ربّما، علَى تجربةِ الألمِ، ستعاتبينه، رغم ذلك، علَى غيابِ العدالةِ، ستركعين،

ستصرخين بلا صوتٍ، ستُقهَرين بلا دمعٍ، ستُطعَمين هوانًا، ستُتكوّمين في بعضِكِ بعضًا مثْل هيشٍ، إذا نُفَخ، تلاشَى.

عزيزي "إيوان":

إنّها رسالتي إليكَ، أيضًا، طالما اقتصر الأمرُ علَى الرّسائل الجُزافيّة!

أفِي البَدءِ كانَ السّجْنُ؟! أكانَ الفَرضُ ولمْ يكنْ الاختيارُ؟!

في البدءِ، كان المغيبُ، مكتوبًا علَى البشرِ، كأنّما قُدَوا مِنه، فُخُلِقوا له، راقبتُ مَغيبَ الشّمسِ، يومًا بيومٍ، فيما تلَّى مِنْ حياتي، كأنّما أُستَسقَى ألوانَها كرضيعٍ يتلمّس الحياةَ.

قبْل أنْ يُقضَبن جسدي، لمْ أكنْ أسمح لطارئ، لشاغلٍ، ولو التّعب، أنْ يشتّتَ تأمّلي، مِنْ سطحِ البيتِ، أو مِنْ شرفةٍ في الجامعةِ، في الشّوارع والمتاجر، بين الحدائقِ والغيطان، كان التّأمّل رفيقًا.

وأنا أتجوّل، أتبضّع، أو أجلسُ أصنَع الحكايات بالألوانِ، أراقبُ مَغيبَ الشّمسِ.

بالدّوام، وعلَى مدارِ سنوات العُمرِ، لمْ أفقد مغيبًا للشّمسِ.

المغيبُ يروّضني، يطوّع يدي، يعرّفها كيف تبتَكِر بالألوانِ مشهدًا خُرافيًّا.

بينما مغيبُ الشّمسِ اليومَ فريدٌ، كأنّما، وهي تؤسَر إلَى حيث إشراق غَيْبيّ، تدنو مِنْ النّافذةِ العاليّةِ، تُطلِعني علَى سرٍّ، تتأهّل معي لمغيبٍ أخيرٍ، تفنّد ألوانَ مغيبِها، لونًا لونًا، تفصلها، يرشِق كلُّ لونٍ نحوي

مِنْ اتّجاهٍ، تمررها لي عبَر السّياجِ، أكسو بها ملامحي، يُصبِح وجهي معجونًا بالألوانِ الرّبّانيّةِ، يُصبِح سماءً علَى وشك الإظلامِ.

تنصهر حياتي أمام عينيّ، تُختزَل في مشهدٍ مفصليٍّ، كالفُرقانِ بيْن مصيريْن؛ "مُرتضَى" وهو راكعٌ يشخِب الدّمَ.

كافّةُ الأمورِ التي تدعو للرّثاءِ، تدعو للضّحكِ أيضًا، أنكبُّ علَى إحساسِ الرّحيلِ أحاول أنْ أطبّبُه، إنّه يؤلم، يوجع قدرَ الانشطارِ، لا بدّ أنْ يُشفَى هذا الإحساس، يتماهَى بداخلي، كذوبانِ هَمٍّ وقتَ الفرجِ.

يخروش مزلاجُ الزّنزانةِ، وبعْد قليلٍ، ينفرج البابُ، ينبذر وجهُ الحارسةِ، تسوّم إليّ ببصرِها:

- "ريحانة"، تجهّزي، التحمّمُ الأخيرِ.

(10)

2 نيسان- 2008

سجن إيفين- سعادات آباد- شمال غَرْب محافظة طهران

نيسان؛ ربيعُ العالمِ، ربيعُ الأحلامِ، شهرُ الرّيحِ الرّطبةِ والتّوتِ البرّي والكرزِ والبرتقالِ الأحمرِ.

تَحجِل حافيةً علَى الدَرجِ الحجري، إلَى سطحِ البيتِ، يتطاير شعرُها مَعْ الهواءِ كأنّه يودّ الانفلاتَ عَنْ رأسِها، تُختزَل سعادتها في معنَى: الاتّصال بالحياةِ عنْد الحدودِ البعيدةِ، عبر الخيالِ الطّموحِ، الذي يتوق إلَى حكايةٍ.

ترتقي درجتين لتصعَد حيث برج الحمَامِ الزّاجلِ، يهدل الحمامُ، تخلط بذورَ البسلّة ببذور الذّرة في آنيةٍ فخّاريّةٍ، فيرفرف قادمًا نحوها مهوّشًا ريشَه النّاعمَ، يحطّ بأرجلِه القصيرةِ الخاليةِ مِنْ الرّيشِ علَى ساعدها وعلَى حوافِّ الآنيةِ، تراقبها واحدةٌ بعينيها الحمراويْن الواسعتين ذاتي البؤبؤيْن الكبيرين، تحرّك ذنبَها القصيرَ، تدفع حمامةً أخرى بعضلاتِها القويّة وجناحِها العريض، ثمّ تنضمّ للبقيّةِ التي تلتقط الحَبَّ بمناقيرِها الرّفيعةِ السّوداء.

الحمامُ يهدِل، وقفته ثابتةٌ، صدوره بارزةٌ كحرّاسِ كنزٍ مخبوءٍ، يُشكّل بألوانِه لوحةً لا يُمكن لبشرٍ أنْ يصنَع مثلها، يتمازج فيها اللّونُ الأبيض بالأزرقِ المنقّطِ بالأسودِ.

علّمتهُ، علَى يدِها، أنْ يسافر مسافاتٍ بعيدةً، اشترته حمامةً بعْد أخرى، بدأتْ في تدريبِه بعْد مرورِ أشهرٍ ثلاثةٍ علَى تفقيسِه، كانتْ تقضي في تدريبِه ساعةً في الصّباحِ ومثلها في المساءِ، صارتْ السّاعةُ الدّوريّة ساعتيْن، ثمّ ثلاث، كان يطير مسافاتٍ قصيرةً، تضاعفتْ بمرور الوقتِ، حيث أصبح أكثر قوّةً وتحمّلًا وفهمًا لخرائطِ السّفرِ، كانتْ تحمّلهُ رسائلَ للعالمِ، لمنْ لا تعرفهم، لمْ ترهم، رسائل إلَى كلّ شيءٍ، عَنْ كلّ شيءٍ، ظلّ يعود بلا رسائل ردٍّ، لعامٍ، فاثنين، لمْ تيأس، وأبقت علَى الأملِ رغم عدم تجاوبِ الطّرف الآخر مِنْ الخيالِ.

في الجهةِ الخلفيّةِ مِنْ البرجِ كان ذبابٌ يطنّ، تستدير، في التّو ترتعِد مفاصِلُها، ثمّة حمامةٌ نافقةٌ، مطروحة أرضًا، تسبح في ريشِها، رقبتُها مفصولةٌ عَنْ بقيّة جسمِها، وكان أثرُ نابِ ثعلبٍ في بطنِها، كيف لثعلبٍ أنْ يطلع إلَى السّطح ويصل إلَى برجِ الحمام دونْ أنْ تلاحظه؟! كيف لثعلبٍ، في غفلةٍ منّها، أنْ يقتل إحدى حماماتها، وبهذه الوحشيّةِ؟!

تتنمّل أطرافُها وهي تستدير تبحث عَنْ المكنسةِ، أين يُمكن أنْ تدفنها؟! كيف لقلبِها أنْ يحتَمِل؟!

- "ريحانة جبّاري"، أنتِ متّهمة بقتلِ السّيد "مرتضى عبد العلي سرابندي"، الطّبيب الجرّاح والضّابط السّابق في الاستخبارات الإيرانية، مَعْ سبقِ الإصرارِ والترصّدِ، وكان هذا بدافعِ السّرقةِ، ما قولكِ فيما هو منسوبٌ إليكِ؟

- أيُّ سرقةٍ! أُقسِم أنّي طعنتُه طعنةً واحدةً لمحاولتِه اغتصابي ثمّ فرَرتُ، لمْ يكنْ بيدِي فِعلُ شيءٍ آخر!

عصّبوا عينيها وهي تدلف إلَى الرّواقِ الذي يقبع في نهايتِه مكتب التحقيقاتِ، كان الهواءُ مُخزّنًا بروائحِ العَرقِ، جلست علَى الأرضِ ساعةً أو يزيد في انتظارِ بدءِ التّحقيقِ، وقدْ جلستْ جوارها سجينات أخريات، سمعتْ أصواتَ صراخٍ قادمةً من غرفٍ مجاورةٍ، لمْ تكن عيناها تستوضحان بصيصًا من خلف الغمامةِ، لكنّ إحدى السجينات كانتْ تنتحب في أسَى، شعرتْ بدموعِها، وأوشكتْ أنْ تحكي لها شيئًا ما لولا أنّهم نادوا عليها.

- هل كان معكما أحدٌ أثناء وقوع الجريمة؟

- صديقه "شيخي إمام"، كان ينتظر بالرّدهةِ أثناء اعتدائِه عليّ، أظنّني أخبرتكم بهذا مِنْ قبْل أكثر مِنْ مرّةٍ!

- أجل، أجل، كان هذا في محاضر الاستدلالات الأوليّة، المهمّ؛ صديقُه هذا سُنّيّ أم شيعيّ؟

- لا أعرف، هل يمثّل هذا فارقًا؟! كيف لي أنْ أعرف؟! لمْ أقابله إلّا مرّتين!

- عليكِ أنْ تُجيبي علَى الأسئلةِ بلا مراوغةٍ..

وخلّل أسنانَه بأظافرِه، حوّم بعينيه حولها، ثمّ عاود:

- كيف تعرّفتِ إلَى هذا الشّخص؟

- تعرّفتُ إليهما معًا، كنتُ أتحدّث في الهاتف إلَى أحد العملاءِ ممّن صمّمتُ لهم جناحًا في أحد معارض الأجهزة الكهربائيّة والإلكترونيّة، وجدتهما يتّجهان نحوي، عرّفني "مرتضَى" بنفسِه علَى أنّه طبيبٌ له عيادةٌ أمام مبنى محافظةِ طهرانِ يريد تصميم ديكوراتِها، وقال إنّه

يعمل في تجارةِ المعدّاتِ الطبيّة، ثمّ عرّفني إلَى صديقِه "شيخي".

- أين ومتَى حدث هذا؟

- قبْل الحادثةِ بأيّام، كنتُ أجلس في أحد المطاعم المجاورة للمعرض حين تقدّما وعرّفاني بنفسيْهما.

- مممم..

يتململ، يجوس فيها، يحرِص أنْ تشعر بارتيابِه، يستنِد بظهرِه للوراءِ علَى كرسيه، يُمسك ولّاعةً ويحرق سيجارةً، فأخرَى، لا تنصرف عيناه عنها، يحدّق طويلًا، كأنّه يستنبِط، كأنّه يسمسر بصِدقها كي يُجزَى اعترافًا بما لمْ يُقتَرف، وإنّما يبغون أنْ تقترفه علَى أوراقِهم، يهيّبها بتعبيرٍ تهديديّ كي تَنْحو إلَى الكَذبِ، بهزّ رأسِه، بمواربةِ عينيه، تمامًا كذئبٍ يستعدّ للافتراس.

"ما الذي تريدونني أنْ أُقرّ به علَى أيّةِ حالٍ؟! جريمتي اعترفتُ بها، قتلتُه، نعم، مرغمةً، لماذا تريدونني أنْ أُقرّ بأنّي لصّة كما ورد بتحريّاتِكم؟! أنا التي ظللتُ عمري كلّه لا أفهم كيف يُمكن لأحدِهم أنْ يسطو علَى شيءٍ لا أحقيّةَ له فيه! أتخشون أنْ تُبطَل تحريّاتُكم؟! أنْ تتعرَّى الحقيقةُ في المحكمةِ فتُفضَحون؟!".

يفرد ذراعيه، يتمطّى، يهمهم:

- هل كان برفقتِكِ أحدٌ؟

تسرَح، تتذكّر "هند" و"أصغر"، لكنّها تخشَى أنْ يتورّطا، فتهزّ رأسِها نفيًا.

(3)

4 كانون الأوّل- 2007

جنوب محافظة طهران

عزيزتي «ريحانة»:

سامحيني إنْ ناديتُكِ هكذا، صار بيننا، ولو عبر الرّسائلِ، ما يعزّز جرأتي، إنّما عليكِ أنْ تعرفي أيضًا أنّي أخشَى هذه الجرأة، أخشَى أنْ تصبحي "عزيزتي" بالفِعل، أنا أفقد الأعزّاءَ دومًا، ولعلّي صرتُ ضليعًا في الحزنِ بسبب هذا، فعلَى مرّ حياتي يفنَى الأحبّة، لا يبقون، كأنّ الحُزنَ متاعي مِنْ الحياةِ.

الأسبوع الماضي عقلي لمْ يكنْ متّزنًا، عندما عُدتُ مِنْ عملي آخر النّهار، سألتُ أمّي الضّريرةَ عَنْ أخي "فارسي"، هزّتْ رأسَها في لوعةٍ تتحسّس وجهي، قالتْ باضطرابٍ:

- إنّه نائمٌ في غرفتِه، ولم يستيقظ منْذ عامين!

لماذا لا أريد أنْ أصدّق أنّ أخي ماتْ منْذ عامين؟!

"ريحانة"، كان أخي "فارسي" يصغرني بعامٍ واحدٍ لا أكثر، يتشبّه بي في كلّ شيء، حدّ أنّه يتقمّص صوتي إذا نادت عليّ أمّي، وكثيرًا ما كنّا نُمارس على العمياء هذه الحيلة، ولم تكن تطمئن إلينا إلّا إذا جلس

أخي بجانبها، وجلستُ أنا بالجانب الآخر، وتسمعنا نردّ سؤالها في صوتٍ واحدٍ:

- "إيوان"..

- "فارسي"..

ونضحك معًا، فتحسّسْ بأناملِها علَى وجهينا.

يوم موتِه، كان الجو باردًا، فجأة ارتجف جسد أمّي، لم أعرف إنْ كان هذا هو البرد أم الاستباق؟! صاحت:

- "فارسي!"..

أجبتها عنه:

- نعم يا أمّي.

- "إيوان!"..

فأجبتُها عنّي:

- نعم.

ذلك في التّوقيت الذي رنّ فيه جرس الهاتف:

- مات "فارسي" في حادثة وهو يعبر الطّريق منذ قليل...

لم أنتبه لبقيّة المهاتفة، إذ صاحت أمّي بصوتٍ أعلى:

- "فارسي"..

بصوتٍ متقطّع تتخلّله الدّموع أجبت:

- نعم.. نعم.

بعد ذلك لم يفضحنا إلّا أمر واحد، إذ ظلّ أحد جانبيها شاغرًا، وفي لحظةِ كشفٍ عابرة وضعتْ أصابعَها على ملامحي، همستْ:

- "فارسي؟!"..

تحشرّج صوتي، تمتمتْ:

- الصّمت هو الحقيقة، أنت أيضًا عليك أنْ تمتثل للحقيقةِ يا "إيوان".

أيُّ حقيقةٍ يا "ريحانة"؟ إنّ الحقائقَ، في الغالبِ، هي ما لا يُمكن تصديقه أو الإقرار بحدوثِه، لا أعرف لماذا أريدكِ أنْ تعرفي كلَّ هذا؟ ربّما لأنّني لا أملك إلّا هذا، لا أملك إلّا سردَ الحُزنِ، لستُ وحدي، أعرف، مَنْ تُحزنه غفلاتِ القدرِ، لكنّ حُزني، له طبيعةٌ مختلفةٌ، حُزني صنَع بداخلِ رأسِي الأصواتَ، أصوات وأصوات، تتردّد فيّ أثناء الصّحوِ وأثناء النّومِ.

أنا أعمل موظّفًا للفحصِ في "مطار رِشت"، تخيّلي يا "ريحانة"، أحيانًا، تتكدّس طوابيرُ المسافرين أمامي لمجرّد أنّ رأسِي مشغولةٌ بهذه الأصواتِ، وقّعوا عليّ الجزاء بعْد الجزاءِ بسبب شكاوَى عدم تركيزي، وأوقفوني عَن العملِ، وكادوا يفصلونني، لولا أنّ قصّةَ موتِ أخي، التي أخبرها زميلي لأحدِ المُدراء، جعلتهم يتراجعون عَنْ القرارِ.

نعم "ريحانة"، لا بدّ أنْ يتعاطف العالمُ مَعْ الحُزنِ، إنّه الحُزنُ، إنْ لمْ يتعاطفوا معَه، أصابتهُم لعنتُه.

عزيزي "إيوان":

هوّن عليك، لا حزنَ يستمرّ، كما يجاوزنا الفَرحُ، يجاوزنا الحُزنُ أيضًا.

"إيوان"، اليوم صرتَ تعرف كلّ شيءٍ عَنْ حياتي، في الغالب تخلو حياتي مِنْ الأسرارِ، السّرُ الوحيد الذي أملكه الآن وأتحفّظ عليه مِنْ البوح هو أنت، لا لشيء إلّا أنّي أحبّ الاحتفاظ بك كسرٍّ مغلّفٍ لمْ يُفضّ، كان يُمكن أنْ أحدّث أمّي عنك، تعوّدنا أنْ نبادِل الأسرارَ، لكنّي أبقيتُ عليك كهبةٍ اختصّني الله بها، حتّى "هند"؛ أقرب صديقاتي، والتي تورّطتُ معها، مصادفةً، في الحديثِ عنك، لمْ أعُد أذكرك أمامها.

عزيزي، لمْ أرك بعْد، لعلّ هذا أقسَى ما في الأمرِ، لكنّي صنعتُ وجهًا لك في الخيالِ، وصدّقني لمْ يخذلني خيالي مِنْ قبْل، أكتب لكَ الرّسائلَ وأمزّقها، أخشَى أنْ أفقدك برسالةٍ هوجاءٍ، أو بكلامٍ أحمَق، أنا محترفة في جعل الآخرين يسيئون فهمي.

أطلقتُ علَى الحمامةِ التي جاءت بك إليّ اسم "وصال"، فقد وصلتْ ما بيني وبينكِ بطريقةٍ عجائبيّةٍ، لمْ أتخيّل يومًا أنْ تقف مشاعري عاجزةً عَنْ تفسيرِ أمرٍ يحدث لها، بالأحرَى تفسيرك.

عزيزي "إيوان"، سأخبرك بسرٍّ، صرتُ أشتاق إليك، أنا التي لا تعرف عنك إلّا حكايةً عبْر رسالةٍ!

أريدُ، فقط، أنْ أسمَع صوتَكَ.

(14)

23 حزيران- 2010

سجن شهر ري- عنبر «1»- ورامين- ضواحي محافظة طهران

مكبّر الصّوتِ مِنْ الخارجِ يدوّي: "ريحانة جبّاري".

كنتُ قدْ أوشكتُ علَى فقدِ الأمل في رؤيةِ "شُعلة" ثانيةً، إنّه مِنْ مُجملِ ما أوشكتُ علَى فقدِه، بمعنَى أصْوَب؛ فقدتُه، وظللتُ أمنّي نفسِي باستعادتِه.

ينفتِح البابُ، أرَى ظلَّ الحارسةِ يجثم علَى النّائمات في العنبرِ تتشابك أجسادهنّ في بعضهنّ البعض كأنّهنّ غشاوةُ بصرٍ، تمرّر علينا بصرَها، تصيح:

- "ريحانة"، زيارة.

يخفق قلبي، نسيتُ تمامًا المواعيد المحدّدة للزّيارات، أُسرِع وراء الحارسةِ وأنا ألملم ثوبي وأعدِل غِطاءَ رأسِي، لمْ يكنْ عددُ الزّيارات اليوم كبيرًا، لكنّ البهجةَ كانتْ غالبةً علَى وجوه السّجينات، وكلّما نوديَ علَى واحدةٍ وفق التّرتيب الهجائي انفعلتْ وصرختْ، كأنّهنّ لا يردِن تصديق أنّ أحدًا مِنْ الخارجِ يُمكن أنْ يتذكّرهنَ!

نتمشّى في الطّرقةِ المُتفرّعةِ إلَى مداخلِ السّجنِ الأمامية، يتسمّر جسدي وأنا أرَى أمّي واقفةً هناك بانتظاري مثْل فرحةٍ لمْ تغِبْ، كمْ

تغيّرتْ! ملامحُ الحزنِ عمرتْ وجهَها، تراني فتتراقص ملامحُها، مِنْ جديدٍ، تهرول نحوي، أشهق، لا أتقدّم إليها خطوةً، أقع أرضًا جاثيةً، تتبلّل شفتاي باللّعابِ، وتتكحّل عيناي بالدّموع، تسكن أنفاسي وأنا أحاول أنْ أضمّها بعينيّ، كما لو أنّي أريدُ أنْ تشاطرني الوجع، ترمي جسمها عليّ، يعترض بعضُ الحرّاسِ لكنّ شعورَ الشّوقِ وتفرّد اللّقاء غلبا تشدّدهم، وفيما يحاولون فصلنا علَى استحياءٍ، كانتْ ذراعاها تطوّقان ظهري، ورائحتُها كالزّمنِ المُراقِ، عيناها كشهادتي ميلادٍ لأملٍ جديدٍ، آه يا "شُعلة"، ضمّيني إليكِ ولا تَدعي أحدًا يُبعدنا، ضمّيني للأبدِ، ضمّيني حيث نطير، نحلّق، بلا رجعةٍ، أريدُ أنْ أموت هنا، في هذه اللّحظة، كي يُمكن أنْ تقولي: "لمْ يفرّقنا موتٌ، بلْ جمعنا موتٌ".

ينشغل الحُرّاسُ بأمرٍ آخر، ينصرفون عنّا، ترفعني مِنْ علَى الأرضِ، تُجلِسني ملتصقةً بي، تتخلّل شعري بأناملها، تقبّلني مرّةً بعْد مرّةٍ، في سرعةٍ وبلا اكتفاءٍ، كأنّ جميعَ القُبلِ مرجأة لمثْل هذه اللّحظةِ، يبح صوتُها، وتبدو تُغالب البُكاءَ، وهي تقول:

- كَمْ ذبلتِ يا ابنتي! ألا يطعمونكِ هنا؟!

- كم عامًا مرّوا يا أمّي؟!

أدفِن رأسِي فيها، تنفلت الدّموعُ كلّها كأنّها انفرطتْ مِنْ قيدٍ.

- فرَجُه قريبٌ يا ابنتي، مِنْ آمن به لا يعرف الخذلان، استمسكي بالصّبرِ والصّلاةِ واحتسبي، بلَى إنْ تصبِروا وتتّقوا.

- إيماني بالله يا أمّي لا شهود عليه غير قلبي، لكنّهم لا يؤمنون، لقْد تعبتُ صدقّيني.

- في صباحِ أحد الأيّام يا ابنتي أرسلتُ رسالةً إلَى الله مِنْ حسرتي وحُزني عليكِ، في المساءِ استوقفني أحدُ الدّراويشِ وقال لي: "إنّما يوفّى الصّابرون أجرَهم بغيرِ حسابٍ".

- وأنا صابرة، لمْ يعُد لي غير الصّبر يا أمّي، أصبر في انتظارِ أنْ تعودي لي يومًا، كي ترتّبي الفوضَى التي تُركتْ عليها حياتي، قلتِ لي: "لا يموت مَنْ تركَ مِنْ بعْدِه أحبَّةً!".

- لماذا تبكين يا ابنتي إذن وأنتِ موقنة أنّ لكِ أحبّةً؟!

- ألا تعرفين يا أمّي أنّي لا أبكي عندما أفقد أحدًا! أبكي فقط عندما يعود.

وأغوص برأسي في صدرِها أكثر، حينها تركتْ نفسَها، بدورِها، للبكاءِ علَى أشدّها.

وبينما راحتْ تهدأ، سحبتْ مِنْ الحقيبةِ الجلديّة لفافةً ورقيّة، فردتها وهمستْ:

- انظري يا "ريحانة"، إنّها صورتُكِ علَى الصّفحةِ الأولى مِنْ جريدةِ أخبار طهران، ثمّة أملٌ يا ابنتي.

- طبعًا يزعمون أنّي لصّة قاتلة!

لا تردّ، تتناول ما بداخلِ اللّفافةِ بسرعةٍ، وتقول:

- وهذا شادور جديد، سمحوا لي أنْ أمنحكِ إيّاه، أقلّه تستخدمينه كغطاءٍ يُدفئكِ، التّصريح عنْد الضّابط المناوب.

- تعرّت روحي يا أمّي، كيف يُمكن أنْ يسترني شيء؟! فقط أريدُ أنْ أحكي لكِ عنْ كلّ ما جرَى، لكنّ لساني عاجزٌ.

ربّتتْ عليّ مبتسمةً، بدتْ تبتسم كي نقتطع اللّحظةَ مِنْ مسارِ الحزن:

- سوف يأتي وقتُ الحكايات يا ابنتي، الأهمّ ألّا تفقدِي الأملَ في عفو الله وفي الفوزِ بقضيّتكِ.

- لكنّهم لا يحاربون مِنْ أجل قضاياهم يا أمّي، يحاربون فقط كي نخسر نحن قضايانا.

- آه يا ابنتي، لمْ أتخيّل أنْ نصل إلَى هذه اللّحظة يومًا، كيف يُصبح انكسارُ أحدِهم ظفرًا لهم؟! كيف يُمكن أنْ يحقّق التشفّي شيئًا يُذكَر أو شعورًا يدعو للفخرِ؟! عشتُ حياتي علَى أمل ألّا أعرف شعور الألم أو الفراق أو الانكسار، لكنّي عرفتُ!

تحشرج صوتُها، وتبدّلتْ ملامحُها بسرعةٍ، تحوّلتْ ابتسامتُها إلَى ارتعاشةٍ، ثمّ كأنّ وجهها تداخل بعضُه في بعضٍ، بعْد أن أغرقته الدّموع، رقّ قلبي، ابتسمتُ عنها، قبّلتُها ورفعتُ وجهَها إليّ:

- هل سنضيّع الزّيارة في البكاء؟! ألم تتحدّثي عن الأمل منْذ قليلٍ؟!

انتحبتْ للحدّ الذي جعل الآخرين يلتفتون نحونا، لفّتني مِنْ رقبتي، ونهنهتْ، لمّتْ، علَى صدرِها، وجهي، ذراعيّ، مشاعري مِنْ بعْدِ شتاتٍ، تمتمتْ بصوتٍ مشروخٍ:

- لا بأس حبيبتي، لا بأس، ثمّة محاولات للضّغطِ علَى السّلطةِ في

مقابل الإفراج عنكِ، العالم كلّه يتحدّث عنكِ يا ابنتي، لا حديث له إلّا عنكِ، الأملُ ما زال حيًّا، خروجكِ وشيك صدّقيني.

- فلتكن مشيئة الله يا أمّي، لا حيلةَ لنا.

- تُطمئنيني وأنتِ صاحبة الوجع؟!

- الوجع ليس له صاحب.

وابتسمتُ ابتسامةً واهنةً، فردت أناملها علَى خدي، قالتْ:

- لنْ أيأس مِنْ السّعي، لا يخيب السّعي إلّا إذا فسدتْ النّوايا، أخبرونا في مكتب المُدّعي العام أنّ هناك فرصةً لتفعيل عفو أهل الدّم، قانون القَصاصِ يمنحهم حقّ الفَصل النّهائي في مصيركِ، لكنّهم يقولون لا بدّ أنْ تُفصِحي عَنْ هوية الرّجل الذي كان معكِ وقت وقوع الجريمةِ.

- أفصحت يا أمّي، "شيخي إمام"، صديقه، لكنّهم لا يصدّقونني.

- تقارير الأمنِ تؤكّد عدم وجودِ شخص بهذا الاسم، لكنّي أصدّقكِ، لمْ أربّكِ علَى الغشّ، وعمومًا سنحاول الضّغط عليهم عَنْ طريقِ وسائطٍ آخرين، رتّب أبوكِ الأمرَ مَعْ بعضِ كِبارِهم.

- وأين أبي؟ لماذا لمْ يزُرني؟!

تُخفِض بصرها، تقول:

- لمْ يصرّحوا له، اكتفوا بتصريحٍ واحدٍ، إنّما أعدِكُ أنّه سيزورك المرّة القادمة، اصبري.

- فقدانُ الشّجاعةِ يؤلم أكثر مِنْ الصّبرِ يا أمّي، ولمْ تعُد لديّ شجاعةُ الانتظارِ أساسًا.

- أبوكِ يؤمن أنّك ستنتصرين، يؤمن أنّكِ ستدخلين عليه مهلّلةً ولو طال الوقتُ.

آه يا أبي، ألا تعرف أنّ الموتَ أسبق؟ أنّ الوجعَ أبدٌ؟ هل سأرحل دون أنْ ألتقيك في لحظةِ غفرانٍ عمّا تركتُه بداخلِك ولمْ أحترز؟ سيقولون لك: "إنّ الأحبّةَ يموتون، تمامًا كالحزنِ، يموت أيضًا". ستقول لهم: "الحزنُ يلد حُزنًا، نسلُ الحزنِ لا يموت".

رأيتُك يا أبي ذات ليلةٍ بعيدةٍ قادمًا مِنْ هناك؛ مِنْ أفقِ الغيابِ، علَى كتفيك ذكرياتُنا، وفي عينيك مدادٌ، قلت لي: "وها هي ذكرياتُكِ يا ابنتي أحملها معي أينما أسير في هذه الحياةِ علَى غير هدى، سنتطهّر مِنْ اللّوعةِ بالذّكرياتِ يا ابنتي".

- زملاؤكِ يا ابنتي يسألون عليكِ، بيتُنا صار قبلةً للزّوارِ، قصّتُكِ يردّدها الجميعُ، كلّهم يؤمنون ببراءتكِ.

- الأهمّ، أنّ القاضِي، الذي سأُعرَض عليه قريبًا، يؤمِن هو الآخر.

أسندُ رأسِي علَى راحتِها، فتسنِد جبهتَها علَى كتفي:

- سيؤمِن يا ابنتي، لو تكاتفوا حتّى علَى ألّا يؤمِنوا، لنْ يزيّفوا الحقيقةَ، الله عادلٌ يا ابنتي.

"شُعلة"؛ أعرف أنّي إذا رحلتُ سترحل مِنْ بعْدي مواقيتُ البّهجةِ، وعمَارُ المجازاتِ المليئةِ بالخيالِ والوَصفِ، سأرحل كما يرحل أشباهُ

البشر المحكومُ عليهم بالعوز أحياءً وموتَى، سأرحل كالظّلِ الهاربِ مِنْ صاحبِه، كالمَسدِ المُنفلتِ مِنْ وثاقِه، وكالرّيـح سأترك لكما المسافات تمشيانها وحيديْن، وأتبدّد في السّماوات، سلامٌ عليكما، صبّرا نفسيكما، لا بأس، سأكون كالمتعبَةِ إذا استراحتْ؛ فرقدتْ.

عندما انتهى وقتُ الزّيارةِ، لمْ أكنْ أريدُ تركَ يدِها.

يقتطعونني مِنْ جسمِها كصخرةٍ تُقتَطع مِنْ جبلٍ، تتهشّم، وتتحوّل إلَى غُبارٍ.

(9)

17 تشرين الثّاني- 2007

سجن إيفين- سعادات آباد- شمال غَرْب محافظة طهران

عزيزي «إيوان»:

يا لها مِنْ تسعة عشر عامًا تلك التي مرّتْ من عُمري!

كنتُ أقول لنفسي، بدوامِ الحُلمِ، مثلُكِ "ريحانة" لنْ يموت إلّا علَى فِراشِ الشّيخوخةِ، يتحلّقكِ أولادُكِ ويُمسّد زوجكِ رأسَك، فخذي وقتَكِ مِنْ الحياةِ كما ينبغي أنْ يكون، لا تتركي بهجةً إلّا وعشتِها.

كانتْ بهجتي بيْن أوراقي ودفاترِ الرّسمِ، أخرجُ إلى الشّوارعِ، أتحوّط بالحُلمِ، وأتعرّف إلى الوجوهِ كي أدوّنها بأوراقي، علّمتني "شُعلة" أنّ السّعادةَ لا تُقاس بما نُحبّ، إذ غالب ما نحبّ يجلب إلينا الشّرورَ، بلْ تُقاس بما نتركه ليحبّنا ويسكننا بإرادتِه، وهكذا تركتُ الفَنَّ يحبّني، كأنّي مختارتُه.

قديمًا اختارها الفَنُّ أيضًا، هامتْ به، درَستْ في كليّة الفنونِ وصنعتْ بفنّها لوحات زيّنتْ بيوتَ الجيران والأقارب، وكان ظنّها سينتشلها مِنْ قاعٍ لسطحٍ، لولا أنْ بدأ ينطفئ هذا الولع مِنْ شدّةِ جريان الزّمنِ، وفي حين لمْ تُقبَل بوظيفةٍ ولمْ تنتفع بالفنِّ، يجري

الزّمن بها وبنا، نعترك بعضَ الأحيان ولا يصفو إلّا في أشحّ اللّحظات وأندرها، وفيما ترتّق ظروفَنَا عامًا بعْد عامٍ، كان حُلمُ الفَنّ يتلاشَى، يذهب إلى هذه المنطقةِ العدميةِ في الطّموحِ، إنّما أورثتني هذا الولع، تقول: "سأحقّق بكِ ما لمْ يتحقّق بي".

وكانتْ "شُعلة" تحترف فنًّا آخر؛ فنّ التخلّي، حيث يُمكنها ببساطةٍ أنْ تتخلّى عنْ الأشياء العابرةِ، بالأدقّ؛ ترمي كلّ ما يقع تحت شهوتها للتخلّي في سلّةِ القمامة، قالتْ جدّتي لأبي قبْل زفافِه عليها بساعاتٍ:

- احذر، إنّ ابنتي تُلقي بكلّ ما تطوله يداها في القمامةِ.

ظنّها أبي مزحةً، ثمّ بدأ يكتشف الحقيقةَ مُنْذ أُغلِق عليهما بابٌ واحدٌ.

يحكي لي أبي الحكايةَ مِنْ بابِ التندّرِ، ويضحك، ثمّ يستكمل:

- بخصوص الأشياء التي يُمكن استبدالها أو الاستغناء عنها لمْ يُمثّل لي الأمرُ مشكلةً، وكنتُ لا بدّ أنْ أقلّب في القمامةِ قبْل التخلّص منها، أعرف خِصالَ "شُعلة"، واعتدتُ عليها، كانتْ الأزمةُ كلّها في الأشياء التي لا يُمكن أنْ تعوّض، مثْل المسبّحةِ المُباركةِ التي أهداها لي إمامي، والمِسك القادم مِنْ بلاد الحِجازِ، أو بعض النّقود، لدرجةِ أنّي صحتُ فيها يومًا: "أخشى أنْ أستيقظ ذات صباحٍ فأجد أنّي قضيتُ ليلتي في صندوقِ قمامةٍ!".

وكأيِّ أمٍ؛ كانتْ أمّي ترعاني، لمْ أكنْ أعرف الأساليب ولا الاحتياطات التي كانتْ تتّخذها كي تمضي بنا داخل عبَاب الحياةِ، لمْ أكنْ حتّى

أعرف شكلًا محدّدًا لمثل هذه الرّعايةِ، لكنّها دامتْ تؤكّد لي دومًا أنّ الحياةَ لا تُحتمَل لولا وجودي، وبافتراضِ أنّ الأمّهات لا يعرفنْ الكّذبَ كنتُ أرجّح الصّدقَ، بينما في جلساتِ النميمةِ بيني وبيْن أبي أسخر ممّا تقول، وأهمس له:

- يعني ما الذي تفعله أكثر ممّا تفعل أقلّ أمٍ!

فينظر لي بغضبٍ ويقول:

- عيب يا "ريحانة"، هل سيصبح جزاؤها بعْد الشّقاءِ قسوتَكِ؟!

مِنْ قسوتي، ضربتُها بصحنٍ مِنْ النّحاسِ مرّةً وهي تصلّي، سمعتُها تقرأ القرآن وتقول: "فويلٌ للمصلّين". سألتُها عَنْ الويل فقالت: "هو وادٍ في جهَنّم". ولمّا ضربتُها خشيتُ عليها مِنْ النّار، ألمْ تقل إنّ الويلَ للمصلّين؟! لكنّها فَطِنتْ إلَى حُسنِ نيّتي، ضمّتني إليها واستكملتْ لي بقيّة السّورةِ، وشرحتْ لي معناها، وهي تدعكُ رأسَها مِنْ ألمِ الضّربةِ.

ومِنْ قسوتي كذلك؛ التي لمْ يكنْ لصغيرةٍ مثلي لمْ تتجاوز أعوامَها السّبعةَ أنْ تميّزها، قالتْ لي في يومٍ:

- أتحبّينني قدر ما أحبّك؟

فأجبتها حائرةً:

- أحبّكِ يا "شُعلة" مثلما أحبّ كلّ الأشياء وكلّ النّاس.

فابتسمتْ وقالتْ معاتبةً:

- حبّكِ لكلّ الأشياءِ يا جاحدة! ليتكِ تكبرين.

ظللتُ أعوامًا أفكّر: ما حاجتُها لحبّي؟ ألا يكفي أنّها تحبّني؟ كانوا يعلّموننا أنّ الأمّهات يعطين بلا مقابل، وأنّ الأطفالَ يأخذون بلا حسابٍ ودونما تفكيرٍ، أهكذا يعلّموننا ثمّ تُخالف "شُعلة" سُنَنَ العَطاءِ؟

هل كان ينبغي لنا أنْ نعرف –نحن الصّغار- أنّ العَطاءَ تفاصيلُه لا تكاد تُرى لكنّ جوهرَه مُجملٌ؟ كالصّورةِ التي كلّما ابتعدنا عنها تكاملتْ تفاصيلها، مثلًا؛ كيف كان لي أنْ ألاحظُ أثوابَها المتهرّئةَ مُنْذ سنواتٍ لمْ تتبدّل؟ كيف كان لي أنْ ألاحظُ أنّها كانتْ تستدين لأجلِ أنْ تقدّم لي هديةً في عيدِ مولدي؟

في عيدِ مولدي الخامس عشر، أحضرتْ لي هديّةً عجزتُ عَنْ شرائِها مهما تدبّرتُ المال، كنتُ علَى سطحِ البيتِ ألملم الدّجاج وأجمَعه في القنّ لأكنس الأرضيّةَ، ثمّ وجدتُها واقفةً أمامي ومِنْ خلفها يقف جروٌ صغيرٌ، تركتُ ما بيدي وهرولتُ إليه، قفز إلَى حضني كأنّه يعرفني، كأنّ بيننا ألفةً مِنْ طيلةِ المَعشرِ، كانتّ لمْ تزل واقفةً وعلَى وجهِها ابتسامةٌ وديعةٌ، قالتْ:

- ها.. ماذا ستسمّينه؟

- علَى اسم الكلب حارس أصحابِ الكهفِ.

ضحكتْ:

- لمْ يُذكَر اسمُه!

- حسنًا، سأسمّيه "حارسَ".

أبحث الآن بيْن كلّ الأشياءِ، بيْن كلّ الذّكريات، في ظلّ هذا الصّمت، عن عطاءٍ غير مستحقّ يا "إيوان"، وما أكثر ما أعطتِني "شُعلة"!

قارنتُ حبّي لها بكلِّ الأشياءِ، وقد كنتُ لها كلّ الأشياءِ.

بالزّمنِ؛ صرتُ لا أكونُ إلّا إذا جاءتْ "شُعلة"، كأنّني المطرُ، كأنّها الغيمُ، حبّي لها تفجّر، كأسطورةٍ، كينبوعٍ هَدر بعْد غليانٍ، وبالزّمنِ أدركتُ أنّها كانتْ ترمّم حياتَنا بكلِّ صبرٍ، بحيث لا نبدو في عوزٍ أو ينقصنا شيء، وكنتُ أتحيّرُ كثيرًا أمام إصرارها الدّائمِ علَى امتلاك الأمل، وعلَى معالجتها وتدبيرها لجميع الأمورِ بمثل هذا الدّأب والتّفاؤل، وكانتْ إذا ألمّ بنا كربٌ تخرج إلَى مصلَى السّنةِ، تلك عادتها، حتّى لو لمْ يستحبّ أبي خروجها المتكرّر إلَى المصلَى تبتهل وتدعو وتنضمّ إلَى صفوفِ الدّارسين والمستمعين إلَى حلقاتِ الإمامِ، كانتْ تذهب إلَى المصلَّى، إلى حيث لا يذهب إلّا الرّجال، في العادةِ، لتنظّفه وتغسل ميضأته، طوعًا، وبلا أجر، وكلّما ضرب أبي كفًّا بكفٍّ في اندهاشٍ مِنْ تصرّفاتها، قائلًا:

- بالله كيف يرونكِ في المسجدِ وأنتِ تُمارسين ما يتحصّلون علَى أجرٍ لقاء ممارستِه؟!

تقول:

- إنّي تطوّعتُ في خدمةِ الله، وتواضعُنا لا ينفي قيمتَنا، بل يؤكّد علَى قربنا مِنْ الله، جوهر القُربِ مِنْ الله هو الزّهدُ فيما عدَاه، بالله كيف تَرَى أنت في خدمتي لله مسبّةً؟ ألا تخجل؟!

- لكنّ لساني يعجَز عِنْ الرّدِ علَى كلامِ النّاس! يقولون امرأتك تُخالط الدّراويشَ!

- هؤلاء كلامُهم قبحٌ، لا يؤخَذ منهم ولا يُردّ عليهم، ألمْ يهبنا اللهُ لسانًا كي نعبّر عنْ الجمال؟ لماذا يشغلك التّلسينُ بالقُبح إذن؟

- دعكِ مِنْ كلامِهم، في حقيقةِ الأمر، أنا أخاف عليكِ، إنّ السّلطةَ تحجِر علَى النّساء أنْ يخرجن للمساجدِ مثْل الرّجالِ يا "شُعلة"، خصوصًا نساء السُّنةِ، ما بالكِ وأنتِ تعاقرين المساجدَ؟!

- لا سُلطةَ بعْد سُلطةِ الله.

- جرجرينا خلفكِ إذن في السّجونِ يا "شُعلة"!

يُدبِر عنها وجهَه، وينفخ دُخانَ سيجارتِه.

يقول أبي، محتّجًا، مَعْ كلّ أزمةٍ نمرّ بها، إنّنا أقليّة؛ السّنة، ولمْ أكنْ أفهم هذا المعنَى، كانتْ كلّ علاقتي بالأمرِ أنّنا مسلمون مثلنا مثْل الشّيعةِ، أجل هم يحكمون ويتبوؤون المناصب الرّسمية جميعها، يضطهدون السّنة الذين لا يتجاوز عددهم عُشري مسلمي البلاد، أعرف هذا تمامًا، مع ذلك نظلّ مسلمين بالتّساوي مهما بدتْ الفوارق فيما بيننا، نحمِل قرآنًا واحدًا ونؤمن بنبيٍّ واحدٍ، رغم هذا؛ نؤتَى عُنفًا في الشّوارع تبعًا لتقلّبات المزاج السّلطوي، حتّى إنّهم حرمونا ذات عيدٍ مِنْ ممارسة الصّلاة في المصلَى.

يومذاك استيقظتْ أمّي مبكّرًا، لمْ يكن اللّيل قد انصرف، وسمعتُ خطوات قدميها وهي تسير بحذر خشية أن توقظ أبي، لكنّ أبي سرعان

ما أحسنّ بها، كانتْ دبّة النملة توقظه على حدّ قولها، سعل سعلة طويلة ونادى عليها، هتفت:

- صبرًا.

بسملتْ وأشعلتْ البخور، طوّفتْ بالمبخرة في زوايا البيت، ثمّ دخلتْ إليه، رفعتُ الغطاء من على رأسي وقمتُ إليهما، كان أبي يقول:

- ليس من عادتك أن تقلقي مبكّرًا!

ردّتْ:

- قلبي منقبض.. لا أعرف!

صلّينا الفجر جماعةً في البيتِ، وبعْدها بساعةٍ سبقنا أبي لصلاةِ العيد، وظلّتْ أمّي تكوي شادورها وحجابي، ولمّا تجهّزنا خرجنا في أعقابِه، شدّدتْ أمّي قبضتَهَا علَى يدي، فيما كانتْ ندفٌ مِنْ ثلجٍ تتساقط حولنا، عبرنا في الزّحامِ، تعرّضنا لمضايقاتِ بعض الصّبيّة الذين افترشتْ بضائعُهم الشّوارعَ بعشوائيةٍ، كلّ النّساءِ يرتدين الحجابَ أو الشّادور، حتّى الفتيات الصّغيرات، حرّمتْ علينا الحكومةُ بقراراتِها ممارسةَ كلّ شيءٍ يخصّ طبيعتنا، منعوا التبرّج والبنطلونات الجينز؛ لأنّها أمريكيّة، يقتحمون مراكزَ التّجميلِ ويقبضون علَى الفتياتِ بحجّة الحفاظِ علَى الشّريعةِ، منعوا حتّى المسيحيّات مِنْ أنْ يخرجنْ إلّا والواحدةُ فيهنّ تضع شالًا علَى رأسِها.

وجدنا النّاس متجمّعين أمام مصلَّى السُّنَة، وقوّات الأمن تحوّزه،

وبعضُ المهندسين والعُمّال يضربون جوانبَه يهدّمونه بمعاولِهم، واقتحموا ساحتَه بمعدّاتهم، ثار السّنةُ، واحتكّوا بالقوّات، تلاحموا معًا، وجرتْ الدّماءُ في الشّوارعِ المُحيطة بالمصَلى، كان القانون يمنعنا مِنْ بناء المساجدِ، والآن يهدّم ما تبقّى منها!

ثارتْ الأتربةُ فوق رؤوسنا، وتهتُ في الزّحامِ، سمعتُ صياحَ أمّي ونداء أبي، لكنّي لمْ أعثر عليهما في ظلّ اللّغطِ والتّشاحنِ، كانتْ تلك هي المرّة الأولى التي أتعرّض فيها للضّرب علَى يدِ القوّاتِ، تمزّقتْ ملابسي، وسقطتُ علَى الرّصيفِ المبلّط بالقرميدِ فأدرتُ وجهي بعيدًا عنهم، كأنّي أحاول الاحتماءِ منهم بتجاهل وجودِهم مِنْ حولي، في تلك المرّة اختبرتُ ما لا يجوز لطفلةٍ أنْ تختبره، تلصّصتُ بعينيّ ناحيةِ الزّحام، وجدتُ السّنةَ واقعين أرضًا وعُصيَ القوّات تسقط علَى أجسادِهم، يُركلون بالأقدامِ ويُدهَسون بالأحذية، وفي ظلّ هذا كانتْ رأسي تفكّر في وسائل الاختباءِ.

فيما قليلٍ سحبتني يدُ أبي، رفعني إلَى صدره وضمّني، قبّلني قبلتين وهو يلمس وجهي ليطمئِن، كانتْ بعضُ أجزاءٍ منه قدْ اكتستْ بالزّرقةِ، زفر زفرةَ سخطٍ وسار بي مبتعدًا، في الوقتِ الذي كانتْ أمّي تحاول أنْ تستر ما تعرّى مِنْ جسدي بشادورِها، كان الجزع باديًا على وجهيهما، وقال أبي:

- اليوم حُرّمتْ علينا صلاةُ العيد..

ورفع وجهَه إلَى السّماء:

- هل يرضيك هذا يا الله؟!

ثمّ قبّلني قبلةً طويلة وبدا دامعًا، وأكمَل:

- سامحيني يا ابنتي.

ورأيتُ أمّي تبكي أيضًا، وقالتْ:

- فلنلزَم بيوتَنا إلَى أنْ يشاء الله.

لكن لازم الحُزنُ بيتَنا معنا لأيّامٍ، كان أبي خلالها مزاجه معكّرًا، لا يحتمل أيّ جدلٍ أو حوارٍ، يقضي لياليَ خارج البيتِ، قالتْ أمّي:

- لعلّه جالسٌ يسكر مع أصحابِه، أو يشرب الحشيش!

ثمّ استدارتْ نحوي:

- لكن أباكِ يا "ريحانة" يعرف الله، لن يستمر على هذه الحال طويلًا.

ذات مساءٍ، جاء أبي مبتسمًا، ظلّ يلاطفنا ويداعبنا، وبدا انسلخ من حزنِه، أيقنت أمّي أنّ الله عاد به إلينا، فسمعتُ صراخها طالعًا من غرفتهما هذه اللّيلة، كان صراخًا عاليًا مليئًا بالغنج، تلصّصت على الغرفة وكنتُ أنصت للتأوّهات، سمعتهما يتهامسان، وأدركت أنّها شربت معه أيضًا مِن زجاجةِ النّبيذ الشّيرازي التي يخفيها في الدّولاب، وأنّها انسطلت، ظلّا يرمحان في الغرفة، ويتداعبان، فتئن، وتتوجّع، وتسرسع، وفي الصّباحِ، لمحتُ على وجهها إشراقة، كأنّها قد انفتح لها بابٌ من أبواب السّعادةِ.

كانتْ السّماءُ في اللّيلِ، قد راحتْ تكشف عن ضوءٍ متكسّرٍ للقمر،

كنّا فوق سطحِ البيتِ، والدّواجنُ تتسحّب مِنْ حولِنا، تنقر التّرابَ، تَزُكّ علَى أقدامِها تنبش عَنْ حبوبِ القمحِ والذّرةِ، رفعتْ أمّي إصبعًا للسّماء تقول:

- أترين هذا الدّخان؟!

أومأتُ برأسي، كان دُخانٌ يلثّم أعينَ القمرِ.

- إنّها أرواحٌ معلّقة.

قالتْ، وربّتتْ على كتفي، وأضافتْ:

- على يدي ستعرفين كلّ الأسرار.

ابتسمتُ ابتسامةً شاحبةً وقلتُ:

- لديّ بعضُ الأسرارِ أيضًا.

ضمّتْ رأسِي إلَى صدرِها:

- لكلٍّ منّا أسرارُه، احتفظي بسرّكِ لنفسِكِ، لا يُفشِي السّرَ إلّا صاحبُه.

(23)

25 تشرين الأوّل- 2014

سجن كوهردِشت- مدينة كَراج- غَرْب محافظة طهران

أفقتُ علَى خلخلةِ المفاتيحِ الحديديّةِ تُنذِر بدنوِ غايتِهم، يئزّ البابُ فتئزّ معه روحي، شدّوني مِنْ وهنٍ، إنّ جسدي يئِس، أُعيَى، تشرّب هوانَه عامًا بأعقابِ عامٍ، شوهّته هواجسُ الترقّبِ.

غزّتْ ضابطةُ العَنبرِ أصابعَها في ذراعي كأنّها مخالبٌ، شعرتُ بالوخزِ وإنّ كنتُ فقدتُ الشّعورَ بالأشياءِ تدرّجًا مَعْ تتابعِ الألمِ، توجّعتُ، قالتْ بلؤمٍ:

- العُرس يا "ريحانة"، تمّم الله لكِ علَى ندمٍ.

نهضتُ، تسنّدتُ علَى خذلاني، شردتْ عيناي في العتمةِ تستشفّان، لا شيءَ هُنا إلّا المصير القاتم، الظّلمةُ نفسها التي أعيشُها منْذ أودعوني هذا القَبر، الرّائحةُ نفسها، رائحة عرقٍ وبولٍ ونتانةٍ.

كنتُ عطشانةً، كأنّ روحي تتوسّل قطرةَ رحمةٍ، قلتُ للضّابطةِ بصوتٍ متهدّجٍ، فردّتْ في صلفٍ:

- سترتاحين مِنْ العطش، مِنْ كلّ حرمانٍ.

"لكنّ عطشَ القلبِ لا يسكنْ بقطرةِ ماءٍ!".

همستُ لنفسي وأنا أجرجر قدميّ بلا عزيمةٍ، بلا تردّدٍ، لا يُجدي التردّدُ الآن، حتّى لو كانتْ مشاعري بأسرِها تحاول أنْ تسلِخ نفسَها مِنْ قساوةِ اللّحظةِ.

ثمّة أوقات نحن لا نحتاج فيها أكثر من الموتِ كي نختبر إيماننَا بالاكتفاءِ، نجرّب ضمائرَ الآخرين تجاه الحِرمان، للأسف، دائمًا ما يفضحهم موتُكَ، سيتحجّجون أنّ الموتَ مستحقٌ، ردّ عليهم، قُل لهم إنّ الحياةَ، أيضًا، مستحقّةٌ.

برجاء؛ اكتبوا علَى قبري: "ماتتْ دون أنْ ترتوي".

لعقتُ الدّم الذي يسيل مِنْ فمي، قضيتُ السّاعات الأخيرةَ وأنا أعضّ شفتيّ وأمزّق بأسناني لَحمَ فمي مِنْ الدّاخلِ خشيةِ الوداعِ، هل عليّ أنْ أجرّب الخوفَ الآن؟ لمْ أكنْ أعرف، هل سأرتاح فعلًا؟ لمْ أكنْ أعرف.

في تمامِ العتمةِ سمعتُهم يتهامسون، يهيّئون أمرًا سيحدث في علنٍ، وفيما تتحرّك بي الضّابطةُ كان شعاعُ نورٍ يَرعِش آتيًا مِنْ جِهة السّاحةِ في الخارجِ، بلعتُ ريقي وحاولتُ أنْ أستبصر، الوجوهُ مهزوزةٌ، الاضطرابُ يتغلغل في حشايا الوقتِ، كم تبقّى علَى حسمِ المسألةِ؟ الزّمنُ سوف يتباطأ حالما يستحضِر كلّ السّنوات الماضية ويحطّها فوق كاهلي، كي أمضي بها إلَى هناك، إلَى حيث لا يكون عذابٌ بعْد ذلك، وبينما أتبَع الضّابطةَ إلَى السّاحةِ، كانتْ رأسِي تتراخَى، والذّكريات تتدَاعَى إليها، تتداعَى مجزّأةً دون أنْ تكتَمْل ذكرَى واحدةٌ.

بدتْ الذّكرياتُ ممزّعةً.

(13)

19 حزيران- 2010

سجن شهر ري- عنبر «1»- ورامين- ضواحي محافظة طهران

أوشك أنْ ينتصف اللّيلُ، ذلك عندما أخذتْ الرّيـحُ تزأر، وبدأتْ تدبّ فوق سطح الزّنزانة كأنّها ستقتلعه، وبدا الجبلُ المُحيط بالسّجن يئنّ صُراخًا، كأنّما يريد أنْ ينفلِت مِنْ حزامِ الأرضِ الذي يطوّق خصرَه.

أصختُ السّمعَ، كان وشيشُ المَطرِ ضعيفًا، لكنّي أحسستُ به، تخيّلتني عُدتُ بالزّمنِ أعوامًا للوراءِ، وأنا أغمض عينيّ علَى سطحِ بيتِنا أرطّب وجهي بوابلِ المطرِ، وأفكّر في رسالةٍ قادمةٍ أُترجِمُ فيها لـ"إيوان" إحساسًا جديدًا، آنذاك كنتُ أشعر أنّ الحريةَ شرعُ الحياةِ، أنّ البنتَ تُشبِه الفراشةَ، ترفرف، تستعطِر، بلا قيدٍ، ودون أنْ تجذبها أرضٌ.

كنّا إذا أحسسنَا الرّيـحَ قادمةً من بعيد؛ نسمع لها صوتًا، كأنّما ترعِد، وكانتْ "شُعلة" تقول: "تأتي الرّيـحُ دومًا بما لا نحترِز، الرّيـحُ مِنْ صُنع السّماء لكنّ أثرَها من صُنع الشّرير، ولم تسلَم مدينتُنا من الأذى طيلةِ الشّرِّ، مع قيامِ الرّيـحِ".

الشّرُّ يا "شُعلة"، هنا، لا ملامح له ولا هويةٌ، كالصّعقِ ساعةَ برقٍ،

كالأفكارِ المختلّة وقتَ النّكباتِ، كالخيالِ الجامحِ الذي لا يعرف طمأنينةً، في كلِّ نوبةٍ تجتاح فيها الرّيـحُ السّجنَ يكون شرٌّ، وفي كلّ مرّةٍ تتقلّب فيها علينا، يكون للشرّ ألفُ وجهٍ.

عزيزي "إيوان":

لماذا تورّطتُ في الكتابةِ إليكَ؟ لا أعرف كيف تجلّى القدرُ في صدفةٍ كهذه! هل كانتْ رسائلي إليكَ تطهّرًا مِنْ الوحدةِ؟ لستُ أفهم مِنْ ألاعيبِ الصّدفةِ شيئًا، فعبر هذا العالم الشّاسع، عبر كلّ المصائرِ، يلتقي مصيرانا دون أنْ يلتقي وجهانا.

عزيزي "إيوان"، أشعر الآن أنّ ثمّة معنًى وافيًا للألمِ عليك أنْ تشاركه معي، كاثنين سيكتفيان بالوقوفِ علَى حدّ الحقيقةِ دون عبورِ المستحيلِ، الحقيقةُ الوحيدةُ التي جرتْ بتمامِها يا "إيوان" هي الضّياعُ، ضيّعتنا المسافات مِنْ قبْل وها نحن نضيع لأنّه لمْ تعُد توجد مسافات، هذا التناقض لا يحدث إلّا في القصصِ الخرافيّةِ، لكن؛ أوَ ليست قصّتي خرافيّة؟! أوَ ليست معاركنا جزافيّة؟! "إيوان"، صدّقني، هذا الحُلمِ المتحرّك الذي كنّا نطارده، سيطاردنا يومًا ما، وسنلتقي.

الزّنزانةُ خانقةٌ، والمحكوم عليهنّ الأخريات غفون علَى أجنابهنّ، لمْ تكنْ ثمّة مساحةٌ وافرةٌ للنّومِ علَى الظّهرِ، وكنّ يتنفّسن في الغرفةِ مِنْ حولي كأنّهنّ يلهثن، يتنفّسن والأنفاسُ المُتعَبةُ تلفح الأعناقَ القريبةَ الملتصقةَ بالأفواه، يتنفّسن كأنّهنّ يركضن في أحلامهنّ خوفًا مِنْ خطرٍ وشيكٍ.

في حُلمي رأيتُ أمّي، كنتُ جالسةً تحت قدميها تضفّر لي شعري،

كانتْ تغنّي، وكان شعري مبتلًّا، تغنّي حينًا وتصفّر مِنْ بين شفتيها صفيرًا خافتًا حينًا آخر، أمامنا المرآة، والأمل، في هذا الحلم قالتْ لي أمّي:

- ليس أجمل منكِ.

فضحكتُ، قلتُ لها:

- ليس أطيب منكِ.

- بختُكِ مكتوبٌ علَى وجهكِ.

قالتْ، فاستدرتُ إليها:

- لا أرَى شيئًا.

- إنّه مكتوبٌ بحبرٍ سماوي سحري، الله يقدّر نصيبَ كلِّ إنسانٍ مِنْ الحياةِ بأنْ يكتبه علَى وجهِه.

- وهل يتبدّل هذا المكتوب؟

- يتبدّل فقط إنْ كان شرًّا، يتبدّل بالدّعاء الدّائم وذِكر الله وعدم الانقطاعِ عِنْ الصّلاةِ، إنّها الحقيقةُ التي لا يُمكن إدراكها إلّا بالتّأمّل والإيمان.

- وكيف يا أمّي أصل إلَى هذه الحقيقة؟

- انظري إلَى وجهِكِ، ستكتشفين الحقيقةَ، كلُّ حقيقةٍ مكتشفة ولو بعْد شقاءٍ.

الحقيقةُ هنا؛ في السّجنِ، باتتْ مألوفةً، استسلمنا لها، لحضورِها

المُهين، تلمع مواسيرُ البنادق التي يحملها العساكرُ المُنشَئون داخلِ أبراجِ المراقبةِ كأصنامٍ، تحاصرنا أسوارُ السّجنِ كداءٍ يُحاصِر الصحّةَ، كلّ شيءٍ لا يتحرّك عدا أوجاعنا، تتقدّم للأمامِ، يتراجع معها إيمانُنا، نتأقلم، علَى الجبروت نفسه.

الجرذانُ تتفصّد مِنْ كلّ جروحِ الحيطانِ كخيوطٍ مِنْ دمٍ، تعوّدنا أنْ تشاركنا الطّعامَ، الهواءَ، تأتِي لنا بالأمراضِ والموتِ مِنْ الخارجِ، وإن كان الموتُ حاضرًا بتمامِه هنا، نتآلف مع الجرذان، نشعر أنّها أعينٌ متلصّصةٌ تنقل لهم تفاصيلَ حياتِنا بالدّاخلِ، لمْ يكنْ لنا حول ولا قوّة، لمْ نعُد نستجيب حتّى للمؤثّرات، كالسّمعِ، كالإبصارِ، كاللّمسِ، كأنّهم جرّدونا مِنْ حواسّنا، عجزنا حتّى عَنْ النَومِ، وإذا فعلتْ إحدانا علَى استحياءٍ، سرعان ما تنتفض مفزوعةً، عندئذٍ تصطرع الأحلامُ في الخيالِ، ما بيْن ذكرياتِنا القديمةِ ومستقبلِنا المضّببِ.

ظللنا، بدوامِ العجزِ، نتأهّب لألمٍ جديدٍ، أو فكرةٍ اختلقها خيالٌ مريضٌ، تُزهق أرواحنا التي بدتْ مِنْ قبْلِ صالحةً للخلودِ، ألمْ يجهّزنا العالمُ في الخارجِ للخلودِ؟ ألمْ يكنْ صادقًا في معانيه؟ لماذا لمْ يؤسّس مشاعرنَا لمعنَى الهلعِ؟

في ساحةِ السّجنِ يسير العساكرُ يحملون البنادقَ، يهزّنا وقعُ أقدامِهم، يصمّ آذانَنا صوتُ استعداداتِهم لتنفيذِ المَهامِ الدّمويّة، لمَ كلّ هذا العتاد؟ لقدْ صار العجزُ مكينًا، ولمْ تجرِ في تاريخِ السّجنِ محاولةٌ واحدةٌ للهربِ، فيمَ يفكّرون وهم يؤمرَون بالضّربِ فلا يتردّدون؟ إلَى مِنْ ينبغي أنْ توجّه فوّهات بنادقِهم؟ ما جدوى أنْ يغربلوا جسومَ العرائس الأسيانةِ؟ إنّ العرائسَ لا تتحرّك إلّا إذا

حرّكوها بإرادتِهم، إذا وضعوها في الزّنازين وُضعتْ، إذا أخرجوها للنّحر أُخرِجتْ، لا تستفِهم، لا تستنكر، لا تعترض.

تشوّهتْ صورةُ العالمِ الذي أعرفه، نقلوني إلَى عالمٍ لا يتسّم بالحيادِ أو التجرّدِ، الشّرُّ معلومٌ بالضّرورةِ، عصيٌّ علَى التدبيرِ، والعدلُ محبوسٌ في زنزانةٍ مجاورةٍ، أقصَى ما يُمكن وصف الحياةِ به هنا هو: التّعايش فيما بعْد الألمِ.

أفقتُ علَى انفراجِ باب الزّنزانةِ، أفاقتْ كلّ المسجوناتِ، وقد وفدتْ دفعةٌ جديدة ممّنْ استحققن سَخط السّلطةِ الحاكمةِ، معظمهن مِنْ الفتيات اللّواتي لم تتجاوز أعمارهنّ سبعةَ عشر عامًا.

جلسن بيننا، فينا علَى الأحرَى، تلاحمن بأجسادِنا، سألناهنّ عَنْ سبب القبض عليهنّ، قالتْ واحدةٌ:

- كان هذا العام مضطربًا مليئًا بالأحداثِ، جُنّ جنون الاستخبارات واقتحموا بيوت طلّاب الجامعات والتّيارات الوطنيّة الدّينيةِ عقب الاحتجاجاتِ على تزوير الانتخابات الرّئاسيّة منْذ أشهرٍ لصالح "محمود أحمدي نجاد"؛ والتي أدّت إلى فوزِه بفترةٍ رئاسية ثانية، إنّهم يزوّرون الانتخابات فيما نزوّر طعامًا جُزافيًّا لبطونِنا! نفكّر إلَى متَى قدْ نصمد؟ إنّهم حتّى لا يُريدوننا أنْ نحتجّ مِنْ أجلِ البقاءِ!

قالتْ أخرَى منفعلةً:

- الغريب أنّهم يفعلون هذا في الوقت الذي اغتالوا فيه قرابة الثّلاثين مِنْ كِبار قادة الحرسِ الثّوري.

- نحن هنا أبعْد ما نكون عَنْ العالمِ إذن.

- حدث الاغتيال بمدينةِ "بيشين" في محافظة "سيستان" جنوب شرق إيران.

- ولو اغتالوا قادة هذا السّجن ما شُعرنا بشيءٍ أيضًا!

- طاشت السّلطةُ في الخارجِ بسبب هذا الاغتيالِ، جنون، جنون لمْ تعرفه إيران مِنْ قبْل.

- كيف كان موتُهم؟ مهينًا؟ هل تحوّلوا إلَى أشلاءٍ؟ إنّهم يهينوننا كلّ يومٍ وأبسط الأمورِ أنْ يهانوا في موتِهم طالما لا يُمكن إهانتُهم في حياتِهم.

- قضوا نحبَهم إثر تفجيرٍ انتحاريّ، السّلطة مصرّةٌ علَى توصيفِه بالانتحاريّ!

- مؤكّد قبضوا علَى المسئول بعْد ساعاتٍ!

- كلّا، بلْ أقرّت الجماعةُ السنيّة الثّوريّة "جُند الله" بمسئوليتها عنْ هذا الهجوم، حتّى إنّهم قالوا إنّ زعماء قبائل الشّيعةِ والسنّةِ، علَى حدٍّ سواء؛ والذين راحوا ضحيّة هذا الهجوم، إنّما هم شهداءً عنْد الله، ولكلّ حربٍ ضريبةٌ مِنْ المدنيين.

وسحبتْ مِنْ صدرِها سيجارةً مخبّأةً وعودَ كبريتٍ، مرّرتُه علَى الجدارِ في حركةٍ خاطفةٍ فاشتعل.

- لكنّ النّظامَ الإيراني ألقَى باللّومِ علَى إدارةِ "بوش"، واتّهمها صراحةً بضلوعِها في هذا الهجومِ.

- تتصارع الأنظمةُ وتُراق دماءُ الشّعوبِ!

- أنتن لا تعرفن ما يحدث في الشّوارع بالخارجِ، يتعرّض المواطنون لاختفاءات قسريّة واعتقالات عشوائيّة، تنتشر قوّات الدّرك وقوّات مكافحة الشّغب في كلّ شوارعِ إيران، تنتشر الفوضى وتتأجّج المظاهرات في طهرانِ العاصمةِ، لكنّهم يقمعون ألسنة المحتجّين بالعُنف والضّرب والسّحل علَى الإسفلت، ننتظر أنْ تنفجر طهران في أيّة لحظةٍ.

ونفختْ دُخانَ سيجارتِها، فقلتُ:

- مستحيل أنْ تنفجر، إنّها خاملةٌ منْذ أزمنةٍ.

- أنا واثقةٌ أنّها ستنفجر، تحدّث مندوبو تيارات المعارضة إلَى الصّحف وإلَى وسائل الإعلام، والنّظامُ يزداد حنقًا، باتتْ لديه رغبةٌ عارمةٌ في إخراس أصوات هذه التّيارات، إنّهم يقتادون المعتقلين إلَى مخافر الشّرطة وإلَى المراكز المتعدّدة لقوّات الدَّرك، ويقومون بإجبارهم علَى الإدلاء باعترافات مزيّفة، يهدّدونهم باعتقال أُسرِهم إنْ لمْ يُقرّوا بالوقائع المُسنَدة إليهم؛ والتي تعد في معظمها مجرّد تلفيقات مُرسلة لا أساس لها إلّا ما يكتبونه في تحريّاتِهم، معظم هؤلاء لمْ تصل قضاياهم للمحاكم، بالأخصّ سيّئو الحظّ ممّنْ كانتْ مراكزُ اعتقالِهم هي المراكز التّابعة للاستخبارات والحرس الثّوري والقوّات المسلّحة، أعداد المعتقلين تجاوزتْ الألفي معتقل بأقلّ تقديرٍ، قيد منهم حوالي مائتي معتقل هنا إلَى سجن "شهر ري".

ثمّ وضعتْ يدَها علَى كتفي:

- الانفجارُ ليس مستحيلًا، تكفيه شرارةٌ مثْل هذه، صدّقيني المستحيلُ هو استمرار هذا الوضع.

لكنّهم، ورغم تفاقم الأوضاعِ، بدوا، في سائر السّجونِ، يبتكرون وسائل التّعذيب علَى اختلاف أنواعِها، كأنّهم يبعثون الرّسائل إلَى الشّوارع الثّائرة في الخارج هناك، رغم احتجاج العالم علَى ما يحدُث داخل السّجون، إنّما لمْ تكن السّلطة الحاكمة معنية كثيرًا بالإدانات الدّوليّة، لمْ تكنْ معنيّة طوال التّواريخ المُظلمة التي مرّتْ بها بلادُنا، تواريـخ سوداء، ضحاياها المجهولون أكثر ممّن أُعلِنتْ أسماؤهم في كشوف محكمة الثّورة، أو المحكمة العُليا، عبْر هذه الأحداثِ ترّملتْ النّساءُ وانكسر الرّجال علَى أولادِهم، الذين غيّبوا في الزّنازين المُظلمةِ وتحت سُطوةِ النّظام الغاشمِ، كانتْ المخافر تمزّق جميع طلبات الاستئناف والاستدلال والإفراج والعَفو، لمْ يكنْ أحدٌ يكترث لحجم الحَنقِ الذي يعتمل في نفوسِ النّاسِ، ومهما بدا الحَنقُ عظيمًا كانوا قادرين تمامًا علَى إسكاته بالقمع، وصرّح أكثر من مسئول بأنّ المنظمات الحقوقيّة تهذي، بل تزايد علَى دولة إيران وتتجنّى عليها وتختلق ما هو دون الحقيقة بهدف زعزعة الأمن الدّاخلي للبلادِ، وأنّ شيئًا ممّا يذكرونه لا يحدث داخل السّجون، ثمّ وإنْ فضحتهم شاشات العالم كلّه كانوا يخرجون بتصاريـح من قبيل: "هذا شأن داخلي لا يخصّ أحدًا في العالم".

قضتْ الفتيات الجديدات حوالي أسبوعٍ معنا في الزّنزانةِ، دون أن تخرج واحدةٌ منّا إلَى الفناء الضّيق الذي يتوسّط الزّنازين، كما أُتيح لبقيّة المساجين، سجن بداخل سجن بداخل سجن، إنّه القيد اللّا نهائي علَى أرواحِنا.

لمْ نكنْ نأكل غير الخُبز الجاف الذي تآكلتْ حوافُّه جراء العَفَنِ

الأخضرِ العَطِن، وكانوا يخلِطون الماءَ بالملحِ، حدّ أنّ حناجرنا كادتْ تتقشّر ولمْ نستطِع أنْ نعتاد شربَه، ولمّا أرسل بعضُ المحامين الشّكاوى إلَى المحكمةِ، قطعوا عنّا الماءَ، فاضطرّتْ إحدانا إلَى أنْ تتبوّل علَى ملابسها، ثمّ ظلّت تعصر القماشَ في فمها مِنْ شدّةِ العَطش، كانتْ تنهنه وهي تقطّر الماءَ، دنتْ منها واحدةٌ وقالتْ: "أنا عطشانةٌ أيضًا".

ضبّاطُ السّجنِ كانتْ لذّتُهم في افتعال العذاب، يضغطون علينا نفسيًا مِنْ حينٍ لآخر بالتّهديداتِ، يمنعون عنّا الماء والطّعام فنضطّر إلَى عضّ أثوابنا مِنْ قَرصةِ الجوعِ، لا نرَى الشّمس ولا يتبدّل هواءُ صدورِنا، حتّى النّافذة العالية المفتوحة علَى الفناء كانتْ مغطّاة بأكياسٍ بلاستيكيّة سوداء، وكنّا إذا أردنا استكشاف أماكنِ النّومِ أو الجلوس داخل الزّنزانةِ نجسّ أجسادَ بعضنا البعض.

ولمْ يكنْ يبعث في أنفسِنا بعضَ التّسريةِ في هذه الآونة إلّا سجينةٌ خرساء، كانتْ تتعامل بالإشارةِ، وكنّا نرتجل الفُكاهةَ معها، لمْ نكنْ نفهمها، وكانتْ تحتمل دعاباتنا بطيبِ خاطرٍ، وكانتْ إذا انفعلتْ علا صوتُها واضطربتْ إشاراتُها، كان عُسرُ تواصلِها يثير حفيظةَ حارسةِ العنبر في كثيرٍ مِنْ الأوقاتِ، وكانتْ إذا اشتدّ بها الغيظُ تصرخ في وجهِها: "مثلكِ يُشنَق دون محاكمة! ما كان ينقصنا إلّا أنتِ!". تُدلّي لسانِها مرغمةً، تقول: "آآ.. آآآآ". تصفعها الحارسةُ: "آآ عليكِ وعلَى أيّامكِ الغبراءِ، ماذا تقولين؟".

كان للحارسةِ تفويضٌ دائمٌ بفِعلِ ما ترَاه مناسبًا لربطِ وضبطِ النّظامِ في العنابرِ، كان تفويضًا يتجدّد بوفودِ السّجيناتِ، التي لمْ تكنْ

تنقطِع، وكلّما غاظتها صاحبتُنا الخرساءِ بلا قصدٍ جُنّ جنونُها، تشدّها مِنْ شعرِها وتكنِس بها بلاطَ العنبرِ، بلْ، وفي أوقاتٍ متكرّرةٍ، تعرّيها، تسحبها مِنْ بينِنا، وحيث يكون الطّقسُ في الخارجِ مطيرًا، تقيّدها بأغلالٍ في كوّةِ جدارِ السّاحةِ، تراقبها مِنْ خلفِ زجاجِ مكتبها، تراقب ألمها، ارتعاشها مِنْ الصّقيعِ، وهي تشفط أنفاسَ سيجارةٍ في غفلةٍ عَنْ أعينِ الضّباطِ، وكان بعضُنا يسهم في المراقبةِ، إذ تستعين بنا الحارسةُ لندلّك لها قدميها المتشرّختيْن بالماءِ السّاخنِ في عزّ البردِ، أو نقصّ لها أظافرَهما التي احتشتْ بالطّينِ اللّزجِ، وكانتْ إذا خلعتْ الحذاءَ فاحتْ رائحةُ العَفنِ، كأنّها لا تخلعه إلّا للضرورةِ.

بمرورِ الوقتِ تلهّينا بالأحاديث العبثيّة، والتي كان معظمها يدور حول ما جرى في حيوات سابقةٍ، ذكرياتنا التي إنْ ظلّتْ بداخلِ أدمغتنا انفجرنا مِنْ القهرِ، وكنتُ أحكي لهم عنْ أمّي، عنْ أبي، صديقاتي، "إيوان"، وعنْ "وداع"؛ بطلة ألواني.

بات الزّمنُ سائبًا، لا نعرف بالضّبط متى يبدأ اليوم ومتى ينتهي، كنّا نلملم حكاياتنا ونمضي بها إلَى حيث يوم جديد مجهول آخر، وبدأنا نشعر أنّنا في قبوٍ سنخرج منه إلَى لحودِنا، لمْ تكنْ إحدانا واثقةً في النّجاةِ بأيّة حالٍ، وكنّا نختلق اللّعب، وقد سمحوا لنا، بعْد أسابيع، بقضاءِ بعضِ الوقت في الفناء نلعب بأوراق "الكوتشينة".

قبْل بدء اللّعب، نفترش أرضَ الفناء، ونرمق أغضانَ الشّجرةِ التي تحدّق بنا من أعلى، تطوّف حول وجوهِنا الهوام ويحوّم الذّباب، وتسبح في الفضاء المعلق ما بين البصرِ والشّرودِ؛ ابتسامات

السّجينات المتلهّفة للّعبِ، لكنّنا ننظر إلَى بعضِنا البعض نظرات خاوية بلا معنًى، كأنّ غايةَ اللّعبِ أنْ ننشغل عَنْ كلّ المعاني.

تتسلل من بين فروع الشّجرةِ المحلقة على مدى البصر أشعةٌ، تحجبها الفروع آونة ثم تفسح لها الطّريق، فتخبو وتتوهج، تتوهج وتخبو، بانتظام رتيب، يغيّم ذهني.

تبدأ اللّعبةُ فأرجع، ويبقى خيالي، معلقًّا هناك ما بين زحف السّحاب ببطن السّماء ورقص فروع الشّجرةِ بوجه الشّمس، وحوم الذّباب والنّاموس في الفراغ المحيط.

تقول واحدةٌ: "إنّ ذبابة قد تحافظ على توازن السّلالات"، فأقول: "لولا ذبابة ما كنّا". تضحك، ونبدأ اللّعبِ.

تهرول نحونا، عند بدء اللّعبة، كلّ الأشياء التي فقدناها مبكرًا، فتتابع اللّعب معنا باهتمام، ودائمًا تخرج من اللّعبة سجينةٌ، بيد أنّ لعبة القدرِ لن تفلت منها إحدانا.

اللّعبةُ عبارة عن مجموعة من الأوراق بعدد رؤوسنا، أوراق الموت، الحياة، البهجة، القدر، والحزن، من تقع في يده ورقة الفارس ذي المنجل، الهيكل العظمى، رمز الموت، هو الخاسر، أخاف أن يأتيني الفارسُ المظلم! نتناوب فيما بيننا أوراق اللّعب ونشحذ؛ تفكيرنا ومراوغتنا ومهارتنا، ويبقى خيالي هناك، خائفًا.

مؤكّد سنخرج مِنْ اللّعبةِ واحدة بعْد أخرَى!

فوجئِنا في صباحٍ بقوّاتِ الأمنِ تشنّ هجومًا علَى عنبرِنا، تتقدّمهم ضابطة خفر العنبر "سيما خانم"؛ التي لا تُرَى إلّا في نوباتِ العقابِ،

ظلّوا يشتمون، ثمّ انهالوا علينا بالهراواتِ والأحزمةِ والعُصي الكهربائيّةِ، أمروا بقطعِ الزّيارات عنّا، وأغلقوا بابَ ساحةِ العنابر، وحبسونا مرّةً ثانيةً ومنعونا مِنْ الخروجِ إلَى الفناءِ، لمْ نكنْ نعرف سببًا يدعوهم للغضبِ علينا، عرفنا فيما بعْد أنّ شكاوى المحامين أزعجتهم، وحرّضتْ عليهم جماعات المُعارضة الحَمقى؛ علَى حدّ قولِهم، فقرّروا تأديبَنا بالمكوث في العنابر مرّة أخرَى!

رحتُ أتأمّل المرارةَ التي كستْ الوجوهَ، شعرتُ بعطشٍ، وشعرتُ بجوعٍ، وشعرتُ باحتياجٍ إلَى أمّي.

كانتْ أمّي قد تقدّمتْ إلى المحكمةِ بأكثرٍ مِنْ طلبٍ للزّيارةِ، وفي كلّ مرّةٍ ترفضه المحكمة، علَى وعدٍ بقبوله في المرّةِ القادمةِ، ظلّتْ هكذا الحالُ لعامين وربّما أكثر، لمْ أستطِع رؤية أمّي وأبي، وشعرتُ أنّ رؤيتي لهما ليستْ مجرّد حقّ، بلْ فرض عَدلٍ، لمْ أكن أفهم لماذا يمنعونهما عنّي؟ ما الذي سيحدث أكثر ممّا حدث؟

عندما سلّمتُ نفسي لهم منْذ أكثرِ مِنْ ثلاث سنواتٍ، ظللتُ لشهرين لا يعرف أحدٌ مكاني، قالتْ لي أمّي بعْدها؛ عند أوّل زيارةٍ:

- لقد طُفنا سجون إيران سجنًا سجنًا، توسّلنا وقضينا لياليَ أمام أبوابِ المحاكمِ والمخافرِ، تخيّلي يا ابنتي..

صمتتْ قليلًا ثمّ أكملتْ:

- كنتُ أحلم بكِ وأستيقظُ غارقةً في بولي.. تخيّلي..

وبكتْ، كما تبكي اللَّبُؤات إنْ شاختْ أو نَفق صغارُها.

(4)

21 كانون الأوّل- 2007

جنوب محافظة طهران

عزيزتي «ريحانة»:

قطعوا عنّا وسائل الاتّصال مُنْذ هجمة لجماعةِ "مجاهدي خلق" الصّيف الماضي، خرجوا مدجّجين بالسّلاح مِنْ حقول الأرز والشّاي وانقضّوا علَى السّائحين، الدّماء أغرقت الشّوارع ومات كثيرون، عطّلتْ الحكومة المواصلات والمطار بعْد هذه الهجمة، وعزلونا في بيوتِنا وأصدروا قرارًا بحظر التّجوال، ظللنا لشهرٍ أو يزيد ملازمين البيوت، إلَى أن بدأوا يُعيدون الأمورَ شيئًا فشيئًا، عدا الاتّصال، يرونه خطرًا كفيلًا بترتيبِ هجومٍ آخر!

سامحيني إنْ اضطررتُ لردّ رجائكِ، وما أعزّ عليّ أنْ يُردّ لكِ طلبٌ، إنّما ألا توافقينني أنّ تواصلنا، بهذه الوسيلةِ، بهذه الكيفيّة القدريّة، أمتَع وأجدَى في كلّ الأحوال؟! دعيني أحتفظ بتفاصيلِكِ في الخيالِ إلَى حين نلتقي، وفي العمومِ أنا بارعٌ في فضّ أشواقي بهذه الطّريقةِ؛ الكتابة.

ثمّ إنّ صوتي الجريح سيصلُكِ عبر البحرِ، أوشوش البحرَ، أهمس له عنكِ، ويُبرِم لي وعدًا، في كلّ مرّةٍ، أنّه سيُسمعكِ صوتي.

عزيزتي "ريحانة"؛ أشعر بالخفّة إذا جلستُ إلَى البحرِ، يصبح الشّاطئ سحابةً، تحملني فوقها، كأنّ رمالَه تحوّلتْ إلَى هودجٍ مِنْ بُخارٍ.

هناك، علَى الشّاطئ، أجلسُ بلا رفقةٍ، هناك أضحك دونْ سببٍ، وأبكي في الوقت الذي يُفتَرض أنْ أضحك فيه، ينتابني الشّكُّ في كلّ المصائرِ المرهونة بمحبّتي، منْذ سنواتٍ بعيدةْ مات أبي، خرج ولمْ يرجع، هكذا، بهذه البساطةِ، مات في تعريّةٍ قدريّةٍ للمصيرِ، كنتُ ابن عامَيْن أو أقلّ، لا أحفظ ملامحه، لا يربطني به غير حكايات أمّي، ثمّ لفحتْ النّارُ عينَ أمّي أمام الموقد، فأتلفتْ شبكيّتها، في بساطةٍ أيضًا.

وبمثْل هذه البساطة مات "فارسِي" تحت عجلاتِ سائقٍ أرعَن.

أخرجُ إلَى الشاطئ بلا موعدٍ، حيث تسكن الشّوارعَ فوضى، أو حيث يعتريها الهدوء، بالنّهارِ، باللّيلِ، أو حتّى قُرب الفجرِ.

لا تعرفين مدَى السّعادة التي غمرتني عنْدما قرأتُ رسالتكِ الأخيرةِ، أنا أيضًا اشتقتُ إليكِ، لا أريدُ أنْ أبالغ، لكنّكِ أشعرتني بالنّبضِ مِنْ جديدٍ، ما الذي يُمكن أنْ نُطلِقه علَى هذا الشّعور؟ لا أعرف بعْد! هل سينضج؟ هل سيستقرّ علَى معنى بعينِه؟ لا أعرف! المهمّ أنّي اشتقتُ إليكِ.

أخرج إلَى الشاطئ، لمْ يعُد في المَدى شيءٌ على حالِه، يتلفّح الرّجالُ؛ "ديالمة كيلان"، بملامحِ الصّبرِ، وفوق أكتافِهم علامات استفهامٍ جدليّةٌ، كأنّ الحياةَ بلا إجاباتٍ.

يقولون كيلان الخضراء، جنّة إيران، بهجة النّاظرِ، بلد الجبال والسّهول والسّواحل الرّمليّة، بلد الطّبيعةِ البِكر، لكن صدّقيني، هي بلدُ الحُزنِ البِكر أيضًا، يرانا السّائحون سكّان الفردوسِ، ونرَى أنفسنا نسكن الجحيم، إنّه المقرّر يا عزيزتي علَى سائر الشّعوبِ المُنتهَكةِ.

أسيرُ مسافةً لا تزيد على مائتي مترٍ، حتّى تنبلج أمامي رمالُ الشاطئ، تهيّئ لنا نفسَها، أخطو، تغوص قدماي فيها، أتّسق مَعْ طراوتِها، الموجُ يضوّي، يلمع ومِن فوقِه يطرّح القمرُ عنه ضوءًا ساطعًا، كنتُ أستمدّ وجودي مِنْ البحرِ يا "ريحانة"، لكنْ تصيبني، في أوقاتٍ بعينِها، حالةٌ مِنْ الشّتات، قدْ أفسّرها في رسالةٍ أخرَى، إنّها الحالةُ التي أرغب أنْ أسلّم نفسي للبحرِ، أتمرّد علَى حُزني وأُهلك روحي طوعًا، قدْ يجري بي البحرُ لأمانٍ، لسلامٍ، قدْ يبدّدني مثْل رذاذٍ، قدْ يُسقطني البحرُ في قاعِه كائنًا يرَى الشّمسَ مِنْ تحت السّطحِ، إنّما؛ فكّرتُ كثيرًا في مغادرةِ الحُزنِ بإرادتي، كلّنا عنْد اللهِ شهداءٌ في غالبِ الأمرِ، اكتفتْ الحياةُ بهؤلاء الذين يعيشونها كأنّها بدءٌ ومُنتهَى، أمّا نحن؛ حُسرِنا، ولمْ نبدأ حتّى كي نخشَى النّهايةَ.

عزيزتي "ريحانة"، ما ألعن المسافات! ألا يُمكن أنْ يُغمِض المرءُ عينيه فيُلبّى رجاؤه؟ أرجو أنْ أراكِ، أنْ أثقب روحكِ بعينيّ، أنْ أنفذ إلَى ذكرياتكِ فأضغمها بذكرياتي، عزيزتي ما أبعد جسدكِ وما أقرب روحكِ! لهذا ربّما، لهذا الشّوق، قدّر لي الله عدم سماعِ صوتكِ أو الحديثِ عبر هاتفٍ، أريده صافيًا إلَى أنْ أكتمل بكِ أولًا، أوطّن تفاصيلكِ بداخلي تفصيلةً تفصيلةً، ثمّ إذا التقينا نكبّ الشّوقَ كما لو أنّنا نُولد مِنْ جديدٍ.

عزيزي "إيوان":

دعك مِنْ الهاتف، أوافقك بالطّبعِ علَى أنّ هذه الوسيلة القدريّة أنفَع لي، ولك، إنّها توقد الخيالَ.

أسمع صوتَك، نعم، لكنّه ليس جريحًا، إنّه آسرٌ، إنّه ينفخ في روحي، كنغمٍ صدّاحٍ، أسمعه، فيكركر قلبي مثْل فرحةٍ لحظيّةٍ، لا أكاد أصدّق أنّي أعيش الآن انتظارًا لرسائلك، إنّ اللّهَ كشفك لي كرؤيا مِنْ غيبٍ، أجل المسافاتُ قاسيةٌ، لكنّ الأرواحَ إذا التقتْ فاضتْ، وذلّلتْ كلّ المسافاتِ، سنلتقي حتمًا، إنْ كان تعرّفنا بمثْل هذه الوسيلةِ فما أقرب لقائِنا.

بيد أنّك لا بدّ ألّا تقسو علَى حُزنك، لأنّه حُزنٌ شريف، حُزنٌ جيء به إليك كي تتوسّل السّعادةَ ما أمكن، فإذا سعِدت، امتلأ قلبُك وما فرَغ، عمومًا اترك لي أمرَ السّعادةِ، يومًا سوف أكون قادرةً علَى منحِك تصوّرًا جديدًا للسّعادةِ، صدّقني نتشابه في الحُزنِ، لكنّ حُزني ليس علَى المفقوداتِ، بلْ علَى المُكتسباتِ التي يُمكن أنْ تُهدَر لأنّ الحزنَ استغرقنا، قدْ تتجلّى أمامنا ثمّ لا يعود بوسعِنا أنْ نراها، فانفض عنك حُزنَك واعتبرني أملًا، دعني أكون البحرَ لأُسقطك في أعماقي، دعني أكون الرّملَ لأدغدغ قدميك، دعني أكون الموجَ الذي يُداعب وجهَك، ودع "وِصال" تصل انقطاعَ الحُلمِ.

أسمع صوتَك، نعم، حلمتُ بكَ اللّيلةَ الفائتةَ، يدي في يدك، بيننا شجرة تفّاحٍ، في فمي مذاق الصّدفةِ، وبيْن أناملي لمسات مِنْ لقاءٍ مُحتَملٍ، تُنشد لي أغنيةً علَى نغمِ الهوَى، صوتُك مُلهمٌ، أضمّك في

عينيّ، أنضج، أخطو نحو الأملِ بعزيمةٍ لمْ يسبق لي تجربتُها، نسير في حديقةٍ، بينما أبحث في الحلمِ عَنْ نهايةٍ تليق بهذا الاطمئنان.

ضوءُ السّماءِ خافتٌ، توشوشنا الأشجارُ، أُحيَى علَى غير احتسابٍ، تتراقص ملامحُك وأنت تُنشِد، وتبدو لي تجسّدًا للجنّةِ، أحتمي بصوتِك، تضمّني، نذهب إلَى حيث لمْ تطأ قدمٌ، ما أجمل الحلم! ما أعذب صوتك! تغتسل الدّنيا مِنْ وجعِها علّى يديك، كما أغتسل علَى يديك مِنْ وحدتي، وأتخفّف ممّا يُثقلِني، تظلّلنا الأشجارُ ونمضي، ولمْ تزل تُنشِد، وعيناك تضوّيان.

ما أجمل الحُلمِ!

أستيقظُ، أوّل ما أفعله أنّي أدوّنك بأوراقي وجهًا لا يخبو ضوؤه، وصدّقني، إذا ما شاء القدرُ أنْ ترَى أوراقي، ستندهش مِنْ تطابق وجهيكما.

(11)

2 نيسان- 2008

سجن إيفين- سعادات آباد- شمال غَرْب محافظة طهران

لا تكاد تلتقِط أنفاسَها، يكنس توتّرها بعينيه مرتابًا، ثمّ يناولها كوبًا مِنْ الماء.

إضاءةُ الغرفةِ خافتةٌ، لا يتّضح منها إلّا عيناه اللتان تبرّقان فيّ مثْل ضارٍ يتحفّز للفتكِ:

- تحرياتنا لم تصل إلى هذا الشّخص الآخر المدعو "شيخي إمام"، فشلنا في العثورِ عليه في كشوفِ السّجلاتِ الرّسمية، ممّا يُثبِت أنّ ادّعاءَكِ مزيّف، هل تريدينني أنْ أتّهمكِ أيضًا بمحاولةِ عرقلة التحقيقات؟

تزدرد رشفةً مِنْ الكوبِ وأطرافُها ترتعش:

- أنا لا أكذب، هذا ما حدث بالضّبط، واصلوا تحريّاتكم ستجدونه، ليس ثمّة ما يبرّر الكذب وقد كُنت في حالةِ دفاعٍ شرعي عنْ العِرض.

- ما ظروف وملابسات ارتكابكِ للجريمةِ إذن؟ بالتّفصيلِ يا "ريحانة" ودون تلاعبٍ بالأقوالِ.

تسند كوبَ الماءِ:

- أيُّ تلاعبٍ؟ أنا أجيبُك علَى قدرِ الحقيقةِ، إنّما لا بأس، إليك ما حدث دون زيادةٍ أو نقصانٍ عمّا أردفتُه مِنْ قبْل في تحقيقاتِكم، استدرجني المدعو "مرتضى عبد العلي سرابندي" إلى بيتٍ فارغٍ، كان قدْ أوهمني أنّه عيادتُه، بحجّة أنّه يريد تجديدَها واستكمال بعضَ الدّيكورات، صحَبني في سيّارتِه وكان معنا صديقه "شيخي"، توقّف لشراءِ بعضِ الأشياءِ مِنْ الصّيدليّة، ثمّ اتّجهنا إلَى العيادةِ، العريضةُ التي قدّمها محاميّ "عبْد الصّمد خرمشاهي" للمحكمةِ -والتي أُرسلِت لي صورتُها- تؤكّد أنّه قام بشراءِ واقٍ ذكريٍّ ومنوّمٍ وقتَها، ألا يعُدَ هذا دليلًا دامغًا علَى نيّتِه المُبيّتةِ لاغتصابي؟!

- أنتِ هنا لستِ في المحكمةِ، الإجابةُ علَى حجمِ السّؤال، ونصيحتي لكِ أنْ تجيبي علَى الأسئلةِ بصدقٍ وإلّا سنجبركِ علَى قولِ الحقيقةِ بطريقتِنا.

- حسنًا، "سرابندي" أصرّ أن ينتظرنا صديقه بالرّدهةِ، لم يكنْ يريد لأحدٍ، ولا حتّى صديقه، أنْ يطّلع على تفاصيل الاتّفاق الذي سيُبرَم بيني وبينه، هذا حقّ العميل، فوثقتُ فيه، في النّهايةِ كان هذا شرعَ العَمل، لكن لمّا دخلنا مكتبَه قدّم لي زجاجةً مِنْ العصيرِ ولمْ أكدْ أرتشف منها حتّى دارتْ رأسِي، باغتني وانقضّ عليّ، وحاول الاعتداء عليّ جسديًّا وهَتك عِرضي، تجرّد مِنْ ملابسِه، كنتُ شبه منوّمةٍ، وأخذ يحاول أنْ يخلَع عنّي ملابسِي، في لحظةٍ خطر لي أنْ أنجو مهما كان الثّمنُ فادحًا، لمْ يكنْ أمامي للدّفاعِ عنْ جسدي إلّا أنْ أطعنه بسكّينٍ لأحافظ علَى شرفي، ألا يعُد هذا تغريرًا بقاصرٍ؟ طعنتُه طعنةً

واحدةً، كيف يُمكن أن أتركه ينتهكني؟ حدث الأمرُ بشكلٍ خاطفٍ رغمًا عنّي، كنتُ أضعَف مِنْ أنْ أقاومه بذراعٍ أعزَل، كانتْ السّكّينُ في حقيبتي، أحملها دومًا معي بغرضِ الحمايةِ، لمْ يعُد شيء مضمونًا في هذه الحياةِ، أيّ شيءٍ، لا البَشر ولا أفعالهم، يعرف الجميعُ أنّ السُّنةَ يحمون أنفسَهم بأنفسِهم، نعم هذه سكّيني، لكن هل حمل السّكّين جريمة؟ نعم سحبتُ السّكينَ وطعنتُه، ما الذي كان يُمكن أنْ أفعله غير هذا؟ هل أترك له جسدي ليتسلّى به حسبما يريد؟ ثمّ لمْ يكنْ قد استدرَك نفسَه حين عدوتُ إلى الرّدهةِ، شاهدني صديقُه "شيخي" وأنا أهرول إلى خارجِ المكتب فاقدة الاتّزانِ، لكنّه خرج من بعْدي يطاردني وهو يصرخ ويسبّ ويلعن، تركتهما ونزلتُ إلى الشّارعِ لا أعرف كيف أتصرّف، كأنّي مخبولةٌ، كنتُ عاجزةً ومصدومةً، اتّصلتُ بالإسعافِ مِنْ هاتفي كي يُمكن إنقاذه، ثمّ سلّمتُ نفسي إلَى الشّرطةِ، أخبروني بعْدها أنّه مات وأنا المتّهمة بقتلِه.

حكّ ذقنَه، وهزّ رأسَه متنهّدًا.

لمْ يكنْ أبوها في البيتِ حين ذهبوا ليفتّشوه، قالتْ أمّها عنْد أوّل زيارةٍ إنّها كانتْ في المطبخِ تجهّز لهم العَشاءَ عندما سمعتْ دبيبَ الأقدامِ، اقتحم ضابطٌ وعسكريان البيتَ عليها، سترتْ رأسَها بشالٍ، قلّبوا البيتَ ولمْ يردّوا علَى تساؤلاتها، سألها أحدُهم: "أين غرفة ابنتكِ؟". أشارتْ بأناملِها نحو غرفتها، استكملوا التفتيشَ، استجدتْ أحدهم أنْ يخبرها عمّا جرى، دفعها فاصطدمتْ بالطّاولةِ الخشبيّة وجُرحتْ رأسُها، خرج الضّابطُ مِنْ غرفتها بدفاترِ الرّسمِ وبعضَ كُتبِ الدّراسةِ، وصعدوا إلَى السّطحِ قلّبوا قنّ الدّجاجِ وهدَموا برجَ الحمامِ

الذي أنشأتهُ ضمن ما أنشأتْ مِنْ مباهجَ، ظلّتْ أمّها تبكي مِنْ عدمِ الفَهم، ظنّتْ أنّ الأمرَ؛ كعادتِهم، مجرّد تفتيشٍ أمنيّ روتيني لظرفٍ سياسيٍّ طارئ، كانتْ تعرِف أنّها لا تمارس أيّة أنشطةٍ سياسيّة مِنْ شأنِها معاداةِ النّظام، لكنّهم أخبروها، قالوا لها إنّ ابنتَها قتلتْ ضابطًا بالاستخباراتِ، فأغشيَ عليها مِنْ فورِها.

قلّب أوراق التّحقيقات السّابقةِ:

- اتّصلتِ بالإسعافِ نعم، لكن بعْد ساعةٍ كاملةٍ، كان القتيل يستحيل إنقاذه!

- بالكاد أدركتُ أعصابي خلال ساعةٍ.

- هل تعرفين كَم كان عُمر القتيل؟

- لمْ أحدّد بالضّبطِ وقتذاك، لكنّي أُخبِرتُ فيما بعْد أنّ عمرَه كان سبعة وأربعين عامًا.

- يعني تقريبًا في سنّ أبيكِ!

- وهل هذا برهانٌ ضدّي؟ لقد أخبرتكم بالحقيقةِ.

أقفَل الأوراقَ واستراح بظهرِه علَى كرسيه:

- المشكلةُ أنّنا لم نجدْ دليلًا واحدًا يؤكّد صدِق روايتِك، وجدنا وشاحكِ مخضّبًا بالدّماءِ، ووجدنًا سكّينًا اشتريتِها قبل الحادثة بيومين، وجدناها في جرابِها، وكانتْ ملّطخةً بالدّماءِ أيضًا، جميعُ البصمات في المكتب بصماتُكِ، لا يوجد إلّا بصماتكِ وبصمات

المجني عليه، إضافةً لتقريرِ الطّبِّ الشّرعي الذي أثبتَ أنّ الطّعنةَ تمّت أثناء أدائِه الصّلاة وبعُمق ثلاثين سنتيمترًا في رقبتِه، كما أثبتَ وجودَ طعناتٍ وجروحٍ في ظهر القتيل تؤكّد أنّه تعرّضَ إلَى قتلٍ مَعْ سبق الإصرار تمّ التخطيطُ له مسبّقًا.

- لم يحدث، كان يحاول الاعتداء عليّ، هذا تقريرٌ باطل، ركوعُه لمْ يكنْ للصّلاةِ، أنا مَنْ أخضعته فركَع، ثمّ إنّي طعنته لمْ أجرحه.

- كيف تشكّكين في مصلحةِ الطّبِ الشّرعي وتقاريرِها؟ حسنًا، أليس هذا هاتفكِ؟

- نعم هاتفي، تحفّظوا عليه عندما سلّمتُ نفسِي.

- إنّه حرزٌ خاص بجهة التحقيق الآن، وسيُعرض علَى المحكمة العُليا، وهذه رسالة نصيّة إلى إحدى صديقاتكِ، اسمها "هند"، صحيح ؟

- إنّها لا تعرف عَنْ الأمرِ شيئًا.

- توصّلتْ تحرّياتُنا إلَى أنّها لا تعرف شيئًا، المهمّ أنّه قبل الواقعةِ بثلاثةِ أيّامٍ، وقبل شرائِكِ للسكّينِ بيومٍ واحدٍ، أرسلتِ لها رسالةً تقولين فيها: "أعتقد أنّي سوف أقتله اللّيلة". هذا اعترافٌ صريحٌ بتخطيطكِ للجريمةِ وسبق الإصرارِ، وسيصبح سَندَ الإدانةِ أمام القاضي، ما قولكِ؟

- كنتُ أمزَح معها، مُنْذ متَى يجرّم المرءُ علَى مزاحِه؟ ألا يجوز أنّي أقصد قتل الوقت؟ أو الملل؟ قتل فأر مثلًا؟ إنّها دردشةُ أصدقاءٍ،

وعلَى أيّة حالٍ؛ كانتْ العلاقة بيني وبين "سرابندي" وقتها مجرّد لقاءٍ عابرٍ اتّفقنا فيه علَى موعدٍ لزيارةِ عيادتِه، لمْ أكنْ أعرف عنْ نيّتِه شيئًا، يعني لمْ يكنْ ثمّة دافعٌ للتربّص له، لماذا تُعيدون التّحقيقَ؟

- يبدو أنّ السّفسطةَ سوف تطول، في العموم لمْ ينتهِ التحقيقُ بعْد، وأنتِ رهن التّحقيقات متَى شئنا، انتظريني بالخارجِ.

جلستْ لساعاتٍ خارج غرفةِ التحقيقِ، يتناوب عليها الحَرسُ والضبّاطُ، في أعينِهم تحفّزٌ وغلٌّ، كما لو أنّهم يُريدون التّشفّيَ مِنْ السُّنةِ في شخصِها، لمْ تستوعبْ مثل هذه المكانة التي حظَا بها قتيلُهم، إنّما في النّهايةِ يظلّ قتيلَهم ولو كان خارج الخدمةِ، إنّهم يؤازرون بعضهم البعض أحياءً وموتى، ويقهرون السُّنةَ أحياءً وموتَى.

ودّتْ لو تطير بعيدًا عنْ كلّ هذا، لمْ يكنْ لديها جناحان، ولا يُمكن أنْ تستعير أجنحةَ الخيالِ كي تطير بها، فاختبأتْ في نفسها مِنْ تصوّرِ القادمِ، وانهمرتْ الدّموعُ، كان مصيرها يتأرجح أمام عينيها، قالتْ "شُعلة" إنّ الحريّةَ لا تُقدّر بثمنٍ، أدركتْ الآن.

بعْد مرورِ بعض الوقتِ، اقتادوها عبر الأروقةِ المتقاطعةِ إلى زنزانةٍ ملاصقةِ لمبنَى المراحيض في نهايةِ السّجنِ، غطّوا عينيها، وراحتْ تسمع أصواتَ صراخٍ ونحيبٍ مِنْ علَى جوانبِ الأروقةِ، مِنْ الغُرفِ المغلقةِ علَى جلّاديها.

دفعها الحارسُ بداخلِ الزّنزانةِ فوقعتْ على الأرضِ، أغلق عليها ومضَى، أماطتْ اللّثامَ عَنْ عينيها، الظُلمةُ منعتها مِنْ تأمّل الزّنزانةِ، كانتْ الجدرانُ صمّاء، لمْ تستطِع أنْ تستريح بظهرها على جانبٍ

منها، خشيةَ النتوءات البارزة التي تحرّصتْ لها بأناملها، فاضْطرّتْ إلى الجلوسِ على الأرضِ في منتصفِها متربعّةً، وثمّة رائحةٌ لا تُحتمَل.

انتقلتْ إلَى سجنِ إيفين المعلومِ في اللّيلِ، أو جامعةُ إيفين؛ كما يُطلقون عليه، تحت حراسةٍ أمنيّة مشدّدةٍ، رافقتها دزينةٌ مِنْ العساكرِ في سيّارةٍ مصفّحةٍ، عرّجوا إلَى دربٍ ضيّق ثمّ لاحتْ أسوارُ السّجنِ، شُيّدتْ بالطّوب الأحمر ودُهنتْ بطلاءٍ بنيّ اللّونِ، وتناثرتْ فوقها أسلاكٌ شائكةٌ باستدارتِها حول السّجنِ، أسقط عليهم العساكرُ المتمترسون بأبراجِ المُراقبةِ أنوارَ الكشّافات، توقّفوا قليلًا قبالة الأبوابِ الحديديّة الضّخمةِ يتفحّصونهم، تحرّك العساكر ذوو اللّحَى الطّويلة يفتحون لهم، وهم يضعون علَى رأسِها غطاءً داكنًا.

في الزنزانةِ؛ ذاكرَتُها ظلّتْ مستوطنةً بشظايا المشاهدِ القديمةِ، كلّما تذكّرتْ أمرًا إمّا ضحكتْ إلى درجةِ الهستيريا، وإمّا انتحبتْ إلى حدّ الشّهيقِ، هُنا سوف تتحدّث إلى الفَراغِ، إلى الجدرانِ، لا تعرف لكَم مِنْ الوقتِ، ليومٍ أو اثنيْن أو ربّما إلى الأبدِ، ستتحدّث إلَى الله، ستخبره عَنْ عجزِها، العجزُ مأساةٌ كُبرى، وكانتْ عاجزةً عنْ إدراكِ ما يحدث كلّه، يُريدون محاكمتها علَى دفاعٍ حتميٍّ عن شرفِها، أيُّ جنونٍ! لا بأس، فليحاكمونها، وستحاكمهم ضمائرُهم يومًا، هذا إنْ كانتْ لهم ضمائر مِنْ الأساسِ.

تتراقص رأسُها معها وهي تردّد أغنيةً لـ"داريوش إقبالي"، ثمّ سرعان ما تتذكّر أنّه شيعي فتعتمل روحُها بالسّخطِ، إنّ الشّيعةَ أودعوها السّجن لمجرّد أنّ الضّابط الذي قتلتهُ شيعيّ، رغم بؤسها لنْ تفقد الأملَ، ذات مساءلةٍ سيُدرَك ما لمْ يُدرك مِنْ قبل، سيجلسون جميعًا،

قاهِر ومقهور، إلى طاولةِ الحسابِ، ووقتها لنْ يضلّ الحقُّ صاحبَه.

كانتْ رأسُها قَدْ سقطتْ على صدرِها مِنْ شدّة الإرهاقِ عندما استدعوها للمثولِ أمام المحقّق ثانيةً، إنّها أواخرُ اللّيل، هزّها أحدُهم وصاح:

- قومي.

اضطرّتْ أنْ تتسنّد عليه مِنْ تعبِها، كانتْ رائحتُها منفّرةً، لكنّ الرّوائحَ لا يُرتَجَى بها رفقٌ هُنا، كالصّدقِ، كالتوسّلِ، ثمّة أشياءٌ لا شفاعةَ لها.

طرقَ الحارسُ البابَ، ودخلا، كان ضابطٌ آخر يقف في منتصفِ الغرفةِ، راح يتفرّس فيها، ببطءٍ، وعلَى احتقارٍ، صرَف الحارسَ بإشارةٍ مِنْ يدِه، ثمّ قال:

- اجلسي.

جلستْ، كان قدْ أغرَق الغرفةَ بالإضاءةِ، فأُتيح لها أنْ تتأمّلها، زجاجُ نوافذِها ملوّن، وعلَى الأرضيةِ سجّادةٌ مزركشةٌ، مَدّ إصبعًا نحو السّجادة وقال لها دون أن يلتفت نحوها:

- اركِعِي علَى هذه السّجادة.

أفاقتْ، حاولتْ أنْ تستوعب ما يقول، كرّر:

- اركِعِي، ألمْ تُخضعي السّيد "مرتضَى" فركع؟ اركعي مثلما ركع.

بدتْ نظرتها إليه حائرةً رغم يقين الاستنباطِ، ابتسم ابتسامةً

بلاستيكيّةً ولفّ مِنْ وراء مكتبِه وتمشّى نحوها ببطءٍ، ثمّ ظلَّ يدنو منها وكان صامتًا، ارتجفَ جسمُها، تخيّلتْ كلّ الشّرورَ ولمْ تحصّن نفسها قَط، علّمتها "شُعلة" كلّ معانيَ الخيرِ لكنّها لمْ تؤهّلها لشرِّ هذا العالم، الشّرّ الطّليق، الشّرّ الذي لمْ ينبغِ لطفلةٍ مثلها أنْ تشهَده.

وقفَ أمامها، وظلّتْ جالسةً، نظر لها نظرةً أدركتْ معناها، ثمّ صفعها فسقط بها المقعدُ أرضًا، صاح:

- قلتُ اركعي، وستفعلين.

(24)

25 تشرين الأوّل- 2014

سجن كوهردِشت- مدينة كَراج- غَرْب محافظة طهران

لمْ يكنْ في طهران، ولا في كلّ مُدنِ إيران، ليسَ في وسائل الإعلام، ولا في الصّحفِ، لا يشغِل النّاس، ولا مِنْ حديثٍ آخر، غير الحَديثِ عنْ إعدامِ ابنة السّنة التي صَرعتْ ضابِطًا شيعيًّا.

آن اليوم أنْ أفارق حدودي لحدودٍ أبعْد، أبعْد مِنْ الحُلمِ، مِنْ الذّكرى، مِنْ النّسيانِ، ومِنْ التّاريـخِ؛ علَى أسْلَمِ الظّنونِ.

تُرَى هل سأصبح تاريخًا؟ كيف سيدوّن التّاريـخُ المأساةَ دون ملابساتِها؟ لكنْ؛ هل لهم أنْ يصدّقوا التّاريـخَ وهو مكتوبٌ بحبرِ الحكومةِ؟

أخْرجُ، تصفعني الشّمْسُ، فأترنّحُ، فيحاصرونني علَى حذرٍ، كفريسةٍ سقطتْ في شركِ صيّادٍ جائعٍ لمْ يُرزَق صيدًا لزمنٍ.

الترّقُب، الصّمت، وعمّا قليلٍ؛ سوف يُقضَى الأمرُ.

تُرَى؛ أيْن يتركون مشاعرَهم وهم يمارسون هذا العَمل؟ كيف يُمكن أنْ يتجرّد الواحدُ فيهم، هكذا، مِنْ كلّ ما قدْ يُبقي عليه قَيْد الإنسانيّةِ؟ ألا يفكّرون في عاقبةِ الضّيمِ؟

يمارسون الأمرَ برتابةٍ!

ها هو يضجّ السّجنُ، يثب الحُرّاسُ، يهتفون بصَيْحةٍ عسْكريّة موَحَّدةٍ عنْد دخولِ القائدِ.

يحيّونَهُ بحماسٍ مُفتَعلٍ، تكاد الأرضُ تنفلِق تحت ضرباتِ أقدامِهم، والشّمسُ فيما وراءِ أكتافِهم غبّشتْ ملامحَهم، فلمْ تبِن.

يصطّفون، أياديَهم علَى جانبِ أصداغِهم منضبطةٌ، القائدُ ذو الرّتبةِ العسكريّةِ الرّفيعَةِ يدخُل إلى زمامِ السّجنِ، ثمّ إلى السّاحةِ الفاصلةِ بيْن غرفةِ الإعدامِ والطّرقةِ المؤدّيةِ إليها.

يدعَك عينيه، يتثاءب، بدا لمْ يستَفِقْ بعْد، يزعق مناديًا، يهرول إليه أحدُهم ويناوله فنجان قهوة، يرتشف علَى عجلٍ ويلعق شفتيه وهو يستأنِف طريقَه إلى قلبِ السّاحةِ، حيث تقف ضابطات خَفر العنَابرِ يصطففن في توقيرٍ احترازيٍّ.

مِنْ خلفِه يدخُل جنديٌّ بالأوراقِ والمُراسلاتِ، يسلّمها إلى ضابطٍ آخر أقلّ رتبةٍ ليتمّم عليها، يتصفّحها بسرعةٍ ثمّ يطويها ويلتَحق بالقائدِ.

لكنّي، رغم رتابتِهم، تلاعبِهم بأعصابي، علَى خُيْلاءِ أسِيرُ بينَهُم؛ كالأبْطَالِ الأسطُوريِيْن مِمّنْ كانتْ حكاياتُ إعدامِهم فارقةً في تاريـخِ هذا الوَطن، كالسّحابةِ التي تتهادَى فِي السّماء علَى مهلٍ، كالموسيقَى أسيرُ، فيما راحتْ السّلاسلُ في يديّ وفي ساقيّ تُثقِل حركتي إليه؛ الموت علَى مَقربةٍ، هُناكَ، علَى بُعْد خطوتيْن، كذلك النّجاةُ مِنْ هذا العالم الجاحِد، علَى الزّمنِ أن يختَصِر الترقّبَ بطرفةِ عينٍ أو يتوقّف تمامًا، لمْ أعُد أحتَمْلُ هذه الثّوانيَ الفاصِلة.

كلّمَا اقتَربْتُ غُشّيتْ الرّؤيةُ، تراكمتْ ذكرياتي مبتورةً، كأنّما مختونة، تحجّرتْ علَى منتصفِ كلّ الأشياءِ، كأنّ أدقّ اللّحظات التي تصنع منها مشاهدَ قد تكلّستْ، وكلّما كدتُ أستدير برأسِي لأخفّف عنْها ألمَ الصَفدِ الحديديّ الذي يخنِق رقبتي؛ تردّدتُ، كنتُ أخشَى أنْ يطّلعوا علَى المشَاعرَ المُتضاربةِ التي تختلج علَى ملامحي، أنْ يلحظوا ارتعاد أطرافي، ربّما كنتُ أخشَى أنْ يشاهدونني مبتئسةً ومنهكةً علَى غير عادتِي في سجونِهم، ولطالما بدوتُ لا أحفَل، لا أريدُ أنْ يشْعُروا أنّي هُزمتُ، إذ لعلّي سأنتصرُ ولو بعْد حينٍ.

لا أعرفُ! أوليس للموتِ مقامه المَصون المَهيب أيضًا؟ لكنّه رقيقٌ، الموتُ رقيقٌ، لنْ يقسو إنْ قُدِّرَ، ولو بالقسرِ.

دارتْ فِي رأسِي ألفُ فكرةٍ عنْ البدائلِ المُحتمَلةِ التي كان يُمكن أنْ تسطِر لي مصيرًا مغايرًا، أنْ تستبعِدني –بأقلّ احتمالٍ- عَنْ هذه اللّحظةِ، فِي رأسِي حنينٌ إلى لحظاتٍ قديمةٍ بعينِها، إلى البنْتِ التي كانتْ، ولم يكنْ مثلُها؛ كما قيل لها علَى لسانِ أمٍ حالمةٍ ذات صفوٍ.

في الخيالِ استدعاءٌ ماكرٌ لكلّ الأحداثِ التي يُمكنها أنْ تحسّرني علَى حياةٍ مضتْ، ببراءتِها وعثراتِها وجنوحِها، كانتْ حياتي طيّبةً، كان الرّفاقُ طيّبين، كان الطّموحُ –الذي أُهدِر- أطيَبَ، لكنّي، وكالذّكريات التي راحتْ تمنح نفسَها للفنَاءِ طوعًا؛ صِرتُ.

يتقدّمني ضابطٌ طويلُ القامةِ، يُسدِل عليّ ظلَّه، كانتْ ملابسُه مهندَمةً هندام اللّحظةِ المَهيبةِ، يقطع الممرَّ الطّويل المؤدّي إلى ساحةِ الإعدامِ بخطواتٍ ثابتةٍ منتظمةٍ، يزيح بيدِه بابًا حديديًّا صدئًا،

فيصرّ بصوتٍ أقرب للأنينِ، كأنّه لم يُفتَح منْذ موتٍ بعيدٍ، يتوقّف ثمّ يستدير بجذعِه نحوي نصف استدارةٍ، كان يرتدي نظّارةً سوداء فلم أستطِع استبيانَ طبيعةَ ما يحمل في عينيه تجاهي، أهو الغَضب؟ أهو العَطف؟ أهو التّشفّي؟ أم لا يُبالي؟

عبس، أعطاني ظهرَه، كأنّ به استشعرَ تساؤلاتي فبدا يداري عنّي عينيه عَنْ عَمدٍ.

ما الذي قَدْ يطرأ برأسِه وهو يقدّمني إلى الموتِ مثلَ وجبةِ طازجةٍ؟ ألا تؤلمه التّأويلاتُ المتباينةُ بشأن مسألتي؟ ألا يظنّ أنّ الموتَ ليس مستحقًّا لمَنْ هي في مثل قَهري؟

كانتْ شفتاه تتحرّكان في بطءٍ، ولمْ يكنْ يبدو علَى وجهِه ثمّة تعبيرٍ، وهو يأمر –باقتضابٍ- ضابطًا صغير السّنِّ:

- فكّوها.

جرّبوا مفتاحًا، فآخر، ثمّ تحرّرتُ أخيرًا مِن القَيدِ الذي طال.

طوّقتني إحدى الضّابطاتِ، صاحتْ:

- عيناكِ تدوران مِنْ حولكِ تفصّصان! انشغلي بما أنتِ ماضية إليه.

غرستْ أصابعَها في عنقي ودفعتني أمامها ودخلتْ بي إلى السّاحةِ، هاكم الطّريدة للنّحر، لا تقتصدوا في إنزالِ الألمِ ولا المرارةِ، بكاملِ عنفوانِكم.

ظنّهم أنّي سأنهار الآن أو أنتحبُ خشيةَ الموتِ، لكنّي كنتُ كالذي يقودونَهُ إلى حُلمٍ مُبتَغَى، حاولتُ أن ألفّق حال استقبالي للموتِ اتّزانًا وصلابةً، علَى غير حقيقةٍ، إنّما لأغيظهم أكثر فأكثر، الأمرُ سيحدث مهما بدتْ مشاعري، ومهما رجوتُ وبكيتُ وانهرتُ، ثمّة لحظات لا يُمكن فيها أن ننكَسِر أمام مِنْ تعمّدوا إيلامنا ولو كانتْ دواخلُنا مفتّتةً لآخرها، وكما احتملتُ الحياةَ سأحتملُ الموتَ.

تماسكي يا "ريحانة"، سيري بينَهُم كما هُيّئ لكِ أنْ تسيري؛ كأنّكِ تُغازلين نهايتكِ مثْل صبيّةٍ عاشقةٍ تغازل المَغيبَ.

(2)
10 أيلول- 2006

البازار الكبير- وسَط مدينة طهران- محافظة طهران

فردَتْ أمّي سجّادة الصّلاةِ في غرفةِ المعيشةِ وركعتْ تؤدّي الظّهرَ، جلستُ بجوارِها أنتظر أنْ تنقدني القليلَ مِنْ المالِ، لمّت السّجادةَ والتفتتْ نحوي مبتسمةً، بدأتْ تجهّز الحنّاء كي تصبِغ الشّعرَ الأبيض الذي بدأ يتفشّى في رأسِها، لمْ أكنْ أريدُ أنْ أصدّق أنّ العُمرَ يمضي بها إلَى الأمام، وأنّها تتحايل علَى غُشمِ الزّمنِ بالحنّاءِ والمساحيق والزّينةِ والتّأسِي، وكنتُ أراها وهي تحدّق في مرآةِ اليدِ وتمصمص شفتيها بحسرةٍ قائلةً:

- شخنا يا "ريحانة".

- وهل مثلكِ يشيخ "شُعلة خانم"؟!

قرصتني في خدّي، وأخرجتْ مِنْ حقيبتِها رزمةَ ريالات وناولتني إيّاها، دعتْ لي بالتّوفيق في الجامعةِ وكرّرتْ مثْل عادتِها:

- أنتِ الأمل الباقي فلا تهدرِي شقاءنا سُدَى.

علَى عجلٍ، نزلتُ الدّرجَ وأنا أضبط الحِجاب، التففتُ مِنْ وراء السّور الحجري الذي يحوّز الحيّ لأنطلق في زحامِ الشّارعِ الرّئيسي، حيث أستقلّ مواصلةً للجامعةِ.

الباصُ يتسلّل إلَى زحامِ وسط طهرانِ شيئًا فشيئًا، يترَك المنطقةَ الهادئةَ ويأخذ في التعرّجِ معْ التفافاتِ الشّوارعِ والأحياءِ، تحاوطنا الأبراجُ الشّاهقةُ واللّافتاتُ الكُبرَى المُعلّقةُ علَى الأعمدةِ والكباري.

طهران؛ عاصمة إيران بعْد شيراز، طهران المدينةُ المكتظّة بالبشرِ، التي وفَد إليها قديمًا الأرمِنُ والأكرادُ والعَربُ، واستوطنوا، ظنّهم يفرّون مِنْ قمعٍ، فحلّوا علَى قمعٍ، يلفّها الضّبابُ غالبَ أوقاتِ السّنةِ، ويسبح فوقها غشاءٌ مِنْ عوادمِ السّياراتِ وأبخرةِ المصانعِ، غشاءٌ مِنْ تنهّدات البشرِ المعذّبين، ومِنْ الأدعيّة التي لمْ تُجِبها السّماءُ.

تسير في شوارعِها كأنّكَ علَى سفرٍ، كلُّ الأمورِ تُقضَى بعجلٍ، كلُّ الأصواتِ زاعقةٌ، فإذا سددتَ أذنيكَ حتّى، لنْ تنجو مِنْ الضّجيج، تفوح منها روائحُ اللّحومِ المشويّةِ والمعجّناتِ والتّوابل والقلوبِ المحترقة، هنا تبيع المتاجرُ كلّ السّلعِ، حتّى البَشر.

إنّها طهرانُ، سيّدةُ الشّرقِ، ومحطّمةُ آمالَ اللّائذين بالعَشمِ، أولئك ممّنْ وُئِدتْ طموحاتهم وأُهدِرتْ علَى سفوحِ الحقيقةِ، تتعدّد فيها الطّوائفُ والأعراقُ، نعم، ولكنْ يتحّكم فيها فصيلٌ أوحَد، تحت رايةِ الدّينِ.

تقع جنوب جبال "ألبرز"، الجبالُ التي تتبدّل ألوانُ أسنّتها مَعْ اختلاف فصولِ السّنةِ، إمّا مخضرّة زاهية، وإمّا بيضاءَ بياضَ ثلجٍ لامعٍ، وإمّا رماديّة شاحبة.

طهران بها كلّ ما يُمكن أن يمثّل للنّاس رفاهيةً وترفًا ورغدًا، مسارح ودور سينما، متاحف، حدائق، مدارس، مساجد كُبرى،

كنائس عظيمة، رغم ذلك؛ تحدث فيها كلّ الشّرور، يحدث القمعُ، التسلّطُ، العَصبيّةُ.

إنّها طهران؛ مدينة كلّ شيء، ومدينة اللا شيء، كلّ فَخر، وكلّ قهر.

بيتُنا يقْع بالقُربِ مِنْ جنوبِ طهران؛ حيث الأمان النّسبي، حيث الرّضا بأدنى درجاتِه، وحيث رتابة سيرِ الحياةِ.

بيتُنا شقّة عتيقة، يعلوها سطحٌ تربّي أمّي فيه الدّواجنَ والطّيورَ، مِنْ هذه البيوت التي تلتصق في بعضِها البعض في حميميّةٍ، تمامًا كما تتوطّد الأواصرُ بيْن النّاسِ وتلتصق، لعلّ هذه هي الميزة الوحيدة التي يُمكن أنْ يحسدنا أثرياء الشّمالِ عليها، ففي الشّمالِ هُناك توجد البيوتُ الفسيحةُ بحدائقها والشّوارع الواسعة التي تفصِل فيما بينها، لكنْ لا أواصر ولا علاقات بيْن الأُسَر.

نسكن في حيٍّ صغيرٍ، معظمُ سكّانِه مِنْ الشّيعة، مِنْ الطّبقةِ العاملةِ، لمْ أستشعر يومًا بغضًا أو تشدّدًا، كانوا يتزاورون معنا، يهدوننا المصاحف وسجاجيد الصّلاة والمسابح، يعطوننا الكعك واللّحم والفواكه والخضراوات في الأعيادِ ونفعل المِثل، غير أنّي كنتُ صغيرةً علَى إدراك مواطن الخِلاف العميقة، تلك التي ظلّتْ السّلطةُ، عبَر الأزمنةِ، تسقيها لأفئدةِ النّاسِ، فترعرعتْ، وكنتُ مثلًا أفرَح إذا زارنا جارنا "مجتهد" الشّيعي مِنْ فترةٍ لأخرى، كان يحبّ صحبةَ أبي، وكانتْ بينهما علاقةٌ تقوم علَى الودّ والاحترامِ، غير أنّ أبي كان دائم الجدال معه في أبسطِ الأمور، إذا تحدّثا عنْ تعليم البناتِ تجادلا، جارنا يؤمن أنّ البناتَ لا ينبغي أنْ يتعلّمن، عكس أبي، وكانا إذا تناقشا

حول كيفية تربية البنات تجادلا، واحتدّ عليه ذات مرّةٍ حين صفع ابنته ذات الأعوام الخمسة أمامنا، شاط عليه، وصاح فيه:

- أنتَ متوحّش أخي "مجتهد"، ليس هكذا تُعامل البنات!

فردّ عليه "مجتهد":

- ربّ ابنتك كيفما تشاء ودعني أربّي ابنتي كيفما أشاء.

في ذلك المساء، كان جارُنا "مجتهد" جالسًا يتسامر مع أبي يتفرّجان علَى التلفاز، عندما كان يتحدّث الشّيخ "عبد الحميد إسماعيل"؛ إمام السّنةِ والجماعةِ، في أحد البرامج، كان الشّيخ يَرَى مِنْ وجهةِ نظره أنّ السّلطةَ الحاكمةَ لا بدّ أنْ تمكّن السّنةَ مِنْ بعضِ حقوقِهم، على الأقلّ لا بدّ أنْ تنظر في أمرِ الخدمةِ العسكريةِ والمناصب السّياديّة في الدّولة، وندّد بحالاتِ الزّواج الجبريّة التي تُمارس علَى بناتِ السّنّةِ مِنْ الشّيعةِ، وقال: "فلتكنْ المعاملةُ بالمثلِ، زوّجوا بناتَ الشّيعةِ مِنْ رجالِ السّنّةِ!". يومها استهزأ جارُنا برأي الإمام، ومصمص شفتيه، ودمدم: "رجلٌ مخرّفٌ، مجنونٌ!". فما كان مِنْ أبي إلّا أنّه ثار عليه بشدّة، حدّ أنّهما تطاولا علَى بعضِهما البعضِ بالسُّبابِ، وقالا كلامًا حول العقيدة والإسلام لمْ أفهمه في حينِها، لكنْ خرج جارُنا مِنْ بيتِنا غاضبًا، ولمْ أره في بيتِنا مِنْ ساعتِها.

تُحتَسب أسرتُنا على الطّبقةِ الوسطَى العاملة، بتوصيفٍ أصحّ؛ الطّبقة الكادحة، هؤلاء الذين تمضي بهم حياتُهم وهم يسعون إلى الأرزاقِ أيْنما كان مستقرُّها، ثمّ إذا ما أدركَهم الجَهدُ واسترجعوا ما كان مِنْ حياتِهم، ما وجدوا أنّهم حقّقوا شيئًا يُذكَر، أبي واحدٌ مِنْ

هؤلاء، استأجَر محلًّا في البازار العتيق الذي يقع في وسطِ المدينةِ؛ والذي يعود تاريخُه إلى مئاتِ السّنين، بالشّراكةِ مع عمّي "فريبرز"، كانا يشتغِلان في المنسوجاتِ والمصنوعات اليدويّة، ولا يكاد يمرّ أسبوعٌ إلّا وضايقتهما البلديّةُ ومؤسّسات الجِباية التّابعةُ للأحزاب الإسلاميّة الحكوميّة، يدفع المستأجرون ما عليهم مِنْ ضرائبَ، وفوائدها، يدفعون مستحقّات الحكومةِ بزيادةٍ حسب المزاج، كما يدفعون –مع ذلك- فواتيرَ فاسديها.

كنتُ أمرّ علَى أبي في الاستراحات ما بيْن محاضرةٍ وأخرى، يحتفي بي كأنّي مبعثُ الفَخر، يقدّمني لأقرانِه مِنْ أصحابِ المحلّاتِ الأخرى: "ابنتي تدرس هندسة ميكانيكا في كليّة فاني بجامعةِ طهران"، ثمّ يتباهَى: "ومصممّة ديكور أيضًا".

لمْ يكنْ أبي يُعارض عملي في تصميم الدّيكور، ولا مقابلات الزّبائنِ التي تضطرني للتأخّر في المساءِ، يُدرِك أنّها موهبةٌ تُدر دخلًا معقولًا أستطيعُ مِنْ خلالِه الصَرفَ علَى متطلّبات دراستي ولوازمي العاديّة كأنثَى، مِن ملابسَ وفُسح وأدوات رسم وخلافه، إضافةً لمساحيق التجميلِ باهظة الثّمن، لمّ يرتضِ أبدًا أنّ أساعدهما في احتياجاتِ البيتِ، كلّما تطرّقنا إلَى الأمرِ غضِب، وقال:

- إذا مت يُمكنكِ أنْ تتولّي الإنفاق علَى البيتِ.

كانتْ عادتُه أنْ يجهّز لي بيدِه كوبَ الشّاي بالنّعناع، وكان محترفًا في صنعِه، يحمِل مِن داخل المحلِّ طاولةً خشبيّةً ويضعها أمامي، قائلًا:

- قومي بمَا لا تُجيدين غيرَه.

أضحك، أفهم أنّه يعني الرّسمَ، أستخرج مِنْ حقيبتي دفترَ الرّسم وأقلامَ الحِبر، أبدأ في صُنع بهجتي الكُبرَى، أرسم النّاسَ، أدوّنُ بالأوراقِ تعبيرات وجوهِهم المختلفة، كنتُ أصنَع لهم حكايات مُختلَقة مِنْ نبعِ خيالي، فيصبحون أبطالًا علَى ورقي، أراقبُ العابرين علَى اختلافِهم، القادمين مِنْ المساجدِ أو الذّاهبين إلَى البنوكِ، وكثيرًا ما يروق لي أنْ أتمشّى وأتّأملُ المحلّات بتخصّصاتِها المتنوّعة، وما أكثر السّلع المعروضة! أغيبُ في الزّحام بيْن الممّراتِ والمَداخل والمخارج المتعدّدةِ للبازارِ؛ الذي يمتدّ في قلبِ طهران لأكثرِ مِنْ عشرةِ كيلو مترات، وحيث يكون باعةُ السجاجيد، أثناء سيري، جالسين يحيكون ملامح "أحمدي نجاد" علَى السّجاجيد، ويطبعونها علَى الأقمشةِ، كانتْ صور الرّئيس منتشرةً في كلّ البازار عرضًا وطولًا، في الشّوارع، في الميادين، في الأماكن العامّة، وفي البيوتِ والمخافر والمؤسّسات الإدارية.

وكان أبي ضليعًا في السّياسةِ، وعلَى درايةٍ بالأحداثِ الجاريةِ، رغم ذلك، كنتُ إذا جلستُ بينه وبيْن جيرانِه في البازار مِنْ أصحاب المحلّاتِ الأخرى شهَدتُه عنيفًا عنيدًا ومتشبثًا برأيِه أيما تشبّث، إنّها عادتُه، يتحيّز لرأيِه وإنْ يعرِف أنّه علَى خَطأ، في هذا النّهارِ ظلّوا يتجادلون حول قرار مجلس الأمم المتّحدّة الذي صدَر ضدّ إيران في آذار الماضي، بُغية الضّغط علَى الحَرس الثّوري الإيراني، بيْن مؤيّدٍ ومُعارضٍ، كان القرارُ بشأن البرامج النّوويّة والصّاروخيّة، حيث حظَر المجلس التّداول مع بنك "سيباه" الحكومي، بل وتضمّن القرار حظّر التّعامل مع ثماني وعشرين منظمّة أخرى تابعة للحرس الثّوري، أردف مُعارضٌ للقرارِ:

- تلك ليستْ أولى القرارات، إنّ الولايات المتّحدة متربّصة بإيران

منْذ واقعة احتجاز رهائن أمريكيين عام 97 في السّفارة بطهران، وفرضت القيود قيدًا بعْد قيْد، حدّ أنّها حظرت التّعامل التّجاري بالكامل مع طهران عام 59، لماذا تطمسون الحقيقةَ؟ ألمْ تُغضِبكم العقوبات المتتالية والموسّعة على الجمهوريّة الإسلاميّة، منع جميع الإمدادات الخاصة بالتّخصيب، ومنع بيعها أو نقلها، سواء كانتْ هذه الإمدادات على هيئة معدّات أو بضائع، أو حتّى إمدادات تكنولوجيّة؟ لكنّهم يتمادون طالما هناك مَنْ يصفّق لهم، مِنْ بينِنا!

كان أبي مؤيّدًا لهذا القرار، وقال:

- لمْ يعُد على الشّعبِ نفعٌ مْنْ مشاريعِ الحكومةِ مشروعًا وراء مشروعٍ، يتحدّثون عَنْ الصّناعات الثّقيلة وتصدير النّفطِ والبرامج النّوويّة وشبكات الطّرقِ والكباري، والبنية التحتيّة التي يؤسّسونها منْذ خمسين عامًا، وما زلنا جوعَى وفقراءَ ومعوزين، يجنون أموالًا طائلةً مِنْ أملاكِنا في الوقتِ الذي نعيش فيه علَى حدّ الكفافِ، كيف ترتضي الذّلَ؟!

- قد ينتفع أبناؤنا بعائدات هذه المشاريع!

تمتم أبي:

- بلْ سيثور أبناؤنا ضدّ الظّلمِ، سيفعلون ما لمْ نجرؤ علَى القيامِ به.

- هل تريد أنْ يموت أبناؤك؟

- يموت النّاس في الثّوراتِ ليحيا آخرون مِنْ بعْدِهم.

- لقْد جُننت، لا تريد الصّبر إلَى أنْ تشبّ إيران علَى قدميها مِنْ جديدٍ.

- نحلم بهذا مُنْذ بدءِ تاريخنا، يا رجل كيف تطلب مِنْ رئيسٍ يستحمّ باللّبنِ والعطرِ ويأكل مِنْ مطاعمِ أوروبا أنْ يراعيَ الشّعبَ ولو بقسطٍ مِنْ رحمةٍ؟ نحن لا نريد الرّغدَ، نريد العدالةَ فقط، والله لو بُعثتْ العنقاءُ ما بُعثتْ إيران.

- أمهِل الرّجل، لمْ يُكمل عامًا في الحكمِ.

- مثله كالسّابقين، يعيشون في قصورٍ والنّاس محشورةٌ في عُلبٍ في الشّوارعِ.

- هكذا أنتَ يا رجل، تُعارض بلا هدفٍ، الرّأي نفسه كان في "محمّد خاتمي" وإنْ تآمروا عليه جميعًا.

- وهل يصلح رجال الدّين لقيادةِ البلادِ؟

- "نجاد" رجل سياسة لا دين.

- ما أشبههم! ألمْ يدعم تحالف بناة إيران الإسلامي هذا النّجاد في حملتِه الانتخابيّة لمجرّد أنّه وعد الشّعبَ أنْ تكون أموالُ النّفطِ لهم! أيْن هي أموالُ النّفطِ إذن؟

قبض الرّجلُ علَى ذراعِه:

- رجالُ السافاكِ منتشرون يصغون لكلّ دبّةٍ، أتريد أنْ يعدموك أمام أعينِ النّاس في البازارِ جهارًا؟

ابتسم أبي وهمس:

- هل أدركت الآن؟ هذا ما أتحدّث عنه؛ الخوف، الخوف يا رجل.

لم أكنْ أفهم في السّياسةِ، ولا يشغلني حديثُها، كنتُ أشعرُ أنّي في منطقةٍ آمنةٍ فِكريًّا كلّما ابتعَد انشغالُ ذهني عنْ السّياسةِ، وكان أبي يقول دومًا:

- لكي نتدبّر حيلةً للمستقبل علينا أنْ نُدرك الأوضاع التي تمرّ بها البلاد، بلْ نفهمها قدر الإمكان، لا يُمكن أنْ نسمح لهم بتحريكنا كالدّمَى، كي نثور علَى الأوضاعِ نفهمها أوّلًا.

انصرفتُ وتركتهم يتجادلون، لمْ يعنني تقدير الخطأ والصّوابِ في الأمرِ، كانتْ السّياسةُ التي تشغلني أكثر هي سياسةُ الملامح والوجوه والتعبيرات، البشرُ في بلادِنا يمرّون بكلّ الأزمات الطّاحِنةِ، لكنّهم يتجاوزونها بابتداعِ الحيل، بالمُزاح والرّضا، بالتهكّم علَى السُّلطة عبر تعليقاتِهم وأحاديثِهم، في جلساتِهم الخاصّة، وفي تجاوبهم مع الحياةِ بمثل هذا التّفاؤل، كأنّهم يعرفون أنّهم باقون والسّلطة مهما دامتْ إلَى زوالٍ.

وكنتُ أستمع إلَى حكايات النّاس وأترجمها إلَى مشاهد مرسومة علَى أوراقي، وصنعتُ شخصيةً اعتمدتُها بطلةً، أسميتُ الشّخصيةَ "وداعَ"؛ بطلة الألوان، هكذا كنتُ أناديها، أشعر بها، البنت الصّغيرة التي علقتْ أثناء الحربِ بيْن العِراق وإيران، وتخيّلتُها تحبّ الرّسمَ مثلي، رسمتها مرّة وقدْ حوصرتْ في بيتِها بسبب القصفِ، فحلمتْ بحلمٍ يبدو مشروعًا، أنّ ذراعيها قدْ أنبتا مدفعين بعْد أنْ بُترا جرّاء

قصفةٍ غاشمةٍ، وأنّ هذين المدفعين النّابتين مِنْ جسدِها أخذا يحصدان كلّ عدوٍ في طريقهما.

بطلة ألواني؛ ولأنّها لمْ تكنْ تقدّر المسافات بيْن الحلمِ والحقيقةِ، فجأةً وجدتْ العالمَ خاليًا مِنْ حولِها، كأنّ الأعداء ماتوا جميعًا، وظلّتْ وحيدةً في دنيا اللّا حرب، واللّا سلام.

عُدتُ إلَى الكليّة، أفكّر في قصّةٍ خياليّة أخرى أرسمها لـ"وداع"، كانتْ صديقتي "هند" بانتظاري، وكنّا قدْ اتّفقنا قبْل يومين علَى موعدٍ للذّهابِ إلَى دار السينما، طوّقتْ خصري وقبّلتني في خدّي، وقالتْ ضاحكةً:

- ها حبيبتي! هل أنتِ مستعدّة للسّينما أم ترغبين في اقترافِ مصيبةِ أخرى؟!

- بالطّبع مستعدّة، لكنّي لمْ أتّخذ قراري بعْد بخصوص الفيلم، هل مِنْ اقتراح؟

- إذا أحببتِ فهناك أفلام أمريكية أشاد بها أصدقاؤنا، يُمكن أنْ نتفرّج علَى قراصنة الكاريبي أو أنا أسطورة، ولو شئتِ فهناك جزءٌ أخير مِنْ هاري بوتر.

- لا لا.. لا أحبّ أمريكا ولا أحبّ أفلامها، أفضّل أنْ أدخل فيلمًا هنديًا.

- ممم.. طويل وممّل.

لكنّها استقرّت معي في النّهايةِ؛ وتلبيةً لرغبتي، علَى مشاهدة فيلم

"أوم شانتي أوم" مِنْ بطولة "شاروخان"، في سينما "فرهانج"، كنتُ أحبّ السّينما الهنديّة، كان يُدهشني أكثر استخدامهم للكاميرا في رصدِ طبيعةِ الأماكن الخلّابة، كأنّك تُشاهد الطّبيعةَ ببراءتِها، أحبّ ألوانَهم، زاهية، صاخبة، لعلّ حبّي نابعٌ أساسًا مِنْ طبيعتي التي تحبّ الألوانَ وتميل إلَى رسم الوجوهِ والأماكنِ علَى فطرتِها.

نامتْ "هند" ولمْ أكترث، تركتها واندمجتُ مع الفيلم، وعندما انتهى هززتُها أوقظها، استيقظتْ علَى فزعٍ وصاحت:

- هل مات البطل؟

ضحكتُ، قلتُ لها:

- بل مات المشاهدون مِنْ شخيركِ.

أثناء خروجنا مِنْ السّينما، كان أفرادٌ مِنْ متطوّعي الشّرطة الإسلاميّة يطوّقون بوّابةَ الخروج، تحميهم عناصر مِنْ "ميليشيّات الباسيج"، بدوا يترقّبون خروج المشاهدين، لحاهم طويلة ويرتدون قمصانًا بيضاءَ، استشعرتُ خوفًا، نظرتُ حولي، كانتْ البنات خارجات يضحكنْ مِنْ السّينما، ثمّ تكدّسنا لمْ نستطِع المرور مِنْ الصّدّاداتِ التي أغلقوا بها البابَ، اقتربوا منّا، يتحقّقون مِنْ هوياتِنا، وعلَى الجانبِ الآخر مِنْ الطّريق وقف بعضُهم يحرقون صور الأفلام الأمريكيّة، والأعلام الأمريكيّة، وكانتْ في أياديهم سياطٌ، وكانتْ جماعات منهم يقفزون مِنْ علَى أسطح المنازل المُحيطةِ الواطئةِ، ثمّ، وبلمحِ البّصرِ، صارتْ أعدادُهم لا يُمكن إحصاؤها بالنّظرِ العابرِ، واحتجزوا كلّ السنيّات اللّواتي خرجن مِنْ السّينما، ظللن يتدافعن

يحاولن الهَربَ، نوّمن الصّدّادات، وركضن فوقها، لولا أنّ القوّات أحاطتْ بهنّ، وأخضعتهنّ بالبنادقِ، فتساقطن بعضهنّ أرضًا تحت ضرباتِ الأقدامِ، وآخرون اقتربوا منّا بالسّياطِ، نزلوا بها علينا بلا سابقِ إنذارٍ، صرختْ "هند"، وحاولنا الفرار، بلا جدوى، حاصرونا، الغضبُ يشعّ مِنْ أعينِهم، لمْ أفهم معنَى أنْ يُتركوا هكذا في الشّوارعِ يعبثون بالحريّاتِ، لمْ يكنْ أحدُهم قدْ اكتفى عندما سمعتُ صوتًا فيهم يصيح:

- تأتون الحرامَ جهارًا يا عاصيات الله يا فاجرات! اذهبن إلَى أمريكا إذن طالما تعجبكن أفلامها!

ومَع تزاحمِ القوّات، وبأعجوبةٍ قدريّةٍ، كأنّ الله أغشَى أبصارَهم عنّا، نفذنا أنا و"هند"، بينما يلاحقون إحداهنِ، انسللنا مِنْ وراءِ السّينما عبر سوقٍ للمفروشاتِ، انشغلوا عنّا بالأخرياتِ، لمْ نكنْ قد التقطنا أنفاسَنا لكنّنا كنّا نركض خوفًا مِنْ ملاحقتِنا، كان السّوقُ عبارةً عِنْ ممرّ ضيّق لا يكاد يتّسع لعبور جسديْن متجاوريْن، اعترضتْ طريقنا امرأة ترتدي شادورًا، أطبقتْ ذراعيها علينا وظلّت تصرخ: "سافرات هاربات!".

دفعناها فارتطمت بمنضدةٍ خارج أحد المحلّاتِ عليها أطباقٌ زجاجيّة، تهشّمتْ الأطباق فبدأ الجالسون علَى مقاعِدهم -يحتسون المشروبات- ينهضون، وكان مِنْ بينِهم بعضُ العساكرِ الذين يرتدون ملابسَ قوّات فيلق القدس الخضراء، تجمهروا حولنا لكنّنا استكملنا الرّكضَ، كنّا نزيح في طريقِنا المفروشات والأوانيَ والحُليّ المعروضةَ في دواليبَ خشبيّةٍ خارج المتاجرِ، فأحدثنا فوضَى عارمةً، ووقف

مجموعةٌ مِنْ السّائحين يحدّقون إلينا في ذهولٍ، حتّى إنّ بعضَهم حاول التقاط المشهد بكاميرات صغيرةِ الحَجمِ، ظللنا نعدو وكنّا قدْ أوشكنا علَى الاستسلام للجماعاتِ التي تعدو خلفنا بالهراواتِ والسّياطِ، لولا أنّ لاحتْ أضواءُ الشّارعِ الرّئيسيّ الذي تمرّ فيه الباصات، اختفينا خلفها واستطعنا أنّ نضيّع الأفرادَ الذين كانوا يطاردوننا.

عزيزي "إيوان":

كان الوقتُ تأخّر، لملمنا نفسَينا وسرنا نقطع الشّوارعَ كأنّنا علَى غير هُدَى، سرنا صامتيْن، نخشَى التفوّه بحرفٍ، سرنا تحت أشجار القيقبِ يهتزّ ظلّانا تحت أنوارِ الأعمدةِ الباسقةِ بامتدادِ الطّرقات، انعطفتْ "هند" في دربٍ جانبي يسلّم لبيتِها دون أنْ تودّعني، لمْ تستدرِ ناحيتي، فيما كنتُ أستكمل سيري جنونًا.

لمْ يعاتبني أبي مِنْ قبْل علَى تأخّري، فهل سيعاتبني علَى إباحةِ جسدي للضربِ ولو بالإجبارِ؟ في مثْل هذه المسائل دائمًا ما أكون حريصةً كي لا أسبّب لأبي جُرحًا في كرامتِه، يعرف أنّه قليلُ الحيلةِ ولا يستطيع حمايتي أبعْد مِنْ مسافةِ باب البيتِ، كان عليّ، أيضًا، أنْ أحذر كي لا تحدث بداخلِه ندوبٌ، إذ ما أكثر الندوب التي خطّها الزّمنُ بمسارِ حياتِه؟! ومع ذلك، كان إذا شعر بالإهانةِ، ولو بالإيحاءِ، أوصد عليه بابَ الشّرفةِ المتّصل بغرفتِه، وقضَى اللّيلَ هناك في الخارجِ وحيدًا، يدخّن، يفكّر، يحتسي الكحول، لا يشعر ببردٍ ولا يشعر بجوعٍ، ينغلق علَى نفسِه، حتّى إذا انبلج اللّيل توضّأ ونزل لصلاةِ الفجرِ، كان يُدهشني كيف إذا غمر فمه بالكحول يتطهّر منه بمجرّد الوضوء ثمّ يصلّي هكذا؟!

النّاسُ مِنْ حولي والسّيارات يزحِمون الشّوارعَ، باعة، متسوّلون، دراويش، كلّهم يعبرونني كأنّي طيفٌ لا يُرَى، ما أقبَح الحياةِ بغير أمانٍ!

أدخل إلَى حارتِنا المرصوفةِ، لا يُلاحظ أحدٌ أنّي عائدةٌ بجرحٍ غائرٍ، أرتقي الدرجَ الحجري ثمّ أجلسُ في منتصفِه أفكّر فيما جرى آخر هذا النّهار، وشخصتُ ببصري إلَى الخارجِ، في الأفق كانتْ السّحبُ تتلاحم، ولونُ السّماءِ يتقلّب، أبواق المصانعِ القريبةِ تُعلن انتهاءَ يوم الدّوامِ، أدخنةُ النّفطِ والمواد الكيماويّة تطرِد الطّيورَ عَنْ سمائِنا، لا يوجد تَرفٌ يُمكنه التّسرية عنّي، ولا حتّى محاولةُ النّسيانِ، هذا إنْ كان النّسيانُ ترفًا؟!

علَى أوّل درجةٍ مِنْ السّلمِ يقف غرابٌ، يمرجح رأسَه ويحدّق فيّ بعينيه المستديرتيْن، أجل أعرف، أنا وليمةٌ لك، جثّةٌ بإمكانك أنْ تنسّرها وتلتهمها علَى مهلٍ، لن أقاوم، لمْ يعُد لديّ جَهدٌ للمقاومةِ، لا تحدّق إليّ هكذا، يزعم العربُ أنّك لصٌّ، هل تريد أن تختلس ما تبقّى مِنْ رباطةِ جأشٍ بصدري؟ ألمْ تسرق ذات زمنٍ بعيد جناحي ديكٍ لتطير؟ ألمْ تغرِه بالمزيدِ مِنْ الشّرابِ حين نفد وأنتما في الحانةِ كي يُعيرَك جناحيه؟ طرت ولمْ ترجع، وفقد الدّيكُ جناحَيه، ومِنْ يومها يصيح، ينادي عليك عنْد كلّ فجرٍ.

لا أدخل البيتَ، أطلع إلَى السّطحِ، حيث أعرف أنّ أمّي تباشر عملًا مِنْ أعمالِها، تستدير لي بوجهِها، أشرع في البكاءِ، تثب نحوي، تلملمني بداخلِها، أغيبُ في حضنِها، يُغمَى عليّ.

تحشر في أنفي عودَ قرنفلٍ، وما أكاد أستردّ وعيي حتّى أجدها قدْ

جهّزتْ لي كوبًا ساخنًا مِنْ الينسون المخلوطِ بشاي البابونجِ.

- اشربي يا ابنتي.

وسرعان ما ارتدتْ ملابسها، أصرّت علَى الذّهابِ بي للمستشفى العموميّ في الميدان.

أتّكئ عليها، تبتاع تذكرتين وندخل، تُخرِج بطاقةَ الهويّة، تتفقّدها ممرّضةُ الطّوارئ، تطبّقها وهي تقول:

- سنيّة؟!

تردّ أمّي وقدْ استوعبتْ:

- إيرانيّة.

يرفضون إلحاقِنا بالطّوارئ، يتحجّجون بعدمِ وجودِ أسرّةٍ كافيّة في عنبرِ الاستقبالِ، تحتدّ أمّي، يظهر الطّبيبُ المِناوبُ، يحتدّ بدورِه، يصرّ علَى أنّ المستشفى متكدّسةٌ، يهتف:

- ما أكثر العيادات الخاصّة في الميدان! قلتْ لكِ لا توجد أماكن كافية.

- وماذا يفعل مَنْ لا يملك أجرةَ طبيبٍ خاصٍّ؟ يموت؟!

- الله كفيله.

نخرج بجرحٍ آخر، تكلّم نفسَها: "يهينوننا ويضربوننا ويقفلون مساجدَنا، ثمّ يمنعون عنّا الدّواءَ، أيّ عدلٍ يا رب؟!".

في هذا المساءِ طبّبتني أمّي بيدِها، وكانتْ تقول بأسَى وهي تبلّل القطنَ بالمُطهّر وتمسح به جروحي:

- أكان لا بدّ أنْ تذهبي إلَى السّينما يا ابنتي في هذا الوقت المتأخّر؟ ما بالكِ وأنتِ تعرفين أنّهم يتربّصون بالنّساءِ؟! لماذا لمْ تدخلي حفلةً صباحيّةً؟ ثمّ إنّ علينا أنْ نتخلّى عِنْ بعضِ بهجتِنا يا ابنتي مِنْ أجل أنْ تمضي الحياة، الحياة غالية يا "ريحانة" فاحرصي عليها.

وأطلقتْ تنهيدةً مِنْ صدرِها، ودمدمتْ:

- إنّما، وفي كلّ الأحوالِ، لا يوجد درسٌ بالمجّانِ.

عزيزي "إيوان":

لا يوجد درس، ولا شوق، بالمجّان، الآن؛ صرتُ أعرِف.

(16)

18 تموز- 2010

سجن شهر ري- عنبر «3»- ورامين- ضواحي محافظة طهران

يفرّقوننا كلّ عدّةِ أيّامٍ، يوزّعون بعضَنا بين الزّنازين الفرديّةِ وفق الهوَى، لا أسرّةَ في الزّنازينِ الفرديّةِ، أرض مِنْ الإسمنت نفترش عليها أجسادنَا مِنْ فرط الجَهد.

في زاويةِ الزّنزانةِ شعرتُ بزفيرٍ، تلمّستُ في الظّلامِ طريقًا، ودُرتُ بين زوايا الجدران حتّى وقعتْ يدي علَى جسدٍ طريٍّ، أدركتُ أنّها زنزانةٌ مزدوجةٌ، أوّل ما أدركتني البنتُ طوّقتني، كأنّها تفتقد أُنسًا، أجلستني جوارها، ومِنْ الممرّات في الخارج كانتْ تتناهى إلينا أصوات الأحذيةِ الصلبةِ التي تدقّ البلاط، قالتْ:

- جديدة؟!

- لا، لي ثلاث سنوات أتنقّل بين السّجون.

- أحسدكِ علَى دقّتكِ في حسابات الوقت!

- وأنتِ؟!

- لا أعرف! هل أنا جديدةٌ هنا؟!

وسارتْ بأناملها علَى وجهي، دنوت بعينيّ منها، فضحكتْ بمرارةٍ:

- لا أرَى شيئًا، إنّه ممّا اعتدنا عليه هنا في الظّلام!

ثمّ همستْ في أذني:

- سياسيّة؟!

- واضح أنّها جريمة سياسيّة.. لقد صرعتُ ضابطًا شيعيًّا.

زامتْ، وقالتْ بأسَى:

- مسكينة! سيعدمونكِ.

- مِنْ أين جئتِ بهذه الثّقة؟!

- وحمقاء أيضًا! ألا تعرفينهم؟!

تسنّدنا كتفًا علَى كتفٍ، قلتُ:

- وما جريمتكِ؟

- لا شيءَ، إنّها الصّدفة، في مظاهرةٍ أحرقوا بيتي، ولمّا خرجتُ أصرخ وأندّد قبضوا عليّ ضمن مَنْ قبضوا عليهم! تخيّلي لمْ أفعل شيئًا في حياتي يستحق الحبس! لمْ أفهم في السّياسةِ عمري كلّه!

- لعلّه بلاء، والله قادرٌ علَى إزاحة كلّ بلاء.

- إنّ الله لمْ يعُد يرانا.

وضحكتْ في حسرةٍ.

تنهّدتُ، كم تُشبهني! لا نكاد نختلف هنا في السّجن، كلّنا لا نعرف

في السّياسةِ ولا نريد، وكلّنا، بطرائقَ مختلفةٍ، أوشكنا علَى فقد الأمل.

رفعتُ عينيّ أحاول الاستبصار، رأيتُ "شُعلة" موشومةً على السّقفِ تطلّ مِنْ بين ضبابٍ ظلاميٍّ.

أرضُ الله يا "شُعلة" جَبْلٌ وبَحْرٌ وشَجْرٌ، وطُغْيَانٌ، ضَلالٌ لمْ تستنْزِله نُصوصُ الأوّليْن، ولمْ يرِد في غضونِ ما ورَد مِنْ حكاياتكِ القديمةِ.

ضلّ نسلُ "آدم" يا الله، إنّ مَنْ عاهدك، ووفيّته مِنْ بعْدِ توبةٍ، ضلّ نسلُه يا الله، جاؤوا إليكَ بقرابينِهم ابتغاءَ زُلفَى، ثمّ عرّوا سوءات بعضِهم البعضِ، وتَركوا غرابًا يستر موتاهم مِنْ بعْد، وإلَى قيامٍ.

لكنْ هذا قرباني، دَمِي قرباني يا الله، أمّا هؤلاء، الذين غلبتهم ضغائنُهم، سيحشَرون بقرابينهم مقتًا، وبئس المِهاد، نقضوا عَهدَ عدالتِك؛ ميثاقَك، وكلّما خَلوا إلَى شياطينِهم، استزلّتهُم ببعضٍ ممّا تقرّبوا إليك، فافتروا.

قدْ قالت الملائكةُ يُفسِدون فيها ويسْفِك الأخ دم أخيه، رغم ذلك، لهم إليكَ قرابينُ مستحقّة، إنّما؛ أهذا الذي قدّمتْ أيديَهُم؟ إنّك مالكُ القُربى والغفرانِ، هل ستشملهم بغفرانِكَ؟

لكنّي، وريثما أقرأ مشيئتي، كيف علّمتني، علَى أرضٍ لا تشرب الدّمَ السّفاحَ، ولا تُجترَىَ، فهذا أمرُك وشرعُك، سأستقوي بكَ، سأتبَع مصيري، وإنّ إليكَ مرجعي.

عُدتُ إلَى رفيقتي، كانتْ قدْ استراحتْ علَى كتفي ونامتْ، تركتُها، نمتُ بدوري، علَى رجاءٍ أنْ تصل رسالتي؛ هذه، إليكَ يا الله.

(25)
25 تشرين الأوّل- 2014
سجن كوهردِشت- مدينة كَراج- غَرْب محافظة طهران

أمام غرفةِ الإعدامِ يقف رجلٌ بدينٌ وفي يدِه كاميرا، إنّ هذه اللّحظة بالتّحديدِ هي اللّحظةُ التي لا بدّ أنْ تبقَى بأعينِكم، أنْ تسجّلها ذاكرتُكم إلَى حينِ مراجعةِ النّفسِ في أوانِ الكَربِ، لكنْ هل لمثلِكم أنْ يكرب يومًا؟ هل تعرفون الله مِنْ الأساسِ؟

اقتربتْ منّي ضابطةٌ وقالتْ:

- "ريحانة"، هذه الكاميرا ستصوّر اعترافكِ وتنقله إلى العالمِ، قولي إنّ "سرابندي" لمْ يحاول الاعتداءَ عليكِ، وإنّك لمْ تقصدي قتلَه.

- هل يُمكن أنْ ينفعني هذا الآن؟ ما جدوى أنْ تنتشر الأكاذيبُ؟ ولصالِح مَن؟

- لصالِح بلدِك، قضائِه، النّظامِ الذي أنفَق علَى رعايتِكِ وتعليمِكِ وسيرعَى أهلَكِ مِنْ بعْدِكِ، أقلّه كي تكفّري عَنْ الإثم، ألا تريدين الاعتذارَ؟

- كيف أزيّفُ الحقيقةَ وأنا سأستقرّ في وطنِ العدالةِ فيما قليل؟ في العمومِ الاعتذار عنْ صونِ الشّرفِ لهو جريمةٌ في حدّ ذاتِه.

- أنتِ عنيدة، حتّى وأنتِ علَى مشارفِ الموتِ، لماذا لا تُريدين الاعترافَ بجريمتِكِ؟

- أنا أرفض هذا التّسجيل.

واستدرتُ عنها بظهري في إباءٍ، رفعتُ عينيّ للسّماءِ، رحتُ أراقبُ الحمائمَ التي كانتْ ترفرف مِنْ جهةِ برجِ حراسةِ السّورِ الأوّل للسّجنِ تُذكّرني بحمائمي الزّاجلةِ، مِنْ غيظِها دكّتني في رأسِي، وصاحتْ:

- اذهبي لمقابلةِ ربّكِ إذن، هذا إنْ كان لكِ ربٌّ!

الغاليةُ "شُعلة": "ثمّة طرقٌ عديدةٌ للتّعاسةِ، أنجحُها الدّفاعُ عَنْ الشّرفِ، إنّ القدرَ يكتّف مصيري علَى نحوٍ مضلّلٍ، لو بيدِي لاستأجلْت هذا المصير".

عزيزتي: "في هذه اللّحظةِ سأتقدّم إلى الحَتفِ بعزمٍ رخوٍ، كأنّي استرحتُ مِنْ عناءٍ، كأنّي أحملُ اليقينَ علَى إطلاقِه، ولا يكاد يؤثّر فيّ إحساسٌ قدرَ إدراكي أنّك حزينةٌ تجترّين الذّكريات، أنّ كلّ الأملِ الذي عكفتِ على إيقادِه مِنْ فُتاتِ الأحداثِ قدْ صار إلى زوالٍ، لا يوجد أملٌ ها هُنَا يا "شُعلة"، لا يُشعرنِي بالخزي يا حبيبتي إلّا أنّي كنتُ فقط أريدُ أنْ أقبّل يدَكِ ويدَ أبي قبْلمَا أرحل، ولمْ أستطِع".

كنتُ أريدُ أنْ أهمسُ لكِ في عتابٍ: "تعلّمتُ على يديكِ كلّ شيءٍ عدا الاستسلام، كانتْ حكاياتُكِ دومًا أنّ الاستسلام خطيئةٌ لا تُغتفَر، أنّ الاستسلامَ ضلالٌ، قلتِ لي إنّ المثابرةَ فرضٌ ولو كان جزاؤها الموتُ، وإنْ يُجزَى المرءُ بالموتِ أهوَن مِنْ أنْ يُجزَى بالعارِ، لماذا لمْ تخبريني عن النّهاياتِ العبثيّة يا "شُعلة" إذن؟".

ظللتِ تقولين دومًا: "الحياةُ مثْل البحرِ والإيمانُ باللهِ هو

السّفينةُ التي ستصل بنا إلى المستقرِّ في أمانٍ"، هل هذا هو المستقرُّ يا "شُعلة"؟

"لا يقطِف الثّمرَ إلّا مَنْ ترقّب أوانَ نُضجِه"، ترقّبتُ كثيرًا ولمْ أقطِف إلّا الشّقاءَ يا "شُعلة".

"إنّ ما يؤلمنا هو ما يعلّمنا ويصنَع ذكرياتنا"، تألّمتُ وتعلّمتُ يا "شُعلة".

إنّما لنْ تكون لي ذكريات، بلْ سأكون أنا الذّكرَيات جميعها؛ ذكريات اللا عدالة.

يقرّرون: "القَصاصَ". فأردّدُ حائرةً: "أيُّ قصاصٍ؟ وممّنْ؟ كيف تقتصّون مِنْ طفلةٍ قارعتْ الشّرَّ والذّلَ وحدها وانتصرتْ عليهما؟".

كانتْ هذه الطّفلةُ تدافع عنْ كلّ شيءٍ عاشتْ لأجلِه، أوليس الشّرفُ فخرنا وعزّتنا؟ تعلّمتُ منكِ هذا يا "شُعلة"؛ أنّ التي يُراق شرفُها لا يُمكن أن تباشر الحياةَ بدونِه، كلّ الذي فعلتُه أنّي استمسكتُ بهذا الشّرف، ثمّ وجدتني آثمةً وجبَ عليها القَصاصُ، كأنّي إذا فرّطتُ صفّقوا لي! إنّما؛ وعلَى أيّة حالٍ، يكفي أنّي أموتُ اليومَ ورأسي تشاطر السّماءَ افتخارها، عيناي إلى أعلَى، وقلبي فيه جلالٌ واطمئنانٌ ونزوعٌ إلَى الاستقرارِ.

لنْ أتردّد وأنا مُقبِلةٌ علَى الموتِ، لا يا "شُعلة".

(8)
21 آذار- 2007
آبسِرد- مقاطعة دماوند- محافظة طهران

للمرّة الثّالثةِ، تُعيدين يا "شُعلة" رفع الأغطية المذهّبة التي تفرِشين بها مقاعدَ غرفةِ الضّيوفِ، ثم تنفضينها وتفرشينها مِنْ جديدٍ، تعطّرين البيت برائحةِ الزّهورِ، مرّة بعْد مرّةٍ، تُطلِقين البخورَ وتفتحين السّتائرَ كي تمشّط الشّمسُ البيتَ، تكنسين الدَرجَ وتنثرين عليه ماءَ الوردِ، وعلَى جانبِ الدَرجِ كان "حارس" قدْ اتّخذ وضعيّة النّومِ، تمتمتِ: "وهل هذا وقتُه؟". ثمّ رفعتِ عينيكِ للسّماءِ: "ليته يكون مناسبًا يا الله!".

كان صوتُ عمّي "فريبرز" عاليًا وهو ينادي مِنْ الطّابق السّفلي، هرول أبي وطلّ مِنْ درابزين الدَّرجِ، وصاح محتفيًا:

- تفضّلا.

دخل عمّي وفي أعقابِه دخل رجلٌ طويلٌ، بدا في أواخر الثلاثينياتِ مِنْ عمرِه، كان متوتّرًا وهو يجلِس متقوقعًا داخل الكرسي، رحّب به أبي مرّة فمرّة، لكنْ بدا عليه عدمُ الرّضا، فتح عمّي بابَ الحوارِ بتعديد مزايا العريس، اسمه "عمر"، مهندس ناجح، ينحدر مِنْ أسرةٍ طيّبةٍ عربيّةٍ لها أصولٌ في شبه الجزيرةِ، وهو مستعدّ أنْ يدفع المهر الذي سيُتَفق عليه نقدًا، وله بيتٌ فسيحٌ يُطلّ علَى مجرى ماءٍ وحديقةٍ في الأهواز.

هتف أبي باستنكارٍ:

- الأهواز؟! إنّها ابنتي الوحيدة يا "فريبرز"! كيف أسمح لها بالسّفر بعيدًا؟

قال "عمر":

- بيت الأهواز مجرّد استراحة للنّزهةِ، سأشتري بيتًا بالتّمليكِ في شمالِ طهران.

- ولا حتّى شمال طهران! إضافة لأنّها لمْ تُكمل دراسة الجامعة بعْد.

- لا بأس، نعقد الخطوبة ونرجئ الزّواجَ حتّى إتمامِ الدّراسةِ.

دخلتْ أمّي عليهما بكؤوس عصير اللّيمونِ الحامض، واستدارت لتخرج مسرعةً، نفخ أبي دخانَه وقال:

- طيّب يا سيّد "عمر"، نفكّر في الأمرِ ونردّ عليك.

فيما بعْد قلتُ لأمّي:

- والله السّيّد "عمر" كان وسيمًا.

ضربتني علَى كتفي وهي تضحك:

- إيّاكِ أنْ تغيظي أباكِ بمثْل هذا الكلام! إنّه يكبركِ بعشرين عامًا علَى الأقلّ.

كانتْ أمّي، وكلّما تيسّرتْ بها الحالُ، تبتاع لي نواقصَ جهازي،

مِنْ مفروشاتْ وأوانٍ فضيّة ونحاسيّة ونجف الكريستالِ، وستائرَ، وأجهزةً كهربائية، تقول:

- النّصيبُ يأتي في غمضةِ عينٍ.

تقدّم إلَى خطبتي كثيرون، منهم أصحابُ المتاجرِ ومهندسون وعمّال مصانعِ، وحرفيّون ممّن استأجروا محلّات في البازارِ، لكنّ أصغرهم سنًّا كان يكبرني بعشرِ سنواتٍ علَى الأقلّ، كان ردُّ أبي في كلّ مرّة جاهزًا:

- لن أدفعها إلى الزّواجِ مِنْ رجلٍ يكبرها بمثْل هذه الأعوام.

وحين نختلي لجلسةٍ عقبِ كلّ عريسٍ، تؤمّن أمّي علَى كلام أبي، تهزّ رأسَها:

- نعم يا "ريحانة"، أنتِ ابنتنا الوحيدة، لن نلقي بكِ إلَى حضنِ رجلٍ في عمر أبيكِ، إذا تزوّجتِ فليكنْ زواجًا متكافئًا.

- وماذا إذا لمْ يتقدّم مَنْ هو في مثْل عمري؟!

- إذا أردتِ الزّواجَ فليكنْ هذا علَى قناعةٍ ومَهلٍ، لماذا نتعجّل؟

تقول أمّي، أردّ عليها:

- الفكرةُ ليست فيما أريد، الفكرة في المبدأ.

- حسنًا، تخرّجي في الكليّة ونزوّجكِ لأوّل عريسٍ.

ينظر لي أبي بجنبِ عينِه وعلَى وجهِه وجومٌ، أقتربُ منه أقبّله علَى جبهتِه، أقول وأنا أضحك:

- أعرف أنّه لن يهون عليك فراقي.

- أنتِ صغيرة علَى الزّواج يا "ريحانة".

أضع يدي في خصري بتحدٍ وأقول ممازحةً:

- خطبة صديقتي "هند" اليوم وهي أصغر منّي بعامٍ.

يرفع أبي سبّابته محذّرًا:

- اذهبي لكنْ لا تنسي ارتداء ملبسٍ واسعٍ، لا أريد أنْ يتلصّص الرّجال علَى مفاتنكِ، في مثْل هذه الحفلات يختار الرّجال زوجاتهنّ.

- في العمومِ قلبي مشغولٌ..

ثمّ غمزتُ بعيني:

- بكما.

يراني أبواي جميلةً، أستحق أنْ أتزوّج زيجةً مرتاحةً، الخاطبةُ داختْ علَى عتباتِ بيتِنا، وتشاجرتُ كثيرًا مَعْ أمّي، وكانتْ أمّي تشير إلَى البابِ: "سيقف علَى هذا الباب رجلٌ ليس كمثلِه رجلٌ". فتُمصمص الخاطبةُ وتقول: "بعْد أنْ يضيع العُمرُ". تنهرها أمّي: "ابنتي صغيرة يا امرأة".

كنتُ أرَى أمّي وهي تُشعِل المباخرَ وتستجدي السّماءَ عريسًا يليق، تقرأ القرآن وتُنذِر النّذورَ، وكلّما تقدّم أحدُهم يُخضّ قلبُها مِنْ أنْ يتشابه والآخرين، في كلّ مرّةٍ كان تنبؤها صحيحًا، لمْ يأتِ بعْد مَنْ يستحق ريحانتها.

كان يُفتَرض أنْ يأتي، بطبيعةِ الحالِ، الرّفض منّي، لكنّي، وطالما

احتفظتْ به كسرٍّ، أترك الرّفض يأتي عَنْ طريقهما، وأنتظر أنْ تجمعني السّبلُ مَعْ "إيوان" في تقاطعٍ واحدٍ.

بلغتُ ميدان "آزادي" سيرًا علَى قدميّ، حيث سأستقلّ مواصلةً إلَى مقاطعة "دماوند"، لمْ يكن إلّا سائقٌ واحدٌ فقط، وكانتْ السّيارةُ شاغرةً، اتّفق معي أنْ أسدّد نصف الأجرةِ ونتحرّك فورًا، وافقتُ كي لا يتأخّر بي الوقتُ، لا أعرف كيف بدا لي فيه مِنْ الوهلة الأولى هذا النّوع من الألفة! بدا في ملامحه شيءٌ مِنْ الودّ والبساطة، وهو يجفّف العرقَ الذى ينزّ من وجهه بكمّ قميصِه، لكنّي؛ وعندما جلستُ في المقعدِ خلفه، تبيّن لي كم كنتُ مخطئةً، أو ساذجةً، بعد أن رمقني بعينيه الحادّتين اللّتين نفذتا داخلي فشعرتُ برجفة، كأنّه يسألني عن أجرته قبْل أنْ نتحرّك، ثمّ لمّا ابتسم ابتسامته العدوانية فلاح من أسفل شفتيه الغليظتين صفّ من أسنانٍ صفراء يشوبها بعض السّواد، آثرت الصّمت، وكأنّي لمْ أفهم مغزى نظراته، أو كأنّي لا أريد أن أفهم، تاركةً موضوع الأجرةِ حتّى نبلغ وجهتنا.

أدار مفتاحه متنهّدًا، مستسلمًا لقراري الضّمني، مِنْ تجاهلي طلب عينيه أجرته، بدأ موتور سيارته يحشرج، جلس قليلًا خلف المقوّد حتّى تسخن السّيارة، ثمّ فجأةً قفزت السّيارةُ متحرّكةً، قطبّت جبيني بدهشةٍ عندما تقلقل جسدي مِنْ حركةِ السّيارةِ المباغتةِ، فحدجني بجنب عينه وهمهم:

- الموتور يحتاج إلَى إصلاحٍ.

مرّ الوقتُ وأنا أقضم أظافري مِنْ القلق، حيث كان يترك السّيارة تتابع طريقها ويرفع يديه عن المقوّد ويشعل مثلًا سيجارة، أو يبدّل

فيما بين قنوات الرّاديو، والكارثة أنّه كان يغفو، بطريقةٍ أفزعتني، رأسه تتدلّى لأسفل فجأةً ويشخر شخرةً ممطوطة متقطّعة، فأُسرع بالرّبت علَى كتفه فينتبه ولعابٌ يسيل من فمه.

لكنّه غفا مرة أخرى فأمرته أن يركن السّيارةَ، بعد أن لكزته في جنبه لكزة عنيفة أيقظته، ضغط على المكابح وتوقّف، في قلب الطّريق، دون أنْ يكترث للسّيارات اللّاهثة خلفنا، صرخت السّيارة وتحجّرت، والتفت نحوى متّقد العينين، كنتُ عازمةً على وضع حدٍّ لهذا الاستهتار، إنما ملامحه المخيفة، المرتعشة، المتحفزّة، أوحت لي بما قد يبدر من رجلٍ مثله، حمحم، وركن السّيارة واستدار نحوي، طقطق الكرسي تحت جسمه الثقيل وهو يستدير، ثم تشنجت عضلات وجهه، وقال:

- كدنا نصل.

البيوت المتناثرة الطّفيفة على جانبي الطّريق، تركض نحو سيارتنا الرّثة وتقذفها إلى داخل الطّريق وتمضي، تذهب أثناء تقدّمنا، يتسلّل الملل ويكبر ويتعاظم فينقطع آخر خيوط الحوار الواهن ما بيني وبينه، فقط كان يرمقني بعينين حمراوين تنازعان النّوم، وتنفّستُ الصّعداء وأنا أترجّل أمام بيت "هند" الجديد في "دماوند".

لمْ يكنْ حفل الخطوبة كبيرًا، لمْ يحضره غير الأقارب وبعض الصّديقات، صرّحتْ لي "هند" قبْل الخطوبةِ أنّها خائفةٌ، وأنّها لم تتعرّف جيّدًا إلَى الرّجل بعْد، كان أحد أقاربها، له بيتٌ فسيحٌ في مقاطعةِ أبي موسى، يحيط به كرمُ نخيلٍ، سألتُها:

- هل أجبرك أحدٌ؟

- بالعكس، تركوا لي خيار الرّفض أو القبول، أنا أعرفه، تقابلنا أكثر مِنْ مرّةٍ في مناسباتٍ عائليّة، لا أعرف! لعلّها رهبةِ التّجربةِ ليس أكثر.

- لكن هذا سفرٌ يا "هند"؟!

- اتّفق مع أبي أنْ أزور بيت أهلي مرّةً كلّ شهرٍ.

كانتْ الزّغاريدُ تُعلِن أنّ العريسَ وصل، كنّا نجلِس علَى سطحِ البيتِ حول موائد خشبيّة رُصّت عليها أطباقُ التّمرِ والرّمانِ والعِنب، وفيما قليلٍ، صعدتْ إلينا "هندُ" وكانتْ ترتدي فستانًا أبيضَ مِنْ الحريرِ، تتأبّط عريسَها بشكلٍ استعراضي، بدا علَى وجهِها الخَجلُ، وهي تحاول أن تلملم ذيل الفستان الذي أخفى ساقيها وعطّل حركتهما.

تأمّلتُ عريسَها، كان وسيمًا، لكنّي لا أدري كيف شعرتُ نحوه بشعورِ الانقباضِ؟! بدا كواحدٍ مِنْ الأخمينيين القُدامَى الذين كانوا يسكنون إيران قبْل الإسلام، بدا كأنّه أقبح مَنْ رأتْ عيناي! لا بدّ أنّها نظرةُ عينيه، كان يحدج الجالسين كأنّه سيّدُ اللّيلةِ، ولم يكن يكترث إلَى "هند" التي تضاءل جسدُها كثيرًا جوار قامتِه الضّخمة، بل كأنّها مجرّد زرّ في كُمّ بذلتِه، ولمْ يكنْ به شيءٌ مِنْ الأناقةِ، يرتدي بذلة باذنجانيّة اللّونِ علَى ربطةِ عنقٍ حمراءٍ وقميصٍ أزرق!

أخفيتُ وجهي وأنا أضحك، شعرتْ "هند" فبدا عليها التوتّر، كانتْ –وفي كلّ الأحوال- ستلحّ أنْ تعرف انطباعي عَنْ العريسِ، وكنتُ؛ كعادتي، سأصدقها القولَ، ليس هناك ما يُقترَف الكذبُ لأجلِه.

هذا الرّجل؛ كيف يُمكن لصديقتي أنْ تشاركه فراشًا واحدًا وتغفو في حضنِه؟ كدتُ أتقيأ، خصوصًا مع ملاحظتي لأسنانِه وهو يضحك ملء فمه، كان لونُ أسنانِه خليطًا مِنْ الأصفرِ والبنّي الدّاكن، تقلّصتْ معدتي، التففتُ بجسدي إلَى ناحيةِ الشّارع واستندتُ إلَى سورِ السّطحِ، كأنّي أريدُ المزيدَ مِنْ الهواءِ، بحلقتْ فيّ "هند" وعضّتْ علَى شفتيها، فيما كان خيالي هناك، مَعْ "إيوان"، الذي لا يُشبِه أحدًا.

انصرفتُ قبْل انتهاءِ العُرسِ، كانتْ شوارع طهران تضجّ بالمحتفلين بعيد النيروز؛ عيد رأس السّنة الفارسية، الذي ستبدأ مراسمه صباحِ الغد؛ وهو يوم عطلةٍ رسميةٍ، احتفالاتُه تستمرّ لأربعةَ عشرَ يومًا، كانتْ الشّوارعُ مبتهجةً كعادتِها، وكان الكثيرُ مِنْ الرّجالِ يرتدون ملابس حمراء وطواقي صفراء، في أياديهم الطّبل ويُنشِدون القصائدَ الشّعبيةَ، وقد سوّدوا وجوهَهم تشبّهًا بـ"حاجي فيروز" المُبارك؛ الشخصيّة الخياليّة رمز العيد.

الرّبيع سوف يبدأ، وسوف تتجدّد الحياةُ، عندما عُدتُ إلَى البيتِ، كان أبي جاهزًا بالهديّةِ، منحني ألف ريالٍ وقبّلني، وكانتْ أمّي قدْ فرشتْ علَى الطّاولة مفرشًا مِنْ الكشمير، ووضعتْ عليه "الهافت سين"؛ وهي سبعةُ أشياءٍ تبدأ بحرف "السّين"، ترمز إلَى العطايا التي منحها الله للبشرِ، ثمّ جهّزتْ لنا أطباق الأرز بالزّبيبِ، وعصير الخوخ، ووضعتْ علَى الطّاولةِ فصوصَ الثّومِ؛ الذي يرمز إلَى الحركةِ والطّاقةِ، والبراعمَ التي ترمز للميلادِ، ومرآةً تدلّل علَى الشفافيّةِ والسّطوعِ، ووضعتْ المصحفَ طلبًا للمساعدةِ مِنْ الله، كانتْ إيرانُ، وعلَى اختلافِ طوائفِها، تحتفل بعيدِ النيروز.

قالتْ أمّي وهي تربّتْ علَى رأسِي:

- غدًا نخرج ونحتفل بالنيروزِ.

- غدًا لديّ مأربٌ آخر.

وقبْل أنْ تتبرّم أو تعتَرض، تركتُها ودخلتُ غرفتي، كنتُ علَى موعدٍ في الصّباحِ لرسمِ كتفي بالوشمِ.

خلعتُ ملابسي وتمدّدتُ علَى الفِراش، وكلّما حاولتُ أنْ أغفو خامرني المشهدُ الذي أودّ نقشَه علَى جسمي، كنتُ أريدُ أنْ أحكي حكايةً بدقِّ الوشمِ عليّ لبطلةِ ألواني؛ "وداع"، أرسم وجهها، وحاولتُ أنْ أصفّي ذهني كي يُمكن أنْ أشكّل أجمل ما يليق مِنْ ملامحَ لبطلتي.

لكنّي قبْل الفجرِ استيقظتُ علَى جلبةٍ في الحيّ، كان أبي قد استيقظ بدورِه، وتبعته أمّي؛ التي لمْ تنَم بعْد بسببِ توضيبِ البيت.

نظرتُ مِنْ النّافذةِ، الحيّ يعجّ بالرّجالِ، يمزّقون أجسادِ بعضِهم البعضِ بالسّيوفِ، وقوّاتُ الشّرطةِ تُحاصر الحيّ لا تستطيع المرورَ مِنْ شدّةِ الزّحامِ، تلاحم المحتفلون الذين يحمِلون مشاعلَ النّارِ للصّعودِ إلَى الجبلِ إيذانًا بنهايةِ سنةٍ وبدايةِ أخرَى، هؤلاء كان يُفتَرض بهم أنْ يبادلوا بعضهم الدّعاوَى والتهاني، لكنّهم تعاركوا!

كان هذا شرعُ عيد النيروزِ، يتحوّل مِنْ احتفالٍ طقسيّ يبعث علَى البَهجةِ إلَى احتفالٍ بالدّمِ، كلّ عامٍ، في الموعدِ نفسه!

مَعْ طلعةِ الصّبحِ خرجتُ، انقضتْ المشاحنات بانقضاءِ اللّيلِ، وطلع المحتفلون إلَى الجبلِ أخيرًا.

كانتْ أمّي مستيقظةً، ظلّتْ تنظّف البيتَ، استعدادًا للعامِ الجديدِ، واحتفالًا بانتهاءِ الفصلِ البارِدِ.

الأطفالُ في الشّارعِ يلعبون بالشّعلاتِ النّاريّةِ، والكِبارُ يقفزون فوق أكوامٍ مشتعلةٍ مِنْ الحَطبِ كطقسٍ مستحبٍّ للاحتفال بالعيدِ، كانتْ أبخرةُ الشّواءِ قدْ ضبّبتْ الرّؤيةَ، والنّاسُ خارجَ منازِلِهم يقيمون المآدبَ علَى اختلافِ أنواعِها، يرسمون علَى البيضِ ويزيّنونه، وشبابٌ يرقصون الدَّبكةِ بشكلٍ فلكلوريٍّ.

علَى قارعةِ الشّارعِ جلس رجلٌ بمزمارٍ والنّاحيةُ المُقابِلة آخر يضرب الصّاجات فيلتفّ الأطفالُ حولَ ألعابِ الصّفيحِ التي يبيعها وتفترش الرّصيفَ، الأسواقُ مزدهرةٌ مكتظّةٌ بالبشرِ الذين يبتاعون الملابسَ الجديدةَ والحَلوى والألعابَ والورود، والأسماكَ الذّهبيةَ التي تجلب الحَظَّ، فررتُ مِنْ كلّ هذا وركبتُ الباص المتجّه إلَى مقاطعةِ "رباطِ كريم".

في "رباطِ كريم" تتسترّ مراكز الوشومِ بتراخيصِ الزّينة والتّجميل والتّسمير، بينما في الغُرفِ المُغلقةِ، التي يختارون زبائنها بعنايةٍ، يباشرون الوشومَ، يخشون مِنْ السّلطاتِ التي ترَى في الوشومِ تقليدًا غربيًّا مُخالفًا للشّريعةِ، فيضطّرون إلَى العملِ بطريقةٍ غير قانونيّةٍ، إنّ السّلطات ترَى، أيضًا، في ربطاتِ عُنقِ الرّجالِ تشبّهًا بالعاداتِ الغربيّةِ!

كانتْ معظمُ البناتِ في المحلّ قدْ تحجّبن، حيث إذا صودف وأنْ هجم الأمن، يُمكن للحِجابِ أنْ ينُقذهن مِنْ الاعتقالِ.

الشّبابُ الآن يُطلقون علَى الوشمِ مصطلحَ "تاتو"، بالنيابةِ عَنْ التّسمية التقليديّة الإيرانيّة "خالكوبي".

لكنّ للوشومِ، أيضًا، صيتَها السيئ، وإنْ أباحَها لأنفسِهم الشّبابُ، كانتْ السّلطات تعتقل المجرمين وتوشمهم، ثمّ يجوّلون بهم في السّاحاتِ العامّةِ كاشفين عَنْ هذه الوشوم دليلًا علَى الجُرمِ، حتّى الرّياضيّون الذين كسوا أجسادَهم بالوشومِ، كانوا إذا تنافسوا باسم إيران أخفوا وشومَهم بالضّماداتِ خشيةَ الاعتقالِ.

هاتفتُ واحدةً منهنّ كنتُ قدْ اتّفقتُ معها علَى الموعدِ، انتظرتني علَى مدخلِ زقاقٍ ضيّقٍ، دلفنا إليه ثمّ دخلنا مِنْ بابٍ جانبيّ، انتظرتُ قرابة ساعة، إلَى أنْ جاء دوري.

جلستُ تحت يدِ فتاةٍ شابّةٍ محجّبةٍ، ظلّتْ تدردش معي أولًا وهي تجهّز الفوطَ وتغلي الإبرَ وتسخّن الأحبارَ، قالتْ إنّها تمرّنتْ لعامٍ كاملٍ في إسطنبول علَى يدِ عجوزٍ غجريّةٍ محترفةٍ، والآن تستورد الأحبارَ والأدواتَ ضمانًا لجودتِها.

تغرس الإبرةَ في كتفي، أتأوّه، أزيـح كتفي عنها، تعدِل حجابها وتضحك:

- ستعتادين علَى الأمرِ، لا بأس.

- أخشَى أنْ أعتاد علَى الألمِ.

- وهل ألمُ الوَشمِ في هذه الغُرفة الضّيقة يوازي ألمَ الحياةِ بالخارجِ؟!

شرحتُ لها ملامحَ "وداع"، تحمّلتُ الألمَ وهي ترسمها في بطءٍ علَى جِلدي، ورحتُ أئنُّ، حاولتْ تلهيتي:

- ما اسمُكِ يا خانم؟

- "ريحانة".

- مسلمة، صحيح؟!

- مسلمة سنيّة.

- أنتِ شجاعة، لا تعرفين ماذا سيفعل الأمنُ إذا حضر الآن وكشف عَنْ هويتكِ!

- أظنّ أننا آمنون!

- لا أحدَ آمن صدّقيني.

وضحكتْ، انقبض قلبي، ماذا سيقولون لأبي؟ ابنتُك كانتْ تتوشّم واعتقلناها! طردتُ الفكرةَ مِنْ رأسِي، قلتُ:

- أسرِعي إذن.

مسحتْ بواقيَ الحبرِ مِنْ علَى جِلدي بفوطةٍ، وتركتُه ليجفّ، بعْدها غرستْ الإبرةَ ثانيةً، ومضتْ تستكمل رسمَ وجهِ "وداع"، ولم تصمتْ:

- عليكِ أنْ تخافي مِنْ المتشدّدين الذين يتمّمون علَى الزّقاق علَى مدارِ اليوم أكثر مِنْ خوفكِ مِنْ الأمنِ.

- كلّما أسرعتِ زال خوفي.

- التعجّلُ يُفسِد الوَشمِ.

- اصمتي إذن، لقدْ توتّرتُ.

خبّأتْ وجهَها في الشّالِ وضحكتْ:

- يزول إحساسُ الألمِ بالتّوترِ.

ثمّ لفّت مرآةً بزاويةِ بصري علَى الكتفِ، وقالتْ:

- ها، ما رأيكِ؟

قفزتُ وأنا أصرخ:

- "وداع".

(17)
21 تموز- 2010
سجن شهر ري- عنبر «1»- ورامين- ضواحي محافظة طهران

سمعنا صريرَ بابِ الزّنزانةِ ولمْ نكد نفتح أعيننا حتّى أعشَاها ضوء مصباحٍ يدويٍّ، كانتْ الحارسةُ واقفةً هناك وحولها زمرةٌ مِنْ العساكر، شدّوا صاحبتنا الخرساء، سحبوها مِنْ بيننا، حاولتْ المقاومة بلا جدوى، تقرفصنا حول بعضنا خائفات، ثمّ صفقتْ الحارسةُ بابَ الزّنزانةِ ومضتْ بالخرساء.

نظرنا إلَى بعضنا البعض لسنا نفهم شيئًا، بعض النظّرات عتاب علَى ترك صاحبتنا، وبعضها خوف، بعْد قليلٍ وصل إلَى مسامعنا صراخ صاحبتنا، فانفطرتْ قلوبنا عليها، لمْ يمضِ وقتٌ حتّى انفتح بابُ الزّنزانةِ وألقوا بالخرساءِ بيننا، فحصناها، كان معظمُ جسمها مزرّقًا، وأدركنا أنّهم عذّبوها بالكهرباء، فاحتضنّاها بيننا، لكنّها كانتْ قدْ استنفدتْ طاقتها للصّمود.

يتورّم وجهُ الخرساءِ، يسودّ، وفي شُحّ الضّوءِ تتألّق عيناها ألمًا، تصرخ: «آآآآ». تتقلّب بيننا، يسيل دمُها علَى أيادينا، بدتْ لمْ تكنْ قدْ استفاقتْ بعْد مِنْ التعذيب على يد الحارسة.

لا يوجد ماء، تحضِر إحدانا صفيحةَ البولِ، تمسح الدّمَ، تتخضّب وجوهُنا به، لا ينقطع، ينفجر مِنْ كلّ اتّجاهٍ، مِنْ عينيها، فمِها، أذنيها،

نلملمها فيما بيننا، بدتْ تتمزّق، تصرخ بصوتٍ أعلَى، فأعلَى، والدّمُ يكبّ علَى الجدارِ، ينسكب بيْن أكفّنا، أعرفها، ليست لديها الرّغبةُ في الموتِ الآن، ولا بهذه الطّريقةِ، نزعق مِنْ فرجةِ البابِ القضبانيّةِ، تفتح الحارسةُ البابَ، تطلّ علينا وفي عينيها استنكارٌ، تدعكهما: «ما الأمر الذي يستدعي كلّ هذا الضّجيج؟»، تتلوّى الخرساءُ، تدقّق الحارسةُ النّظرَ: «إنْ كان الأمرُ هكذا فويلكنّ»، ثمّ تبرطم: «لا شغلةَ لنا إلّا الخرساء! ما الذي أصابها؟!»، أصيح: «إنّها تموت»، تردّ: «مصيرها الموتُ، الآن أو بعْد قرنٍ، آخر الأمورِ التي تزعجنا أنْ تقضي إحداكنّ نحبَها، استدعوني فقط إذا ماتتْ لكي ندفنها»، تُغلِق البابَ وتمضي.

أجلس جوارَها، نجلس كلّنا، لمْ تكنْ تتنفّس، أدركنا أنّها استراحتْ، هنا نتبوّل مصائرَنَا في إناءٍ لا تتجاوز سعته ربع لترٍ، يحرسنا الموتُ، وإذا شاء تلهّى بنا، أجلسُ جوارَها ولا أجد الدّموعَ، كيف يُمكن أنْ نبكي مَنْ استراحتْ؟ أليس مِنْ الأولَى أنْ نبكي بقاءنا؟ لكنّي، رغم كلّ شيءٍ، أريدُ المعرفةَ، الفهمَ، كي يكون بمقدوري الاستمرار في خلِق دوافع البقاءِ المُشتَبه عليها، في رأسِي لغزٌ مستحيلٌ، مهوّمٌ، استغلق عليّ حلُّه، هل يُمكن أنْ يُصبِحَ الموتُ جائزةً للصّابرين؟ لماذا نحتمل؟

طاشتْ الأفكارُ في فضاءِ الالتباسِ، والخرساءُ ترقد علَى بحيرةٍ مِنْ دمِها، مسجّاةً مثْل زاهدةٍ استغرقها التبتّل، بالأمسِ، كنّا نبتّل إلَى الله، نتفرّغ لعبادتِه، نتعبّد وننقطِع عَنْ الدّنيا إليه، اليوم نبتّل إلَى الموتِ أنْ يصفَح، وقدْ انقطعنَا عَنْ الألمِ إليه.

نجلس، نؤدّي صلاةَ الانسحاق التّام، أرَى الموتَ بعيني مَنْ أتعبَها الصّبرُ، أقول:

- استدعين الحارسةَ الآن.

قرّرتْ أنْ أرسم، علَى جدران الزّنازينِ، عبر تنقّلي مِنْ واحدةٍ لأخرَى، ماضيّ، ما كان، ما عشتُه، ولمْ يعُد.

في رأسِي تساؤلات، لا يُمكن الإجابةِ عنها إلّا بطريقِ المعاناةِ.

أرسم، كأنّي أبوح، أعترف بوداعةِ الماضي، بذلٍّ الحاضرِ، أتعرّى مِنْ ألمي بالأحبارِ التي أصطنعها مِنْ الطّينِ والوَحلِ والدّمِ.

أقيّدُ، عبر رسوماتي، مشاهدَ الذّاكرةِ التي لمْ يزل بعضُها حيًّا بطبيعةِ العُزلةِ، أرَى النّساءَ اللّواتي يُشنَقن في الميادينِ لأنّهن قرّرن خوضَ حياتهنّ بالتّحدّي، وعارضن قرارات السّلطةِ بفرضِ الحِجابِ، أذكر قهرَ الرّجالِ، كتمَ أنفاسِ الأطفالِ.

أرسم، بإرادةٍ باهتةٍ، حياتي القديمةَ، فيما تلمع أعينُ الكلابِ؛ التي تسلّلتْ مِنْ بين الأسلاكِ الشّائكةِ للأسوارِ تحاول العثورَ في ساحةِ السّجنِ علَى وليمةٍ ضلّتْ بطونَ التّعساءِ.

تعوّدتُ علَى كلِّ هوانٍ، إنْ كنتُ في زنزانةٍ فرديّةٍ أو في عنبرٍ جماعيّ، أحيانًا، أجلس أراقب فرارَ اللّيلِ مِنْ خلالِ بؤرةِ النّافذةِ العاليةِ.

أوشكَ الموتُ، إنّ اللّه عادلٌ رغم كلّ شيءٍ، إنّ الموتَ في حدّ ذاتِه أقرب المعاني للعدالةِ، لأنّه لا يُفلِت أحدًا، نتساوَى في الموتِ، فقط.

أرسم وجهَ «شعلة» علَى جدارٍ، أتذكّرها، كأنّها تمارس ما اعتادتْ عبر ذكرياتي.

«شُعلة»؛ أراني وحيدةً في انتظارِ ما لا يجيء أبدًا، لمْ أعُد أؤمِنُ إلّا بالعَدم، والموت علَى غير احتسابٍ. قلتِ لي مِنْ قبْلِ: «لا تُطفئي النّورَ بعْدكِ لعلّ غيرَكِ يستدلّ». أيُّ نورٍ يا «شُعلة» في مثْل هذا الظّلام؟ هل هناك مَنْ يستدلّ إذا ما أبقيتُ النّورَ؟ إنّما سأموتُ وثمّة حكايةٌ لمْ أروِها بعْد، حكايةٌ تعجَز الكلماتُ عَنْ البوحِ بها، لكنّي أعرفها، أحفظها، فهي في النّهايةِ تحفظ توازني، كي لا أسقط قبْل موعدِ السّقوط المُحتّم، حكايةٌ كنتُ أقتطِف منها ذات بهجةٍ، ذات حزنٍ، ذات عبثٍ، إنّها الحكايةُ التي تسلّلتْ منّي إلَى الحياةِ نفسها، وجعلتني قادرة رغم كلّ شيء؛ رغم العُسرِ، رغم المعاركِ التي واجهتها روحي في ظلّ المحنةِ، أنْ أصمد، كي أموت في سلامٍ.

إنّها الحكايةُ التي يكون موتُ بطلِها هو فصلها الأخيرُ، وأصدق الحكايات تلك التي تكون فيها البطولةُ للمرأةِ.

في السّجنِ، سوف أكون مرغمةً علَى كتابةِ الحكاية الخاصّة بي، هنا، لا شيء إلّا الفراغ، لديّ كلّ الوقتِ، ولديهم كلّ القَهرِ، لكنّ حكايتي ستكون حكايةً أسطوريةً؛ كالإلياذة، كجلجامش، كألفِ ليلةٍ وليلةٍ، وعليها الليالي التي قضيتُها منفردةً بكلّ الهوانِ.

ستبدأ؛ حكايتي، مِنْ اللّحظةِ التي لا يُمكن لاستدعاءٍ أنْ يتذكّرها، ولكنّي أتذكّرها جيّدًا، عندما خرجتُ مِنْ رحمكِ يا «شُعلة»، مِنْ العتمةِ البريئةِ إلَى النّورِ المُوحشِ القاسي؛ هذا الذي لا ينبغي أنْ أطفئِه

مِنْ بعْدي، اللّحظةُ التي ظللتُ أصرخ فيها مِنْ الجهلِ بهذا العالمِ، الجهلِ بمعنى الشّتاتِ الآتي.

حكايتي عنْ اللّحظةِ التي ترَك فيها أبي يدي ثمّ عبَر الطّريقَ إلَى الرّصيفِ المُقابلِ كي يبتاع لي لعبةً جديدةً، اللّعبة التي لمْ أفرح بها قدر خوفي مِنْ ألّا يعود لي أبي بها.

اللّحظة التي انزلقتْ فيها قدماي علَى درجِ المحبّة فانكسرتُ.

اللّحظة التي اكتشفتُ فيها العَدوَ الأوّل والفُراقَ الأوّل وشغفَ المعرفةِ الأوّل، الصّداقةَ والشّوقَ عبر رسالةٍ، والوحدةَ والألمَ والحسرةَ، كلّها لحظات تكفي لصنعِ حكايةٍ أسطوريّةٍ، ويُمكن أن يصبح أحد فصول الحكايةِ عَنْ اللّحظة التي عرفتُ فيها أنّ العيد القادمَ سيأتي دونكما، كأنّي صرتُ شبحًا لكلّ اللّحظاتِ، كأنّي الحكايةُ التي سيكتوي العالمُ إذا أدركها.

هذه الطّفلة يا «شُعلة»؛ الطّفلة القديمة، التي تُشبِه بطلةَ ألوانِها، ستقف، ذات مغيبٍ، ذات ضلالٍ وفقدٍ وتيهٍ، علَى رصيفِ الفُراقِ.

كان الرّصيفُ تمامًا كالذي لا يحتفي بالغُرباء والمعذّبين، ستقف الطّفلةُ تتفرّس في وجوهِ العابرين، ظنّها ستطوّقها ذراعا أمّها مِنْ خلفٍ، أو ينتشلها حضنُ أبيها في غفلةٍ، لكنّ الطّفلةَ؛ التي اسمها على اسمِ وردةٍ برائحةٍ خُرافيةٍ، الطّفلةُ التي غادرها الأمانُ ذات غدرٍ، وكانتْ تحسب العالمُ آمنًا كالقدرِ، كالإيمانِ، كتضرّعٍ مُستجاب عِنْد الفاقةِ، لكنّ الطّفلةَ، هذه الطّفلة، ستقف عاجزةً أمام سطوةِ قطارِ الذّكريات.

كان القطارُ لا يمضي، ولا يهدأ أيضًا، القِطار يتّكئ علَى رصيفِ الذّهنِ مثْل عجوزٍ استند علَى جذعٍ متينٍ، عجوزٌ أغراه الشّعورُ بالرّاحة فاستراح، قطارٌ عرباتُه حُبلَى بالوجوهِ، كنطفٍ سوف يكتمل كساؤها لحمًا، الوجوه المألوفة وغير المألوفةِ، عرباتُ القِطارِ حُبلَى بالوجوهِ التي ستغادر جميعها بعْد حينٍ، وإلَى حينٍ، وكالعجوزِ الذي سيتخلّى حتمًا عِنْ الجذعِ المتينِ إذا أصابه السّأمُ، سيرحل قطارُ الذّكرياتِ، ولنْ يُمكن للطّفلةِ بعْدها أنْ تعثر علَى الوجوهِ التي تريد الإبقاء عليها.

ستمكث الطّفلةُ أمام زجاجِ القطارِ، ستحدّق طويلًا، ستحدّق حدّ التّيهِ، وسيصير وجهُها مطبوعًا علَى الزّجاجِ كأنّه يضوّي، وجهُ الطّفلةِ سيغازل صاحبتَه، وسيتحرّك الوجهُ وحدَه دون هذه الصّاحبة، سيتراقص وحده، ويغادر معْ القطارِ وحده، وستهرول الطّفلةُ خلف وجهِها الذي اختلسه الزّجاجُ، أيعيش المرءُ دون وجهٍ؟

ستنادي الطّفلةُ ولا جدوَى، ستهرول، ستهرول، خلف وجهِها، وخلف وجهِ أمّها، وجهِ أبيها، ستهرول بلا ملامحَ، كأنّها السّاقطةُ مِنْ قوائمِ الأقدارِ، ولمّا يختفي القطارُ في هذه النّقطة البعيدة، ستُدرك الطّفلةُ أنّ وجهَها سيُخاصِم المرايا، ألمْ تُخلق المرايا كي يتبختر البشرُ بملامحِهم؟

ستظلّ الطّفلةُ واقفةً هناك، سيعبرها الموتُ، مرّة واثنتيْن وثلاث، ستظلّ في انتظارِ عودة القطارِ نفسه، بالوجوهِ نفسِها، وستتعلّم أنّ القطارَ الذي يمضي لا يعود ولا يغيّر وجهتَه للوراءِ، لكنّها ستنتظر، برأسٍ بلا وجهٍ، ستموت الطّفلةُ دون أن تَرَى وجهَها، وقدْ انتظرتْ ما لمْ يأتِ أبدًا.

(12)

2 نيسان- 2008

سجن إيفين- سعادات آباد- شمال غَرْب محافظة طهران

قال اركعي، فركعتُ يا "شُعلة"، هل كان يُمكن أنْ أخالف الأوامرَ؟ وهل يملِك مَنْ في مثْل حالي خيارَ الرّفضِ؟ إنّ الطّاعةَ هنا ليستْ بيدِنا، بيدِهم أيضًا.

في العمومِ، أدركتُ أنّ عليّ ترتيب كلِّ ظرفٍ وِفق المشيئةِ الأكبر، ألمْ تعلّميني هذا؟ ستبرق في ذهني كلُّ تعاليمكِ وهم ينزعون عنّي ملابسي، سأطهّر روحي منهم فيما بعْد، لكنْ ليس عليكِ أنْ تقلقي، سينتهي كلّ ألمٍ مهما بدا لا يُحتَمل، جئنا الحياة ونحن نعرف أنّ لحظاتها التي ينبغي أنْ تُعاش زهيدةٌ، تمرّ بشكلٍ خاطفٍ، لحظات أقرب للحُلمِ مِنْ الواقعِ، لمْ يضمنْ لنا الله السّعادةَ المُطلَقة، ولا الجرحَ الذي لا نستطيع أنْ نداويه، كلّ الذي نفعله هو التّحايل، نتحايل علَى الجُرحِ، علَى الضّياعِ، كلّ الذي يضمنه الله لنا هو جزاءُ صبرِنا.

قال اركعي فركعتُ، ركعتُ طريحةَ المأساةِ، أدبّر اختباءً جُزافيًّا في عمقٍ سحيقٍ داخل ذكرياتي، وفيما بعْد؛ كلّ الذي سيظلّ منّي ها هنا علَى البساطِ مجرّد حيّزٍ أبيض مِنْ دموعٍ تملّحتْ وجفّفها الصّهدُ.

رنّ جرسَه، انضمّ له حارسان، جرّداني مِنْ ملابسي، وبينما كانتْ أهدابي تكنِس غمَامَ السجّادةِ، طوّق أحدُهما خصري ونزَع ما يستر

نصفي العُلوي، ولمّا حاولتُ أن أستدير اعتراضًا، دكّني علَى رأسِي بدبشكِ البندقيّة يكبتني، فسقطتْ رأسي مكانَها ثانيةً، أمّا الآخر فوقفَ مِنْ خلفي وخَلع بنطالي، بلْ شدّه، مزّقه، صار أسمالًا بيْن يديه، أحسستُ بلحظةِ صمتٍ، كأنّهم يدقّقون في تضاريسِ جسمي الأسمرِ، لعَق الضّابط شفتيه مشتهيًا، وهمهم:

- العودُ أخضّر.

ثمّ بصوتٍ أعلَى:

- دعَاني أُكمِلُ الباقِي.

خرجا وأغلقا علينا البابَ، داعب الضّابطُ مقصًّا في يدِه، فتَحه، أغلَقه، وتّرني، دسّ إصبعًا فيما بيْن جِلد ظهري ومشدّ الصَّدرِ، ثمّ قصّه، انفلت ووقعَ أسفل منّي علَى السّجادةِ، مسحتُ عينيّ في قماشتِه، أكفكف دموعي.

ظلّ الضّابطُ يستدير حولي، يمصمص بشفتيه، يرنّم نغمةً علَى استفزازٍ، بعدَها وضعَ يدَه علَى مؤخّرتي، كنتُ راكعةً لمْ أزل، كنتُ خائفةً مِنْ أنْ أستدير، شعرتُ بالمجهولِ خلفي، كأنّ إعصارًا سيقتلع جسدي مِنْ مكانِه، ثمّ لمّا أصبحَ جسدي عاريًا بالتّمامِ، بصق عليه، وأخذ يمسح بأناملِه بصاقَه.

تختَلط بلمساتِه كلُّ معانيَ المرارةِ، يُقعَى جواري علَى ركبتيه، وبنهمٍ شديدٍ يبدأ في تقبيلِ رقَبتي، يعضّ، كما لو أنّه يقلّد كلبًا جائعًا، فأستسلمُ، وقلبي خافقٌ مضطربٌ يكاد يقف علَى حدّ اللّحظةِ الماجنةِ، أغمض عينيّ وأستدعي ذكرياتي كي أتجاوز قسوةَ اللّحظة،

لكنْ حتّى الذّكريات؛ لمْ تستر اضطرابي.

تورّطتُ بما يكفي لأنْ أتكسّر تمامًا، كألفِ عورةٍ انكشفتْ، كقضيّةٍ أُهدِرتْ أسانيدُها، كبنيانٍ طُمس في الطّين فُتاتًا، المقتُ يقود ساريةَ اللّحظة، هل هذا الذي يأتي متخفّيًا في السّكونِ هو التّشظّي؟ التّشظّي المُطلق اللّا محدود؟ ليكن، هل هذا الاختناق الثّمل دليلٌ علَى رغبتي في الانشطارِ إلَى لا نهايةٍ؟

ظلالُ السّتائر المترنّحة تجعلني لا أعي التّفاصيل جيّدًا، ولمساته تسوقني لمتاهة لمْ أعتدْها وكأنّي منوّمة، أتصوّر ابتسامةَ "إيوان" مِنْ نقطةٍ في الخيالِ، تتعاظم ابتسامتُه، يمدّ لي يدَه، يهمس: "اقتربي". يُسرَى بي إليه كأنّني تجرّدتُ مِنْ هيئتي، يقول: "دعي جسدَكِ". يلمّ وجعي ويمضي، بي يمضي، بالقسوةِ، بالغُصّة، وبكلّ الأحاسيس الطّارئةِ، تُنتزَع مِنّا كلّ الأحاسيس الخبيثةِ إذ نعبَر حدودَ الواقعِ إلَى مشاربِ الخيالِ.

الضّابطُ لا يفعل شيئًا غير التنفّس في رتمٍ شبق، ولا أفعل إلّا الانسياق وراء رغبته برفضٍ جريحٍ، يتشبّث من ورائي بفمِه فوق رقبتي، أكثر فأكثر، ورائحةٌ كريهةٌ تأتي من لا مكان، يتداخل لسانُه مع أنسجة جلدي، تفوح منْ خلفي رائحةُ شهوتِه، وهو يفحّ فحيح الاستثارة، وعصّابة من غلٍّ تدعو بصري لأن يتعثّر بأرجاء الغرفة، فتدور الغرفةُ، كدوّامة تسحبني دون إرادة، وشررٌ يتصاعد منّي متجاوبًا مع سخونة أنفاسِه الملتصقة بظهري، أحاولُ أنْ أبدو كأنّي لا أُبالي، أشعر بأنّ هناك أكثر من رجل يكمنون بداخله ويتنازعون هتكي، تقولين يا "شُعلة": "خُلقت المرأة لرجلٍ واحد". وأعجب منْ

عددِ الرّجال الذين يراودونني الآن! كأنّ جسدي سلك عدّة طرق، أو كأنّي في خضم كابوس أهوج.

سأترك نفسي ليده التي تشويني فوق البّساطِ، سأتمدّد عارية كإصبعِ شمعٍ يتدحرج فوق سطحٍ ساخنٍ.

أصرخ: "إيوان"، فيحدّق في وجهي مستنكرًا.

"أمّي"، لا يُبالي.

"أبي"، يصرّ على استكمال مشوارَه، ينهج، وعيناه تنظران في تشتّت وعصبية فيما حولنا، ولا يترفّق بي.

لا شيءَ يكتمل بداخلي، كلُّ شيءٍ منقوصٌ.

تخشّب فوقي، حاولت أن أغمض عينيّ حابسة دموعي حتّى لا أحسّ بهذا الصّخب المباغت، لكن دون جدوى، رعشةُ جسدي فاقت كلّ حواسي، وغلبت محاولاتي في ترك نفسي له، صرختُ أكثر، رماني بنظرة نارية، وراح يستكمل انقضاضه على جسمي بغير أن يكترث لي، تأوّهت، بدتْ روحي أينعتْ، دفعتُه عنّي فجأةً، واعتدلتُ أستردّ أنفاسي، استقام فوقي مرتكزًا على ركبتيه وعضلاتُه ترقص، وكان العرقُ يتقاطر من جسده، ضرب المكتبَ بقبضة يده في عصبيةٍ مفاجئة، فأحسستُ بانبعاجِه، في وجلٍ انكمشت، بعدها تقدّم وحاصر ذراعيّ بكلتا يديه ثمّ نشب أظافره في لحمِهما، ولواني ثمّ دفعني أمامه مرّة أخرى، فجثوت مرغمة وقد انحشر الأنينُ في حلقي، أخذتُ أجهش في وهنٍ، حاولت أن أتشرّب هذا الألم بغير جدوى، حاولتُ أن أستعيد التّوازن، لكن استسلامي يُشعرني بأنّها لحظة

موتي، وهو ينازع فيّ لتكتمل نزوتُه، حاولت أن أبدو جامدةً حيث أعرف أنّ جسدي له قيمة أهمّ من هذه، وهو من ورائي يكابد بجموحٍ لعين، وشبقٌ رهيبٌ يسطو عليه، بدوتُ كحجرٍ لا روح فيه، وأنا عاجزةٌ عنْ الحراك، عن التفوّه، كيف أساومه وأنجو بهذا الجسد؟ لا أعتقد أنّه قد يقبل مساومة تحت أيّ ظرف، ولا من أيّ نوع.

وهو يلقيني عابثًا على الأرض، كنتُ كذبيحةٍ تمّ نحرُها، لكنّه، وهو ينفِض يديه منّي، لمْ أكنْ أصدّق أنّ روحي أصبحت نقاطًا من دم تتناثر علَى يديه الآن!

بعْد قليلٍ، مرّر عينيه علَى كتفي العاري، وتمتم:

- ما هذا الوشم علَى كتفكِ؟

- خيال قديم.

طوحني بمنفضةِ السّجائرِ، وأعاد السّؤال، قلتُ:

- إنّها صديقةٌ لا تعرفها.

- ما المانع إذا أخبرتِني عنها؟!

وأشعل سيجارةً ينتظر ردّي.

- إنّها "وداع"، اسمها "وداع".

- ألا تعرفين أنّ الوشوم محظورة في إيران؟

- لمْ يمنعها القانون.

- لكنّ شرعَ اللهِ منعها، ألا تعرفين أنّنا كنّا نوسم المجرمين بهذه الوشومِ؟

- أعرف.

- حسنًا، ألنْ تخبريني الآن عَنْ عشيقكِ الذي تشارك معك قتْلَ "سرابندي"؟

- ليس لي عشيقٌ، لقْد فضضتْ بنفسِك غشاء بكارتي الآن!

- لماذا تكذبين؟ و"إيوان"؟! لقدْ استعلمنا عَنْ الأمر، رسائُلكِ إليه مَنْ ضمن الأحرازِ.

- صديق لمْ أقابله وجهًا لوجهٍ حتّى، نعم كنتُ أراسله، مَنْ خلال الحمامِ الزّاجلِ.

وانقضّ عليّ ثانيةً، دهس سيجارتَه بقدمِه وكتّفني، نزل بيدِه على رأسي، أدوخ أكثر ممّا أنا دائخة، وخيطٌ مِنْ دمٍ يرتسم على جبهتي.

- أنتِ مصرّةٌ علَى الإنكارِ إذن؟!

نعم الدّم دمي، والذّكرى ذكراي، هناك ألم يا أمّي في العالم لم يجرّبه غيري، هناك مرارة، هناك برد يجمّد أطرافي، يدُه يا أمّي تنزع عنّي كلّ تحمّل، أصرخ لكن لا أحدَ هنا ليسمعني، أصرخ وأنا المجبولة علَى الصّمتِ، أصرخ ولا يكتفي، يضرب ولا يشبع، يؤلم ولا يشفق، يزيحني بقدمِه كأنّي خرقةٌ متّسخةٌ، وكنتُ قدْ سقطت في بركةٍ من دموع.

قال بقرفٍ:

- علَى العمومِ لنا حديثٌ آخر، اذهبي الآن كي تغتسلي، واعلمي أنّكِ لنْ تستخدمي الحمّام إلّا حين يؤذَن لكِ.

وغمز بعينِه متهكّمًا، أدركتُ مقصَدَه، وعرفتُ أنّي لنْ يؤذَن لي باستخدامِ الحمّام إلّا مع كلّ مرّة يأتي فيها جسدي رغمًا عنّي.

فُتح الحمّامُ خصّيصًا بأمرِه، وبدا أنّهم يستخدمونه لأغراضِهم مَعْ السّجيناتِ، كنّا نستخدم المراحيض العفِنة، سواء في التغوّطِ أو التحمّمِ، مراحيضُ السجيناتِ لمْ يكنْ يقوم علَى تنظيفها أحدٌ، ولا حتّى كان مسموحًا لمَنْ يستخدمنها أنْ ينظفنها، وكانتْ روائحُها تفوح علَى الدّوامِ، وتملأ العنابرَ، لكنّنا، مَعْ الوقتِ، تعوّدنا علَى روائحِ المراحيضِ، هنا ثمّة أزمات أكبر مِنْ مجرّد الرّوائحِ.

عزيزي "إيوان":

الماءُ الفاتر يهبِط كأسنّةِ الرّماح مخترقًا كياني، أتسمّر تحته كجثّةٍ يغسّلونها، وأغمض عينيّ عنْ كلّ ما جرى، أحاول القبض على أنثى كانتْ بداخلي، القبض على بقايا منها، أدعك بيدي كلّ ثنايا الجسد البائد، وأتحسّس مع ملمس الماء ورغوة الصّابون دبيبًا من قهرٍ يجد له مسالك داخل كلّ مسامِ جسدي، الماءُ يجرف معه مشاعري، آن لي البكاء، روحي يابسةٌ، ولا بَراحَ، لا شيءَ يُمكنه أن يرثيني، روحي يابسةٌ، ولا يوجد ما يُسعفني أو يُسعفها.

أراني وجارُنا يتلصّص بعينيه من وربةِ نافذتِه عليّ، كلّما دخلتُ إلَى الحمّام للاغتسالِ أو التّشطّفِ أو التحمّم تلصّص، قبضتُه متلبّسًا بضع

مرّات لكنّي لمْ أعرِف كيف أشكوه أو لِمنْ؟! حاولتُ أنْ أحصّن جسمي بإغلاق الضّوء أو إسدال كلّ السّتائر قدر ما يُمكنني، بلا جدوى، حتّى ظلّي كان يثير شهوته، كنتُ أقابل جارَنا على عتبةِ البيتِ فيبتسم ابتسامة بغيضة، أتجهّم ولا ألقي عليه سلامًا، أكثر مِنْ مرّةٍ أراه مستغرقًا مَعْ أبي في حديثٍ، أودّ لو أخبر أبي لولا أنّي لا أضمن ردّ فعلِه، يُمكنه، في لحظةِ طيشٍ، أنْ يضربه حتّى الموت، أخاف علَى نفسي وأخاف علَى أبي مِنْ التّهوّر أكثر، ما ذنبه يُودَع في السّجنِ بسبب شهوانيٍّ مراهقٍ؟!

لكنّي أذكر ذلك النّهار يا "إيوان"، كأنّه الأمس، كان أبي في البازار وكانتْ أمّي –كعادتها- في المُصلّى، وفطن جارنا –الذي لا أريد تذكّر اسمه- إلى وجودي في البيتِ وحدي، سحب عينيه عنّي بينما أتحمّم، ومضَى، ظننتُ أنّه اكتفَى أو قضَى وطرَه عبر المشاهدة، لمْ أكد أخرج مِنْ الحمّام حتّى طُرق الباب، أدركتُ أنّ أمّي عادتْ، فتحتُ الباب، كان جارنا واقفًا هناك وفي عينيه نيّة مشبوهة، تلجّمتُ، وعلى جسدي المُبلّل منشفة، في اللّحظةِ التي كان يدلف ويُغلق الباب مِنْ خلفِه، لمْ أصدّق أنّ التّطاول قدْ يبلغ هذا الحدّ مِنْ التبجّح وعدم الاكتراث! دفعتُه عنّي بينما كان جسمُه ثقيلًا مكالبًا، نجوتُ لأنّ خوفه من انفضاح أمرِه كان أكبر مِنْ رغبته، لمْ يفعل شيئًا غير أنّه أخرج قضيبه مهتاجًا ثمّ في لمحِ البصرِ قذف فوق السجّادة، صرختُ، بصقتُ عليه، فتحتُ الباب وأزحتُ جسدَه بقدمي، ثمّ أغلقتُ بعْده، سندتُ بظهري ألهث، لمْ أعرف كيف يُمكن استدراك هذا الأمر؟! لقْد جُنّ جارُنا ولا بدّ أنْ تُحسم المسألة وإلّا وجدتني يومًا مغشيًا عليّ بين ذراعيه! هل أُفصِح لأمّي؟! ستُخبر أبي! وأبي إذا غضِب أصابه العمَى، لنْ يرحمه، وقدْ يتحوّل الغضب إلَى جنونٍ بدورِه، لكنّه جنون

الزَود والشّرف، وإذا فاحتْ الحادثة لنْ يُغفَر لي، خصوصًا ألّا شهود غير كلمتي أمام كلمته، ماذا لو تنصّل؟! لو كابر وأنكر؟! مسحتُ السجّادةَ مِنْ أوساخِه، وقرّرتُ، بعْد تفكيرٍ مضنٍ، أنْ أبوح بالسرّ إلَى "وداع"، وإلَى صديقتي "هند"، في اللّقطة التي قذف فيها علَى السجّادة وقعتْ "هند" ضاحكةً علَى الأرضِ، وقالتْ:

- رجل حقير، لكنّ جرأته مدهشة.

ثمّ أضافتْ جادّةً:

- لا بدّ أنْ تُخبري أباكِ كي يتصرّف معه، جيرتُه خطرٌ عليكِ.

أتذكّر بينما أتنشّف، بالطّبع لمْ أخبر أبي، حيث يبدو أنّ جارنا قدْ استشعر فداحة ما فعل، فلمْ يكرّره، بغضّ النّظر عنْ تلصّصه الذي لمْ ينقطع.

حارسةٌ تنتظرني خارج الحمّامِ، تضع الأغلال في معصمي وعصّابةً علَى عينيّ، أهمهم:

- عنبر أم زنزانة فرديّة؟!

أشعرُ بابتسامتِها السّاخرةِ مِنْ نبرةِ صوتِها:

- وما الفارقُ؟

ثمّ أضافتْ وهي تدكّك ظهري بيدِها:

- ممم! هل تشعرين بتحسّنٍ الآن؟!

فهمتُ إلام ترمي، فلمْ أردّ عليها.

(6)

17 شباط- 2007

مطعم «علي غابو»- مدينة طهران- محافظة طهران

كنتُ مستهلَكةً عندما بدا أنّي أُجزَى علَى انتظاري، في هذا الصّباح كانتْ حمامةٌ مِنْ حماماتي طائرةً إليَّ ترفرف، بدتْ خارجةً مِنْ قرصِ الشّمسِ مثْل دمعةٍ ذُرِفتْ مِنْ شدّةِ السّعادةِ، مِنْ خلفِها حلقةُ الشّمسِ، وفي عينيها بُشرَى، حطّتْ علّى يدي، وفي ساقِها رُبطتْ رسالةٌ:

- أنا "إيوان"، مِنْ مدينة رشت، محافظة كيلان بالشّمالِ، وصلتَني حمامتُكِ وكنتُ جالسًا، وحيدًا كعادتي، علَى شاطئ قزوين..

يا للمصادفاتِ! وحيدٌ، مثلي وحيدٌ، "إيوان"، ما ألطف الاسم!

أسرعتُ أكتب له:

- أنا "ريحانة"، "ريحانة جبّاري"، مِنْ طهران..

قصصتُ له عَنْ الجامعةِ، عَنْ الرّسمِ، ولمْ أنس أنْ أذكر، في رسالةٍ لاحقةٍ، وعلَى اختصارٍ، حادثة السّينما.

بعْد هذه الحادثة، لمْ نتطرّق إلَى الأمرِ مرّة أخرَى أنا و"هند" ولا إلَى تفاصيلِه، حيّدناه في ركنٍ مُهمَل مِنْ الذّاكرةِ، واعتبرناه منسيًّا،

كان كلانا يرغب، وبنفسِ درجةِ الكتمانِ المُلحِّ، في طمسِ الهوانِ عَنْ واقعِنا، بلْ استكملنا نزهاتنا التي نسير فيها علَى الأقدامِ لساعاتٍ، وأكلنا ثمرَ الأشجارِ الطّارحَ في الشّوارعِ، وتبضّعنا مِنْ المولاتِ، وتوشّمنا، وتحفّفنا، وذهبنا إلَى البحرِ، وإلَى حفلاتِ الغناءِ الصّاخبةِ التي يقيمها برج ميلاد، وإلَى السّينما مرّاتٍ ومرّاتٍ، صرنا عابثتيْن لا نُلقي للدّنيا بالًا، وكنّا إذا خلونا إلَى حكايةٍ، استأنسنا بجانبِ التلهيّةِ فيها لا التعزيّةِ، حيث أدركنا أنّ العزاءَ لن يكفي القهرَ أبدًا، فحكيتُ لها عَنْ "إيوان"، واندهشتْ مِنْ الصّدفةِ، ولمّا ذكرتُ لها بعْد ذلك أنّي أخبرتُه عَنْ السّينما ولّتْ وجهها، وعَمدتْ إلَى الانعطافِ لأمرٍ آخر، فلمْ أحكِ لها عَنْ رسائلي ثانيةً، ولمْ تسألني.

وخرجنا إلَى المسارحِ نتابع الحكايات المُشخّصةَ، وبتنا زائرتين دائمتيْن لمسرح المدينةِ، لمْ تكنْ تنقطع العروض، وفي ليلةٍ كنّا نشاهد عرضًا في قاعةِ مسرح "قشقايي" المُلحقة بمسرحِ المدينةِ، هناك قابلنا صديقًا قديمًا لنا، مِنّ أيّامِ المدرسةِ الإعداديّة، اسمه "أصغَر"، كان يمثّل علَى خشبةِ المسرحِ، بُشّ وجهُه ولوّح لنا بيدِه، أصرّتْ "هند" أنْ تنتظر انتهاءَ العَرضِ كي تلتقيه لتصافحه وتستعلِم عَنْ المصادفات التي أدّتْ به إلَى أنْ يقف اليومَ علَى خشبةِ المَسرحِ، وأصرّ هو عندما التقانا علَى دعوتِنا إلَى العشاءِ في مطعمِ "علي غابو"، أقلّنا في سيارةِ محليّة إنتاج شركة "إيران خودرو"؛ أكبر شركات تصنيع السّيارات في إيران، وتوجّهنا إلَى المطعم.

قطعتْ السّيارةُ الشّوارعَ المزدحمةَ بمشقّةٍ، كان المرورُ خانقًا، والعوادم تسيّج السّماءَ، فضاق تنفّسي، كانتْ نسبةُ التّلوثِ في الجوّ

ترتفع يومًا بعْد يومٍ، خصوصًا بعْد أنْ أمرتْ الحكومةُ خمسة مصانع كُبرَى بالتحوّل لإنتاجِ الغازولين بدلًا مِنْ البتروكيماويات، بعْد ضغطِ الغربِ علَى كُبرَى شركاتِ التكرير العالميّة لوقفِ وارداتِها إلَى إيرانِ.

اهتزّتْ بنا السّيارةُ، وتوقّف المجرَى المروري لمدّة ساعةٍ كاملةٍ بعْد هزّةٍ زلزاليّة طفيفةٍ، طهران تقع علَى أعمق صدعٍ زلزالي جنوب جبال "ألبرز"، ممّا حدا بالحكومةِ أنْ تصرّح مرّاتٍ بأنّها تفكّر جديًّا في إنشاء عاصمةٍ جديدةٍ ونقل كلّ المؤسّسات الإداريّة، لتخفيضِ مشكلات طهران المكتظّة دائمًا، لكنّ المشروع تأجّل بسبب الكلفةِ الباهظةِ.

ظلّ "أصغر" و"هند" يدردشان في حكاياتِ المدرسةِ الإعداديّة القديمةِ، كانا يضحكان، وكنتُ قدْ غبتُ بذهني مَعْ الذّكريات، مَعْ الرّسائلِ، "إيوان"، وجالتْ بخاطري شذرات مِنْ تراكمات الماضي.

كان سورُ مدرستنا الإعداديّة مشيّدًا بالطّوب الأحمرِ البّاهتِ، المُستكمل بالقرميدِ، غير أنّ بناءه لمْ يكنْ مُتقَنًا للدرجةِ، فمعظم بدنِ السّور مشوّه، حيث تلطّخه بقعُ الإسمنتِ بلا اعتناءٍ، ويقبّ الطّوب بعضُه علَى بعضٍ، تاركًا مسافات ما بيْن كتلةِ طوبٍ وأخرَى بامتدادِ السّور.

كانتْ المدرسة تبعُد مسافةَ عشرين دقيقةً سيرًا علَى الأقدامِ، تمرّ عليّ "هند" كلّ صباحٍ، نرتدي المعاطف الثّقيلةَ والقفازات ونستدفئ بالسّيرِ مثْل هذه المسافة دونْ أنْ نستقلّ الباص، معظم أوقات الدّراسةِ يتساقط الثّلجُ، وتنطبع خطوات أقدامِنا علَى الطّريقِ،

نقتضّب الطّريق بالعبورِ في شارع "ولي عصر" مِنْ أوّلِه جنوبًا، مِنْ ميدان "ره آهن" القريب من بيتينا، نتمشّى في كنفِ أشجارِ الدّلبِ المتشابكةِ فيما أعلانا، في الوقت الذي تكون صاحباتنا القادمات مِنْ ميدان "تجريش" شمال العاصمةِ قدْ تحرّكنْ، سيرًا علَى الأقدامِ أيضًا، رغم بُعْد المسافةِ، حيث نلتقي أمام بوّابةِ المدرسةِ.

لمْ نكدْ ندلف حتّى رنّ الجرسُ النّحاسي، بدأتْ الفتيات في الاصطفاف طوابير، وبدأ قرع طبول هتاف النّشيد الوطني:

- بزغتْ مِنْ الأفق شمسُ الشّرقِ؛ تلك التي تستنير بها أبصارُ المؤمنين بالحقّ، "بهمن" هو رمزُ إيمانِنا، ونداؤك أيّها الإمام للاستقلالِ والحريّةِ منقوشٌ في أرواحِنا، أيّها الشّهداء؛ لا زالتْ صيحاتُكم تملأ مسامعَ الزّمن، فلتبقي خالدةً وأبيّةً أيّتها الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة.

كانتْ "إكرام خانم"؛ مُديرةُ المدرسةِ، تصفّق في حرارةٍ، وبدتْ عيناها اللّتان اغرورقتا بالدّموعِ عيني ذئبةٍ لئيمةٍ، كانتْ تخشَى أنْ يشعر المندوب العسكري؛ إخباريّ "الباسدران"، المعيّن في مدرستِنا، بعدم تجاوبها مع النّشيدِ الوطني، فكانتْ، ومَعْ كلّ هتافٍ، تحدجه بجانبِ عينِها تطمئِنّ أنّه يتابع تأثّرها بالرّوحِ الوطنيّةِ التي ترفرف في رحابِ المدرسةِ، خاصّةً أنّها عُيّنتْ في المدرسةِ لتبعيّتها للحرسِ الثّوري.

بتصفيقةٍ أخيرةٍ، تعوّدنا عليها، صرفتنا إلَى الفصولِ، تدافعنا ونحن نهرول صاعدين الدَرجَ، كنتُ أوّل مَنْ ولج إلَى الفصلِ، فجلستُ بجوارِ النّافذةِ، وجلستْ "هند" جواري، دخل أستاذ مادة التّاريخِ،

لمْ يكنْ منتبهًا لانتظامِنا فوق المقاعدِ، سنَد عصاه علَى الطّاولةِ الخشبيّة وأخرج الطّبشورَ مِنْ حقيبتِه الجلديّة، تجشّأ وتمخّط كأنّه هكذا يستعدّ للدّرسِ، عدَل نظّارتَه السّميكةَ، وصاح: "اجلسن". كتمتُ ضحكتي، فقد كنّا جالسات بالفعلِ لأكثرِ مِنْ عشرِ دقائقَ، كان عذرُه أنّه لا يرَى أبعَد مِنْ مسافةِ ذراعٍ.

وقف أمام السّبورةِ، وبدأ يعدّد لنا مفاخرَ إيران ورئيسها، فيما كانتْ أشجارُ النّخيل النّابتة حذاء سور المدرسةِ قدْ استحوذتْ علَى انتباهي، وبينما يدمدم الأستاذ عَنْ المفاخرِ، رحتُ أرسم أشكال التّمر المتدلّي مِنْ أحشاءِ النّخيلِ، واستغرقتُ في رسمي، طرح نخيلي علَى الأوراقِ تمرًا لمْ يذقه بشرٌ، وفجأةً وجدتُ الأستاذَ واقفًا فوق رأسِي، لسعني بالعصا وهتف:

- ماذا كنتُ أقول؟

حاول أنْ أداري عنه رسوماتي، لكنّه خطفها مِنْ يدي بسرعةٍ، طلّ فيها ثمّ كوّرها بأصابعِه وألقاها مِنْ النّافذةِ، وشدّني مِنْ ذراعي فكادتْ تنخلع، سقطتُ أرضًا لكنّه استمرّ يسحبني فمسحتُ البلاطَ بثوبي، انهرتُ بيْن يديه، حاولتُ أنْ أقاوم، لكنّي كنتُ مفزوعةً، نزل بي حيث مكتب المديرةِ، سلّمني إليها وقال:

- إنّها ترسم في درس التّاريـخِ " إكرام خانم"، لا تُنصِت إلَى تاريـخِ بلدِها.

صرفته بإشارةٍ مِنْ يدِها، كانتْ ملامحُها غليظةً وجلدُ وجهِها مترهّلًا، ضغطتْ زرّ الجَرسِ فجاءتْ إخصّائيَة التربيّة النّفسيّةِ، دون

أنْ تنظر إليها قالتْ:

- احبسيها في غرفةِ السّنّةِ.

كان هذا هو المصطلح الذي درَج إداريو المدرسةِ وأساتذتها عامًا بعْد عامٍ علَى إطلاقِه علَى هذه الغرفةِ، حيث لمْ يكنْ يُحبس فيه إلّا بناتُ السّنّةِ، دائمات الإزعاج، المتنمّرات؛ وِفق رأي الإداريين والأساتذِة.

كانتْ الغرفةُ مهجورةً، في الجانبِ المُهمّلِ مِنْ فناءِ المدرسةِ الذي يلقون فيه القمامَةَ والمخلّفات، قالت الإخصّائيّةُ: "ماذا فعلتِ يا تعيسة؟". قلتُ وأنا أنتحب: "كنتُ أرسم النّخلَ!". قالتْ: "حسنًا، سأنتظر أنْ تغادر المديرةُ ثمّ أُطلق سراحكِ، بعْد خمس دقائقَ أو بعْد نهايةِ اليوم الدّراسي، أنتِ وحظّكِ، اتّفقنا؟!".

أومأتُ برأسِي.

أغلقتْ عليّ بابَ الغرفةِ، لمْ يكنْ نفرٌ في الجوارِ، وساد الظّلامُ، وتعثّرتُ بقدميّ في المقاعدِ والمناضدِ المتكسّرة المتكوّمةِ فوق بعضِها؛ والتي يخزّنونها في الغرفةِ، ودُستُ علَى صّفائح منبعجة فتفسّختْ بطنُ قدمي وانبثق دمٌ، ثمّ جلستُ في ركنٍ بجانبِ النّافذةِ يدخل منه بصيصُ ضوءٍ، وسرعان ما أحسستُ بالوحشةِ، واعتراني الخوفُ وأنا أتذكّر قصص البناتِ عَنْ هذه الغرفة، قيل إنّها مسكونةٌ بأرواحِ الملوكِ القُدامَى، الذين يخرجون مِنْ حشايا التّاريـخِ ليُفزعوا مَنْ كُتب عليها البقاءُ في الغرفةِ ولو لوقتٍ قليلٍ، فأغمضتُ عينيّ خشيةَ أنْ يتجسّد لي عفريتٌ أو جنٌّ أو ملكٌ قديمٌ، لكنّي تصوّرتُ أنّ "الضّحاك" والحدّاد "كاوه" خرجا يتصارعان أمامي، فانكمشتُ

علَى نفسي أكثر، وتخيّلتُ "الضّحاكَ" واقفًا ينفث مِنْ فمِه نارًا، ومِنْ خلف كتفيه تخرج الأفاعيَ، بصحبةِ "بيري" و"باتياريـح" شرّيرتي البِغاءِ، ولُذتُ بالبكاءِ، والوقتُ يمضي وأنا رهينة مغادرة المُديرة، وفجأةً حطّ "وهوما"؛ طائرُ الانتصار الملكي، علَى كتفي، يطمئنني، وعلَى رأسِه ريشةُ العائلةِ المالكةِ، في الوقتِ الذي كان فيه البابُ ينفتح، والإخصائيّة تقول: "المديرةُ استدعتْ أباكِ".

دخلتُ عليهما وكانا يتجادلان، لمْ أر أبي غاضبًا مثْل هذا الغضب مِنْ قبْل، أول ما رآني هرول إليّ، حملني، قبّلني، اشتممتُ رائحة الخمر مِنْ فمه، لكنّي أجهشتُ بالبكاءِ بين ذراعيه، مسح الدّمَ المتجلّطَ علَى قدمي، وتغرغرتْ عيناه، لوّح بإصبعِه:

- سأحرّر تقريرًا طبيًّا وأشكوكم به إلَى وزارةِ التّعليمِ!

ودون أنْ ينظر إلَى الوراءِ خرج بي مِنْ الغرفةِ.

- "ريحانة".. "ريحانة"!

هزّتني "هند".

- وصلنا.

صعدا قبلي ولحقتُ بهما، سقفُ المطعمِ يرهج بالأضواءِ السّاطعةِ، ومِنْ كلّ الزوايا تصدح أغنية لـ"كوكوش"، يجلس حولي رجالٌ بالبدلاتِ الرّسميّة، أدركتُ أنّهم بعضُ أصحابِ شركات المعدّات الميكانيكيّة المشاركين في المعرض الدّولي بطهرانِ، هنا يجلسون يتّفقون علَى تبادلِ الصّفقات والتّعاقداتِ والشّراكات،

كنتُ قدْ حظيتُ ببعضِ المالِ المُجزي نظير تصميمي لأحدِ الأجنحةِ في المعرضِ منْذ أيّامٍ، اخترنا طاولةً تطلّ علَى الشّارعِ وجلسنا، طلبا الطّعامَ لكنّي طلبتُ الآيس كريم.

شرعا يجترّان الذّكريات، وكانتْ "هند" سعيدةً، وشرح لنا "أصغر" كيف أنّه اختار مهنةَ التمثيل وأبقَى عليها رغم الصّعوبات التي واجهها في رحلتِه، فصارتْ تُدرّ عليه دخلًا معقولًا، لمْ أكنْ أحبّ الثرثرة مِنْ أجل إزجاءِ الوقتِ ليس أكثر بقصصٍ لا معنَى لها، استأذنتهما وأمسكتُ هاتفي أتّصل بالعميل لأطمئن علَى جودةِ التّصميم، أخبرني أنّ الجميع مبهورون بالتّصميم وعليّ أنْ أستعدّ لمزيدٍ مِنْ العَملِ، ولمْ أكد أضع الهاتف بحقيبتي حتّى اقترب منّي رجلٌ، بدا عليه الوقارُ، لاحظتني "هند" لكنّي أومأتُ برأسِي أطمئِنها، وقف علَى مبعدةِ خطوتين أو أكثر وهو يكلّمني بأدبٍ، استأذنني في الجلوسِ معه ليتّفق معي علَى تصميمٍ، وبدا خجولًا للغايةِ وهو يعتذر علَى سماعِه للمكالمةِ دون قصدٍ، وقال: "لفت انتباهي أنّكِ مصمّمة ديكور بارعة". ثمّ مدّ يدَه يُصافحني قائلًا: "سامحيني لمْ أعرّفكِ علَي نفسي، اسمي "سرابندي"، "مرتضَى سرابندي"، وهذا صديقي..".

وأشار إلَى رفيقِه علَى الطّاولةِ، فحيّانا بأنْ لوّح بيدِه في تعالٍ وبرودٍ.

عزيزي "إيوان":

هذا هو المفتَرق الذي اضطررتُ أنْ أنعطِف إليه.

(20)

9 كانون الثّاني- 2012

سجن إيفين- سعادات آباد- شمال غَرْب محافظة طهران

كان الدّم يخرجُ مِنْ بيْن ساقيّ لزجًا عطِنًا، يخرج فتخرج روحي معَه مزقةً مزقةً، يسحّ ولا أستطيع أنْ أوقفه.

إنّه موعدُ الدّورةِ الشّهريّةِ، موعدُ انسلاخِ بطانةِ الرّحمِ، ولا أحدَ ها هُنا كي يُعينني علَى تجاوز هذا النّزيف، لكنّها المرّة الأولى التي يُصيبني فيها مثْل هذا الوجع، ربّما ما أحدثته شرورُ أنفسِهم في جسدي اللّيلة الماضية كان سببًا في تمرّدِه، استباحوه حيث مُنتهَى التعسّفِ والعَبثِ، فأُبيح له أنْ يتجرّد مِنْ صمتِه، يطلع عَنْ جمودِه.

جسدي صامتٌ جامدٌ مُنْذ وُلدتُ، ومرابطٌ علَى التّعاليمِ والأعرافِ رغم الحِرمانِ، لمْ يشكُ ولو لمرّةٍ، لمْ يعرف معنى الشّوق، الملامسة، معنى أنْ يتقلّب بيْن يدي رجلٍ، لمْ يعرف الجموحَ، كانوا يقولون: "محرّمٌ علَى المرأةِ أنْ يمسسها بشرٌ إلّا مَنْ قدّره الله لها".

وما حدث بالأمسِ! هل هذا ما قدّره الله لي؟!

كم عددَ المرّاتِ التي استباحوا فيها جسدي، هنا، في هذا السّجن؟! تُرى ما مبلغ النّشوةِ التي يجدونها في تكرارِ الأمرِ مرّة بعْد مرّةٍ؟! كالمُطيةِ إذا استلذّوها ما ترجّلوا عنها!

ثوبي يتخضّب بالدّمِ، بطني تتشنّج، وجسمي يرتعش، والسّخونةُ

تزداد برأسِي، تطنّ أذناي، ولا يهدأ جريانُ الأفكارِ، تتلاحق كطرائدَ مِنْ ألمٍ يلاحقها اللّصوصُ وقطّاعُ الطّرقِ والسّفّاحون، يقولون إنّ أفكارَ الانتحارِ تُغري البناتِ في أوقاتِ دورتهنّ الشّهريّة وتراودهنّ، بالأخصّ البنات البِكر اللّواتي لمْ تتمزّق أغشيتهنّ بعْد، إنّ حلولَ الدّورةِ، وخاصةً في مثْل هذه الأوقات المختلّة، يغذّي الجانبَ المُظلمَ الخبيثَ مِنْ الرّوحِ، لكنّ روحي، بكلّ جوانبها، صارتْ مظلمةً، لكنّ غشائي تمزّق، أصبحَ نُدفًا، فأيُّ انتحارٍ أفكّر فيه ولو بالمجازِ؟!

تدور رأسِي في فراغٍ، وتفور أحشائي، وأودّ لو أضرب حجرًا في جمجمتي مِنْ شدّة العذابِ، كأنّني أولّدُ مِنْ داخلي جنينًا مِنْ سَخطٍ.

أُمسِك المديةَ المختَلسةَ، أفكّر في إيداعِها بداخلِ جسدي، إنّ جسدي غمدٌ موائمٌ تمامًا كي تهجع المُديةُ بمستقرٍّ، لكنّي كلّما أوشكتُ علَى اقترافِ النّهاية تراجعتُ، ألهذا الحدّ أخشَى مِنْ الموتِ؟

أرفس بقدميّ، أئنُّ، بلا جدوى، أقرص بأسناني علَى شفتيّ، أتوثّبُ أنْ أتحرّر مِنْ الألم، دونما طائلٍ، والرّائحةُ تنفذ إلَى صدري فيكاد يُغشَى عليّ، أتحسّس الدّمَ الذي اندلَق علَى البلاطِ، لمْ تكنْ هناك أقمشةٌ كافيةٌ لحبسِ الدّمِ القادمِ مِنْ داخلي.

أزفر زفرةً حارّةً، وتتراخى أطرافي تمامًا، كأنّي أنزفُ الحياةَ مِنْ داخلي، كم أنا بحاجةٍ إليكِ يا "شُعلة"! نحن لا نقدّر قيمةَ الأشياء إلّا حين نفقدها، ومعْ فقدي لكلّ شيءٍ، ورغبتي في الموتِ الآن، يصبح الموتُ عصيًّا، يقرّرونه هم، بحيث لا يكون لنا اختيارٌ، لا فيما نعيشه، ولا في كيف يكون الموتُ.

أضفّر، مِنْ شدّةِ الألمِ، شعرَ عانتي، كان متشابكًا، طويلًا، التصق

في بعضِه البعض بغراءِ الدّمِ، تجلّط بعضُ الدّم عليه، فبدا جافًّا، نتنًا، مخشوشنًا، هذا الشّعر الذي لا يُمكن للبنت أنْ تتخلّص منه إلّا قبْل زفافها بيومٍ، بيومٍ واحدٍ، يحرمونها حتّى مِنْ هذه المساحة مِنْ الألفةِ فيما بينها وبيْن ما يُستجدّ علَى جسدِها مِنْ تغيّرٍ، ما أغرب أجسادنا! تتحكّم فيها العادات والتّقاليد، يتحكّم فيها الرّجالُ، وأشباهُهم، وتتحكّم فيها السّلطةُ، تحييها وتُميتها وقتَ تشاء.

"بأمرِ الله"؛ قالتْ أمّي، "بأمرِ الله كلّ شيءٍ يجري إلَى قضاءٍ"، الله أمرَ الأرضَ ألّا تشرب الدّمَ، وكلُّ دمٍ مسفوكٍ هو عند الله أغلَى، كلُّ دمٍ سيتجسّد خطيئةً لا غُفرانَ لها أمامَ عينِ سافحِه يومَ العَرضِ.

سأنشغل عَنْ الألمِ بتدوينِ وجوه أحبّتي الذين غيّبهم الفراقُ، وباعدتْ بيننا القضبانُ، سأدوّنهم علَى الجدارِ، سأتذكّر وجوهَهم كأنّهم بالأمسِ القريبِ، وقتَ كنّا نمزَحُ دون قيدٍ، ونعاقرُ الأملَ كأنّه للأبدِ، سأرسم مَنْ ينتظرون عودتي إليهم، واحدًا واحدًا، أبي، أمّي، "إيوان"، صديقاتي، سأرسم بطلةَ ألواني، سأرسمني، سأرسم كلّ الوجوهِ بلونِ دمي، سأُسرّي عَنْ نَفسي باستدعاءِ الوجوهِ، سأملأ فراغات الجدرانِ بالدّم، ستكون فرحةٌ، سيكون شغفٌ مِنْ جديدٍ، سأنشغلُ، لنْ أسمح لنفسي بأنْ أنتبه لخطوات الحَرسِ القادمة، هؤلاء الذين سيمحون كلّ ما أتته يداي بأحذيتِهم، سيدوسون بأرجلِهم علَى الجدرانِ، سوف تعود الفراغاتُ إلَى الجدرانِ، فراغات بمقاسات أحذيتِهم، سيشوّهون البهجَةَ المُختلَقة، وسوف يصبح كلّ ما يُحيط بفراغات أحذيتِهم دمٌ، دمي يا الله.

قصّةٌ جديدةٌ يا "وداع"، الآن ستكون قصّةٌ جديدة.

لسَوف تتوقّع "وداع"؛ بطلة ألواني، البنتُ الحالمةُ، بينما لا

توجد أرجحيّةٌ للحُلمِ مِنْ الأساس، أنّ أباها –كعادتِه- سيدخُل إليها بالحلوَى، يُدرك أبوها أنّ الحلوى هي الحلُّ الأمثْلُ دومًا، الحلُّ لكلِّ يأسٍ يُمكن أنْ يتركه معدومو الضّميرِ والسّادةُ وأبناءُ الحرامِ فيما وراءِهم.

ستنتظره، ستنتظره وسيفوت ميعادُه، ستنتظره إلَى أنْ تصير عودتُه مجرّد أملٍ واهنٍ، لكنّه؛ وعنْد أواخر اللّيلِ، سيعود.

سوف تسمع "وداعُ" أصواتَ القصفِ في الخارجِ هناك، لكنّها ستُدرك أنّها آمنةٌ طالما يرجع أبوها وفي يديه حلواها، ولمّا يطَرق أبوها البّابَ، يطَرق علَى عجلٍ، وعلَى مصابٍ، ولمّا يدخل إليها، يدخل وعلَى يديه دماؤه.

كان عليها أنْ تعرف أنّ الحروب لا تؤمن بالحلوى ولا بالأحلامِ.

سيموت أبوها ذات غفلةٍ، إنّ الأحبّةَ يموتون دائمًا، يغادرون دائمًا، دون أنْ يلقوا السّلامَ، سيموت أبوها، ولنْ تنقطع الحلوى عَنْ حُلمِها.

بل ستموت هي الأخرى، ستموت "وداعٌ".

ستموت الآن، علَى يديّ، الدّماءُ حسمتْ الأمرَ.

سأمحوكِ يا "وداع" عَنْ جسمي، سأنتزعكِ ملمحًا ملمحًا.

بالمُديةِ أشوّهها.

بالمُديةِ أبدأ في استخلاصِ ملامحها عَنْ كتفي.

تتقاطر "وداع" دمًا، تُنزَف منّي، تفنَى، تعود لبدايتِها؛ مجرّد خيالٍ.

ستموت "وداع"، كما سأموتُ، كما سيموت كلّ شيءٍ، دون أنْ يودّعنَا.

(15)

27 حزيران- 2010

سجن شهر ري- عنبر «1»- ورامين- ضواحي محافظة طهران

داخل السّجنِ يتجوّل الشرُّ على إطلاقِه، وتتكشّف، رويدًا، نوايا الإثمِ التي لا يُمكن التكهّن بها.

نطوّع الألمَ معْ كلّ قهرٍ، ولا نهايةَ لمخاضِه، كأنّ الزّمنَ يدور بنا لننتهي إلَى اللّحظةِ نفسها، كلّ مرّةٍ.

في كلّ نوبةِ جنونٍ مدبّرةٍ، وقبْل أنْ نحاول ترميم أثرَ الجنونِ السّابق، يعاودونه، وما إنْ نغفو قليلًا، نستريح، نُغادر بالرّأسِ إلَى حيث الأماكنُ القديمةُ في الذّاكرةِ، حتّى يخرجون علينا بفكرةٍ جديدةٍ، ألمٍ آخر، كما لو أنّهم يسوقوننا داخلِ دائرةٍ مِنْ الأوجاعِ، تضيق علينا باتّساعِ ضلالِهم.

أخرجونا إلَى الفناءِ المسقّاةُ شروخُه بالدّمِ، قالتْ ضابطةٌ:

- قائدُ السّجنِ سيذهب إلَى صيدِ السّمكِ آخر النّهارِ.

لمْ نفهم، لكنّها دفعتنا أمامها واحدةً بعْد أخرى وهي تصيح مستنكرةً غباءنا:

- استخرجن ديدانَ الأرضِ!

توزّعنا بالفناءِ، كنّا مرهقات، لمْ ننم اللّيلةَ الماضيّةَ، ولا التي قبلها، لمْ نعُد نميّز الأوقاتَ الفاصلةَ ما بيْن الصّحو والنّومِ، بيْن الاتّزانِ والهذيانِ، إنْ أخرجونا أطعنا، وإنْ تركونا بالليالي دون شمسٍ ولا طعامٍ ولا ماءٍ استجبنا، سنموت في سجونِهم بطريقةٍ ما في النّهايةِ، سواء بحبلِ المشنقةِ أو بالمقصلةِ، أو حتّى إذا حُرمنا كلّ شيء، الموتُ هو المصيرُ لا رَيب.

الشّمس ملفوفةٌ بسحبٍ مِنْ ضبابٍ، لا بدّ إنّ أمّي جالسةٌ الآن علَى السّطحِ تتحدّث إلَى الدّجاجِ، ترعَى حمائمي، أو تداعب رأسَ "حارسٍ"، لكنّها لنْ تنقطع عَنْ الدّعاءِ، لنْ تجفّ دموعُها، ستظلّ تبكيني إلَى أنْ تنفرج الغمّةِ، إنّها تثق في الله للحدّ الذي تؤمن أنّ لو المقصلة علَى رقبتي سأنجو.

قلّبنا بأيدينا ترابَ الأرضِ، فردنا الطّرحَ التي نغطّي بها رؤوسنا لنلملم بداخلِها الدّيدانِ، لكنْ لا ديدانَ، كأنّ الدّمَ الذي تشبّعتْ به أرضُ الفنَاءِ دفعها للهربِ.

الشّجرةُ التي يعقدون عليها أحبالَ المشانقِ بدتْ ترتجف، شعرتُ بها تهتزّ وأحسستُ بها تبكي، تُفرِز منْ جِذعها لحاءً ولو علَى شُحٍّ، بعْد قليلٍ أوصدتْ الضّابطةُ بابَ الفَناءِ وتركتنا، وقبْل أنْ تغادر قالتْ: "اخلقن دودًا، تغوّطنْ دودًا، المهمّ حين أعود أجد الدّود، وإلّا غضب القائد، وأنتن تعرفن معنى أنْ يغضب القائدُ!".

ظللنا ننبش في الأرضِ، بلغَ الوَحلُ أكتافنَا، ثمّ هلّلتْ واحدةٌ: "دودة!".

تجمهرنا حولها، كانتْ دودةٌ خضراء تتولّى بيْن أصابعِها، لكنّها نظرتْ إلينا، ثمّ ابتلعتْ الدّودةَ، قالتْ: "بطني أولَى مِنْ بطنِ سمكةٍ".

سمعتُ قرقعةَ معدتها الخاوية، جلستْ وراحتْ في البكاءِ، جلسنا حولها.

- ما ذنبها الدّودة أحرمها مِنْ بيتِها؟! ما ذنب السّمكةِ أحرمها مِنْ الطّعامِ؟!

ربّتُ عليها، قلتُ:

- كلّنا محرومات مِنْ بيوتِنا ومِنْ الطّعامِ.

اتّسعتْ عيناها، صاحتْ:

- لكنّنا سنخرج، سنعود إلَى بيوتِنا، أليس كذلك؟!

طوّقتها أطمئنها:

- سنعود، أجل، مهما ضاقتْ السّجونُ علينا.

- قال لي المحامي في زيارتِه الأخيرة إنّي سأخرج، قبلتْ المحكمةُ استئنافي، لكنّي خائفةٌ.

- إنْ كان الأمرُ هكذا فلا داعيَ للخوفِ.

- أخاف لأنّي أعرف أنّي سأموت هنا، كلّنا سنموت هنا.

واندفعتْ تشهق، كنّا نحاول أنْ نرتّق أنفسَنا بالوهمِ، لا بديلَ، وبجانبِ الجدارِ جلستُ مسجونةٌ أرمينيّةٌ ترسم علَى التّرابِ بإصبعِها،

كانتْ ترسم عصفورًا علَى فرعِ شجرةٍ، استدارتْ نحونا وغمغمتْ:

- هل يستطيع هذا العصفور الطّيران؟!

ثمّ قبضتْ علّى التّراب وكشحته في الهواءِ وصاحتْ:

- وهكذا! هل يستطيع الطّيرانَ؟!

صاحتْ واحدةٌ:

- هذه الدّودة تستطيع الطّيران..

وألقتْ بها في الهواءِ.

كانتْ بطنُ الأرمينيّة تنتفخ، وفيما قليلٍ بدأتْ تزحف نحونا لا تكاد تتمالك نفسَها مِنْ شدّةِ الإعياءِ، رفعتها إحدانا علَى صدرِها، قامتْ بها وأراحتها جوارِ الشّجرةِ، لكنّ ظهرها تقوّس، وكبّت القيء مِنْ فمِها، جزعنا عليها، انتفضتْ إحدانا واتّجهتْ نحو الباب الحديديّ تخبطه بكفّيها، خبطات متتالية، فزِعة، لمْ يستجب لها أحدٌ، بدا الهلعُ في أعينِنا، لنْ نحتمل فقدانَ صاحبةٍ أخرَى، حاولنا قدرَ جهدِنا أنْ نُسعفها، بلا جدوَى، كانتْ عيناها قد أخذتا تتّسعان وتسحّ منهما دموعٌ، ظللنا نقلّبها، ننفخ في فمِها، ثمّ فجأةً ارتعدتْ، وشبّتْ تتطوّح مِنْ الألمِ، ودارتْ في أرجاءِ الفناءِ كممسوسةٍ، وخلعتْ ملابسَها، وتغوّطتْ فيما حولنا، ودعكتْ الغائطَ بقدميها، وتلوّتْ، وأنّتْ، وبدتْ عيناها محمّرتيْن، ورمتْ نفسَها علينا وهي تتقيّأ دمًا، ثمّ صرختْ، صرخةً طويلةً حادّةً، كأنّ منجلًا يحشّ روحَها.

في اللّحظةِ التي دخلتْ إلينا الضّابطةُ كانتْ صاحبتُنا الأرمينيّة

قد أسلمَت الرّوح، كنّا قدْ تحلّقنا حولها مذهولاتٍ، ماتتْ دون أنْ نعرِف أهو الجوعُ أم العطشُ أم مرضٌ فتَك بها ذات ضعفٍ؟! دنتْ منّا الضّابطةُ وتيقّنتْ مِنْ موتِ صاحبتِنا، قالتْ بلهجةِ تهكّمٍ:

- الشّكر لله، قَضت دون أنْ تكلّفنا رصاصةً.

لمْ يحرّك موتُها شعرةَ أحدٍ منهم، بلْ أجبرونا أنْ نحفر لها حفرةً في الأرضِ، كنّا نحفر منْذ قليلٍ لاستخراجِ الدّود، نسَوا أمرَ الدّودِ وتلهّوا بصاحبتِنا وموتِها العبثيّ المُباغِت، والآن، سيجد دودُ الأرضِ طعامًا وفيرًا، حيث يُمكن لنا أنْ نستخرجه بعْد أيّامٍ وقتَ أنْ يكون شبع ونما وترعرع.

أهكذا يكون الموتُ جزافيًّا مرّة بعْد مرّةٍ؟!

"ما أغرب القوانين المبهمة التي تحكم مصائرَ النّاسِ في هذا العالم! يموتون هكذا، بلا سببٍ!"؛ قالتْ أمّي مِنْ قبْل.

(1)

18 تموز- 1998

السّفحِ الغربي- منتجعُ توجال- شميرانات- شمال شرق محافظة طهران

باستثناءِ حالاتٍ شحيحةٍ، لمْ يكنْ أبي يدخّر المال، كانتْ الحياةُ تمضي به اليوم بيومِه، وكلّما دفعَ اليومُ نفسَه لصباحٍ جديدٍ استراحَ، وقال:

- مرّ اليومُ بسترِ الله.

فيما كانتْ أمّي تحرِص علَى تدبير جميع الاحتياجات؛ حتّى احتياجات الرّفاهةِ النّادرةِ، كأنْ نختلس عدّةَ أيّامٍ كلّ بضعةِ أعوامٍ متقطّعةٍ للتنفيسِ عَنْ شقائِنا، نروّح أنفسَنا بالذّهابِ إلَى شاطئ الخليج العربي مرّة، أو جزيرة "كيش"، علَى الرّغمِ مِنْ مشقّةِ السّفرِ برًّا.

في هذا العام لمْ يتوفّر مبلغٌ كبيرٌ، لكنّ أمّي أصرّتْ أنْ تفسّحنا، في البدايةِ رفض أبي، وقال لها:

- لا داعيَ للتبذير.

لكنّها ظلّتْ تحاول إقناعَه أنْ نسافر ولو ليومٍ واحدٍ، واقترحتْ عليه منتجع "توجال"، فوافق علَى غيرِ اقتناعٍ.

بعْد الفجرِ تجهّزنا، ارتدينا المعاطفَ الثّقيلةَ واتّفقنا مَعْ سائقٍ نعرفه أنْ يرافقنا وعلَى أُجرةٍ معقولةٍ.

لمْ تكنْ الشّوارعُ مزدحمةً، واستطعنا أنْ ننجو قبْل هجومِ الزّحامِ، قاد بنا إلَى الشّمالِ، استغرقنا ساعةً أو أقلّ قبْل أنْ نترجّل مِنْ السّيّارةِ عنْد السّفحِ الصّاعدِ إلَى المنتجَع.

كان "توجال" يتكوّن مِنْ ثلاثةِ منتجعاتٍ منفصلةٍ، منتجع القمّةِ والسّفحِ الغربي والمحطّة السّابعةِ إلَى الخامسةِ، تخيّرنا أرخصَها؛ منتجعَ السّفحِ الغربي، كانتْ الثّلوج كثيفةً متماسكةً، ترغّب السّائحين في تسلّق الجبلِ.

قادنا فردُ أمنٍ إلَى محطّةٍ شاغرةٍ مِنْ محطّات التّلفريكِ الخَمس، كان أبي قدْ أقسم علَى السّائقِ أنْ يرافقنا، تشدّد الرّجلُ رفضًا، قال:

- أنا أخشَى المرتفعات.

غير أنّ أبي ألزمَه بالقسمِ، دكّته أمّي علَى انفرادٍ وقالتْ:

- أنت تُقسِم بالمجّان، خفّف، الله لا يلعب معك.

فلعق شفتيه وولّى بصرَه عنها مهمهمًا:

- لا تهوّلي الأمر!

- ماذا أنتظر مِنْ رجل يحتسي الخمر كأنّه يحتسي الدّواء!

لمْ يردّ عليها، تلهّى ببصرِه بعيدًا.

طاف بنا التّلفريك الفضاءات بيْن سلسلةِ جبال "ألبرز"، استطعتُ أنْ أرى طهران، ولأوّل مرّةٍ، مِنْ علَى ارتفاعٍ مواتٍ للسّماحِ لي بتأمّلها، كانتْ مبانيها شاهقةً ومخضرّة في معظمِ مساحاتِها، فبدتْ كلوحةٍ مرسومةٍ بإتقانٍ، وصعَد بنا التّلفريك إلَى حيث ساحةُ التزلّجِ في أعالي الجبلِ، والتي كان روّادُها أغلبهم مِنْ السّائحين، وكانتْ الثّلوج؛ رغم سطوعِ الشّمسِ هذا النّهار، صامدةً ضدّ الذّوبانِ.

في رحلةِ التّلفريك؛ بدا سائقُنا مفزوعًا، وظلّ متشبّثًا بذراعِ أبي، تندّر عليه أبي، وأطلَق النّكاتَ، وحاول تهدئته باستعراضِ ثقافتِه السّياسيّة، كعادتِه، وكون سائقنا سنيًّا، لمْ يجد أبي مانعًا مِنْ إعلانِ سخطِه علَى المصالحات المُزعمة بيْن اليَمن وإيرانِ، وقال:

- اليّمن! الذين ساندوا العراق في حربهم ضدّنا؟!

لكنّ سائقنا كان أكثر حكمةً، ردّ عليه:

- إنّ نظام إيران يصدّر الثّورةَ الإسلاميّة، اصبر وستجد الشّيعةَ يفتِكون باليّمنِ عمّا قريبٍ.

- اتّفاقيّات وهميّة ثقافيّة وتعليميّة! علَى مَن ينطلي مثّل هذا الادّعاء؟!

- إنّه تغلغل شيعيّ، محاولة إيجاد قنواتٍ للحوارِ مع الحلفاءِ هناك مِنْ الحوثيين وغيرهم.

ثمّ أمسك السّائق صدرَه مُرهقًا، وسَعل، وقال:

- الحروب قريبة، وما أبعْد السّلام!

إنّما لمّا بلغنا ساحةَ التزلّج، تراختْ أطراف السّائق، هزّه أبي، لمْ يستجبْ، جزعتْ أمّي، صاحت:

- أكان لا بدّ أنْ تُقسِم عليه؟!

لكنّ أبي همهم بغيرِ اتّزانٍ:

- فقدنا سبيلَ العودةِ.

هبطنا وقضينا اليومَ في المخفرِ الشّرطيّ المُلحق بالمُنتجعِ، حقّقوا معنا، ولمّا أورَد الطّبيبُ الشّرعيُّ تقريرَه واطمئنوا أنّ الوفاةَ كان سببها هبوطٌ في الدّورةِ الدّمويّة أفرجوا عنّا، بعْد أنْ أبلغَوا أهلَ السّائقِ بالوفاةِ، وحضَروا في غضونِ ساعةٍ.

كان أبي شديدَ الحَرجِ أمام أهليّة السّائقِ الذي تمّ استدعاؤهم لتسلُّمِ جثمانِه والسّيارة، بدوا أنهم قد انكسروا، كان أطفالُه صغارًا، وبدت امرأته غير قادرةٍ علَى مواجهةِ حقيقة أنّه مات بهذا الشّكل العبثيّ، لكنّهم في النّهايةِ شكروا أبي علَى انتظارِه لتسليمهم الجثمانِ بنفسِه.

لمْ أفهم كيف يشكرونه بمثْل هذا الامتنان! وظلّتْ أمّي تتابعهم بعينيها في عطفٍ، ولمْ تنقطع عَنْ البكاءِ ولو أنّها لا تعرف الرّجلَ لهذه الدّرجة، لكنّ أبي قال لهم في أسفٍ يفسّر الأمرَ:

- قضاء الله، عليه الرّحمةُ وله الغفرانُ.

واستدرك:

- أين ستدفنونه؟

ردّتْ زوجته:

- مقابر "بهشت زهرا".

ركبنا في أوّل مواصلةٍ أُتيحتْ، لمْ تخاطب أمّي أبي، ظلّتْ شاردةً عابسةً وأبعَدتْ عنه وجهَها، كأنّها؛ لقسمِه، تحمّله مسئوليةَ موتِ الرّجلِ، وسمعتُها تدمدم: "ما ذنب أولاده يا ربّي؟!". وأخرجتْ المسبحةَ، وسبّحتْ، وتلتْ القرآن، وصلّتْ.

همهم أبي وهو يتجنّب النّظرَ إليها:

- هل كان بوسعِنا فعل شيء؟!

لمْ تردّ عليه، أكمل:

- إنّه الموتُ يا "شعلة" الذي لا حيلةَ للبشرِ أمامه!

لكنّها حدجته بنظرةٍ لائمةٍ:

- الموتُ الذي استهنت به؟!

ثمّ قالتْ بنبرةٍ مستطلعةٍ:

- هل ستشاركهم الدّفن؟

أومأ برأسِه مُحتاطًا:

- سنذهب جميعًا إلَى المقبرةِ.

علَى بابِ البيتِ أخرجتْ أمّي المفتاحَ، كانتْ يداها ترتعشان، والهواء محمّلٌ بالدّخانِ والاختناقِ، زفرتْ زفرتين، فتناول أبي المفتاحَ

مِنْ يدِها، أمسكتْ صدرَها، ارتمتْ علَى مقعدٍ ملاصقٍ للبابِ، وانطلقتْ تنتحب، حسبها أنّ اليومَ تبدّل مِنْ فسحةٍ إلَى جنازةٍ.

رفعتْ بصرَها نحوي تحاول أنْ تتمتم، خرج الكلامُ مقتضبًا مهزوزًا: "ما أغرب القوانين المبهمة التي تحكم مصائرَ النّاسِ في هذا العالم! يموتون هكذا، بلا سببٍ!". لكنّها صمتتْ بعْدها، حدّقتْ فيّ طويلًا دون أنْ تنبس، أمسكتها مِنْ ذراعِها، قلتُ:

- أمّي، انهضي.

وقفتْ بالكادِ، اتّكأتْ عليّ واتّجهنا إلَى غرفتِها، خرَج أبي مثْل عادتِه إلَى الشّرفةِ وأغلق عليه، لعلّه شعورُ النّدمِ، أرحتُ أمّي علَى السّريرِ، وفي غضونِ لحظاتٍ جهّزتُ لها طبقًا مِنْ الأرزِ وطبقًا مِنْ حساءِ الدّجاجِ، ابتسمتُ وأنا أجلس جوارها علَى السّريرِ:

- سامحيني أكلتْ اللّحمَ.

ابتسمتْ بدورِها:

- إذا أكلتِ شبعتُ.

بعْد نحوِ ساعتيْن، أسدلتْ أمّي عليها شادورًا أسود، وتحرّكنا إلَى حيث مقابر "بهشت زهرا"، قطعنَا الطّريق السّريعةَ التي تفصِل بين مدينتِنا بجنوب طهران ومدينةِ قم التي اشتُهرتْ بالمدارسِ الإسلاميّةِ، فهناك يعلّمون الطّلابَ الفِقه والشّريعةَ وأصول اللّغةِ الفارسيّةِ وعلومَ الاجتهادِ.

انسلّتْ السّيارةُ في ظُلمةِ الطّريق التي تشقّ الصّحراءَ المترامية فيما

حولها، كان أبي يعرف أنّهم لمْ يدفنونه بعْد، استغرقوا وقتًا في تجهيز الكفنِ والصّلاةِ عليه، ولمّا تحرّكوا إلَى المقابرِ هاتفوه، ولمْ نكد نلجُ إلَى بوّابةِ المقابرِ حتّى وجدنا أعدادًا غفيرةً مِنْ النّاسِ، يتباكون علَى الرّجلِ لموتِ الغفلةِ.

عرّجنا بين الشّواهدِ المتناثرةِ -المفروش عليها ورود الأقحوانِ الحمراءِ- والشّجيراتِ التي تحاوطها، وقدّمنا العزاءَ لأسرتِه، لكنّ أمّي سحبتني مِنْ يدي ووقفنا حيث تقف النّساءُ كغيمةٍ سوداءٍ، انطلق حولي الصُّراخُ والعويل، وبدتْ رائحةُ العَرقِ كبستْ علَى أنفاسِي، تحرّكتُ قليلًا أستنشق بعضَ الهواءِ، وجلستُ علَى مقربةٍ فوق الحَصى أراقبُ شيخًا عجوزًا يهذّب القبورَ، ينظّف القبرَ بالماءِ ثمّ يجفّفه، وينتقل إلَى قبرٍ آخر، استدار لي مبتسمًا، لكنّه لوّح لي بيدِه يُصرفني، ركضتُ باتّجاهِ أمّي، وكان الدّفنُ قد انتهَى، فشدّتْ علَى يدي وسرنا مَعْ النّساءِ إلَى خارجِ المقابرِ، لمحتُ دموعَها، تحيّرتُ: لماذا تبكي غريبًا؟

رجعتُ أمّي مِنْ الجنازةِ وزفرتْ زفرةً طويلةً أمام بابِ البيتِ، تقدّمها أبي وأخرج المفتاحَ ودخل وترك البابَ مفتوحًا، دون أنْ ينظر إلينا.

بدا للموتِ أثرُه علَى أمّي، كانتْ، دومًا، تعرف أنّ الموتَ لا يفرّقنا عَنْ الأحبّة، نحن سنجتمع في يومٍ آخر، إنّه فقط يشوّقنا إليهم، ويُبطّط قلوبنا مِنْ بعْدِهم، لمْ تكنْ لها صلةٌ وثيقةٌ بالسّائقِ، إنّما لعلّها استحضرت، بموتِه، ذكرياتَها، ذكريات فَقد الأحبّةِ القُدامَى، الأب، الأم، الإخوة، وربّما تذكّرتْ، أيضًا، رحيلَ رِفاق القلبِ الذين غيّبتهم ظلالُ الحياةِ. تساءلتُ: "هل اجتمع قلبُ أمّي علَى عشقٍ

قبْل زواجِها مِنْ أبي؟ هل يُمكن لها أنْ تخون الأعراف والتعاليم؟ لا، لمْ تكنْ أمّي هكذا، لكن، وإنّ جرَى عليها ما يجري علَى القلوبِ، هل ما زالتْ تتذكّرهم؟".

طبّقتْ ذراعيها علَى رأسِها، قالتْ:

- أوف، أشعر بالدّوارِ، ما أطوَل هذا اليوم!

تنهّدتْ، خلعتْ الشّادورَ، طرحتْ نعليها مِنْ قدميها، كان بوسعِها، وهي المرأةُ التي دامتْ تعلّمنا الصّبرَ، أنْ تنسَى أحداث هذا اليوم، في لحظةٍ، لكنّي لمْ أعهد مشاعرَ الحزنِ هائجةً لديها هكذا إلّا في أندرِ اللّحظاتِ، لعلّها ترَى الموتَ منبسطًا أمام عينيها.

تقدّمتْ نحو غرفتِها، استدارت لي:

- تعالي حبيبتي.

ألقتْ بجسدِها علَى السّريرِ، علّقتْ عينيها بالسّقفِ الذي تتدلّى منه نجفةٌ، أفسحتْ لي وأشارتْ بيدِها، جلستُ جوارَها، غمغمتْ:

- أعرف أنّكِ تتساءلين عَنْ حُزني المفاجئ.

هززتُ رأسِي.

- أنا حزينةٌ علَى نفسِي، قدْ لا تفهمين اليومَ معنَى أنْ يضيع العمرُ في الشّقاءِ بلا طائلٍ، أحبّ أباكِ حبًّا عظيمًا، لكن..

وطلّتْ نحوي بعينيها:

- هل أحبّتني الحياةُ مثلما أحببتُ كلّ شيءٍ؟!

ونامتْ، رقدتُ جوارها، ظلّ أبي في شرفتِه، لمْ يخرج، لمْ يطلب شيئًا، كعادتِه، كان الطّعامُ في الثّلاجةِ لا يحتاج إلّا للتّسخينِ، لكنّه لمْ يمسسه، ضممتُ أمّي إليّ وغفوتُ.

صحوتُ علَى رائحةِ البّخورِ في الصّباحِ التّالي، ظهرتْ علّى أمّي سعادةٌ لمْ أحسبها، عيناها تلمعان وهي تطوّف الغرفات تبخّرها، سألتُها عَنْ هذا التبدّل المفاجئ، قالتْ:

- علَى كلّ الأحوالِ حبيبتي لنْ يشعر بحزنِ الأمسِ أحدٌ.

(5)

14 كانون الثّاني- 2007

جنوب محافظة طهران

عزيزي «إيوان»:

في الحقيقةِ لا أعرف كيف يُمكن أنْ أصف شعوري؟ ربّما أحتاج إلَى ابتكارِ وصفٍ جديدٍ، إذا قلتُ اشتقتُكَ فلعلّي لا أمنحَ للأمرِ حضورَه، إذا قلتُ أحتاج إلَى رؤيتِكَ فأنا أخادع نفسِي، حيث أراك وأشعر بك بلْ كأنّكَ لستُ بعيدًا عَنْ مرمَى البصرِ، إنْ وضّبتُ أوراقِي رأيتُكَ، إنْ خرجتُ إلَى الجامعةِ جلستُ إلَى طيفِكَ، إنْ نادتْ عليّ أمّي أكاد أهتف باسمِكَ.

الآن أنا علَى يقينٍ مِنْ أنّك أكثر أهلِ الأرضِ قربًا لي، ما بيننا يتحدّى منطق البشرِ، بكَ مُنحتُ قوّةً لمْ يمنحها لي طموحي ولمْ أُمنَح مثلها في حياتِي، إنّ وجودكَ أشبه بالمُعجزةِ، كآيةٍ سماويّةٍ أُنزِلتْ عليّ، أريدُ أنْ أتدفّق إلَى رأسِكَ مثْل حُلمٍ وديعٍ، أشاطرك كلّ الوجعِ، كلّ الحُزنِ، أدوم بداخلِكَ تهدّجًا لا ينقطع، كأنّي أصل بكَ، وتتّصل بالغيبِ عَنْ طريقي.

"إيوان"، قرّرتُ، هذا العام، أنْ أسافر إليك، بطريقةٍ ما، وليحدث ما يحدث، طالما أنّ ظروفك لا تسمح بالمجيء، سأخترع حجّةً مناسبةً لا يعترض عليها أحدٌ، سأحمل نفسِي في الطّائرةِ، وأحلّق إليكَ، لمْ أركب طائرةً مِنْ قبْل، لمْ أبتعد مقدارَ محافظةٍ مجاورةٍ،

ستكون أنتَ وسيلتي لتجربةِ العالمِ مِنْ جديدٍ.

فيّ شغفٌ وجنوحٌ وتوقٌ إليكَ، لكنّي أخشَى أنْ أفقد هذا العزمِ لأيّ طارئٍ، إنّ الحياةَ هكذا دومًا، كلّما وُفقنا هُدى صادفتنا بانعطافٍ مباغتٍ، لعلّي أخشَى أنْ أستيقظ مِنكَ، كلّ اللّحظات اللّامعةِ في حياتي محض أحلامٍ، محض رسائلَ جزافيّةٍ، كنتُ أكتبُ وحدي، فاكتشفتُكَ، تشبهني، أنتَ أيضًا تخاطبَ فراغَ العالمِ.

"إيوان"، كنتُ طفلةً ككلّ الأطفالِ، الفرق بيننا أنّ رأسِي كانتْ عامرةً بالخيالاتِ، كنتُ ألملم قصاصات المشاهدِ العابرةِ وأصنع منها خيالًا بمعنَى الحكايةِ، بأصلِها وثباتِها، أعاقر الفوضى أينما كنتُ، إنّ الفوضى في النّهايةِ هي وقود الخيال يا "إيوان"، الفوضى التي تكسو الشّوارعَ في الخارج هي التي تصنع لأوراقِي احتمالًا للخلودِ، أعثر علَى الملامحِ الهاربةِ وأمنحها حضورًا، هنا يا "إيوان" قُيّدتُ بالسّطحِ، ليستْ لي أجنحة لأطير، ليس لي إلّا الخيال، محبوسة بيْن حدودٍ تلازمني، لكنّي رغم كلّ شيءٍ أجنّب الرّاهنَ وأستدعي القادم، حتّى لو لمْ أكنْ أعرف مصادفاته، عبر أوراقِي أتمشّى، أسرّي عَنْ نفسِي، أجتاز الحدودَ والمسافات وأستقرّ علَى أوّل خيالٍ مُكتملٍ، ثمّ كانتْ رسائلُنا، إنّها مبلَغ الخيالِ، وقدْ بُعثِتُ، مِنْ بيْن رسائلِنا، روحًا لا ينطفئ بريقُها.

انتظرني يا "إيوان"، لا أحتمل أكثر.

جميلتي "ريحانة":

ظننتُ أنّ قلبي نُهش بمخالبِ الحُزنِ، وجروحُه لن تلتئم، كنتُ مخطئًا، ها هو قلبي يعود إليّ مِنْ جديدٍ، كأنّه ينبعث مِنْ رمادٍ، أمّي

نفسها، ولو علَى غير إبصارٍ، أحسّتْ بتبدّل حالي، بالأمسِ أخبرتها، تهلّل وجهُها، راحتْ ترتّل القرآن، كان صوتُها رخيمًا، أعادتْ عليّ كلّ ما نسيته مِنْ سورٍ قصارٍ، وفي أعقابِ كلّ سورةٍ تدعو لي وتبتهل، أجل "ريحانة"، الإيقاعات التي نشزتْ تستقيم ثانيةً، تصبح لحنًا سماويًّا، حكاياتنا التي كانتْ تجمعني وأمّي عَنْ الأمواتِ جمعتنا عليكِ بالأمسِ، كان الأحبّةُ قدْ غابوا في موتٍ، وكنّا نلتمس الدّفء ولمْ نستطِع، كان الحزنُ يقعقع في دواخلِنا كأنّه دوّي معركةٍ لمْ يهدأ أوارُها، عبر السّنوات الماضية لمْ نسترِح، أصبح الفقدُ إحساسًا مضافًا إلَى أعبائِنا، يبطش بنا، نتلظّى بنارِه، لولا أنّكِ جئتِ.

سأنتظركِ تعالي، ستجدينني في المطارِ، بمجرّد نزولكِ مِنْ الطّائرةِ ستجدينني واقفًا كتشريفةٍ، سأقف بدءًا مِنْ اليوم أراقب الطّائرات القادمة.

سأنتظركِ، اليوم، غدًا، أو بعْد انقضاءِ العُمرِ، كيف لا أنتظرك وقدْ انتظرتك بالفعل طيلة حياتي؟ تعالي كي يُمكن لأمّي أنْ تستعيد البصرَ، مؤكّد ستفعل، ألا يزعمون أنّ الحبَّ يُعيد المفقودات؟

(26)

25 تشرين الأوّل- 2014

سجن كوهردِشت- مدينة كَراج- غَرْب محافظة طهران

غرفةُ الإعدامِ أمامَ بصرِي يا "شُعلة"، واللّجنةُ التي ستباشر تنفيذ الحُكم يُحيطون بي كسوارٍ، تخيّلي حضَر المدّعي العام بنفسِه ليشهَد موتي!

- "ريحانة جبّاري ملايري.."..

أهزّ رأسِي، يبدأ رئيس اللّجنةِ في تلاوةِ الحُكمِ الصّادرِ ضدّي، أُغمِض عينيّ، يستغرِق، وأستغرِقُ في التذكّرِ، يُغلِقون باب الغرفةِ ويُشعِلون مصباحًا واهنًا، كأنّ الأمرَ إذا جرى برقصِ الظّلالِ الشّاحبةِ علّى ضوءٍ شحيحٍ سيجري علَى أتمّه، أجل؛ فيما قليل، سأصبح ظلّا علَى جدارٍ، ظلًّا لنْ يتوقّف رقصُه ولو أهرِق دمُ صاحبِه.

يطمئنون لمتانةِ الحبلِ العريضِ المجدولِ بإحكامٍ، يجهّزون الأسطوانة الخشبيّةَ المجوّفةَ مِنْ منتصِفها؛ التي سأقف عليها فيما قليلٍ، وسيتدلّى منها جسدي نحو الفَراغِ، ثمّ سيذهبون كلٌّ إلى حيث سيتلهَى بالنّسيانِ، لن تعلق بأسماعِهم أصواتُ طقطقةِ رقبتي، ولا نظرةُ الفَزعِ التي لا بدّ ستطلّ مِنْ عينيّ ولو علَى استحياءٍ، بل إمعانًا في تجاهلِ كلّ ما يخصّ موتي سيضعون على رأسِي غطاءً أسودَ، وسيستديرون عنّي كي لا يُفسِد نقاءَ أعينِهم مشهدي وأنا أتأرجح مثْل

عصفورةٍ تدلّتْ مِنْ خيطِ مهيضةَ الجناحين، فإذا جاءَ الموتُ خرج بي مِنْ بينِهم كأنّي لم أكنْ يومًا، آه يا "شُعلة"، قلتِ لي إنّ تجربةَ الموتِ تظلّ تجربةً مجهولةً، لم يعُد ميّتٌ مِنْ قبلِ ليحكي لنا عنها، أجل علينا أنْ نجرّبها واحدًا واحدًا وفقًا لساعتِنا المُقدّرةِ، فهل عليّ أنْ أجرّبها وفقًا لساعةِ كلّ مَنْ كُتبَ عليه الشّقاءُ؟

يُفسِحون لأحدِ أئمةِ السّنةِ المُعيّنين مِنْ السُّلطةِ، يرفل في عباءةٍ سوداءٍ وعلَى رأسِه عمامةٌ بيضاء، كأنّه رسولُ الموتِ، يبتسمُ لي كأنّه يطمئنّ لأثرِ حضورِه علَى وجهي، كيف أطمئنُ وأنتَ واحدٌ ممّن يكتبون التّقاريرَ إليهم وحين يفرغون ينامون بلا إثمٍ؟ تسلّموننا للموتِ كأنّنا جزءٌ مِنْ أوراقِكم التي ترفعونها إلَى السّلطاتِ المعنيّةِ!

يتركنا الحَرسُ ويقفون عِنْد الجانبِ المُظلمِ مِنْ الغُرفةِ، فيبدون كجنودِ الموتِ الذين ينتظرون علَى عجلٍ إتمامَ المَهمّةِ، أخرَج الإمامُ مصحفًا مِنْ جيبِ عباءتِه ووضعه علَى جبهتي وتلا الفاتحةَ، ثمّ أجلسني أمامه، وقال:

- هل تُبتِ عَنْ الذّنبِ يا "ريحانة"؟ هل أنتِ مستعدّة للقاءِ خالقكِ؟

- أيُّ ذنبٍ سيّدي؟!

- القتل يا ابنتي، القتل خطيئةٌ.

- والعارُ أيضًا.

- لكنّه شرعُ الله، مَنْ قتَل يُقتَل، أنتِ مُسلمةٌ وتعرفين، القَصاصُ

ضرورةٌ شرعيّةٌ للرّدعِ لكي تستقيم الحياةُ.

- إنّه شرعُ القضاةِ سيّدي، أنا مَنْ كنتُ أدافع عَنْ شرعِ الله، عَنْ جسدي الذي هو أمانتُه، أو ليست أجسادُنا أمانةً؟

- أجل يا "ريحانة"، لكنّه القصَاص العادل، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى".

- "فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ".

- "مَنْ قتَل نفسًا بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنّما قتَلَ النّاسَ جميعًا".

- كيف تضمن أنّه بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ سيّدي؟

- إنّه قولُ اللهِ!

- قال الله أيضًا: "ومَنْ أحياها فكأنّما أحيا النّاسَ جميعًا."

- أتُحاجّينني فيما شرّعه الله وفيما لا تعلمين؟! أهذه توبتُكِ؟!

- أنا مُستهلكةٌ سيّدي ولمْ تعُد لديّ طاقةٌ، لا لردّ الأذى عنّي ولا للجدلِ الذي لا جدوى منه، فلتُنهِ ما جئت لأجلِه.

- ما هذا الجحودُ قبالة الموتِ؟ عمومًا، هل لكِ رغبةٌ أو طلبٌ، أمنيةٌ، قبْل أنْ تودَع روحكِ لبارئِها؟

- نعم، أنْ يؤمن العالمُ ببراءتي.

تنهّد وهزّ رأسَه، رجّح أنّي أجادلُه علَى غيرِ تسليمٍ بالمقدّر، تمتم:

- هيّا شهّدي.

- أشهد أنّ لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله.

وضع كفّه علَى رأسِي وأردف علَى مضضٍ:

- في الجنّةِ إن شاء الله يا "ريحانة"، في الجنّةِ.

نفدتْ الخياراتُ يا "شُعلة"، إنّ العدالةَ في بلادِنا لمْ تعُد عمياء، بل لها ألفُ عينٍ، ألفُ بصّاصٍ، وكلُّ عينٍ تَرى وِفق هواها، وكلُّ هوى فاسدٌ، كيف للهوَى أنْ يقرّر المصائرَ؟

كنتِ هناك، في المحكمةِ، هل تُذكرين يا "شُعلة"؟ قاضي المحكمةِ العُليَا حوّل الأمرَ إلَى معركةٍ شخصيّة؟ سألني علَى الملأ:

- لماذا قتلتِه؟

- دفاعًا عَنْ الشّرفِ.

- ذلك ليس مبرّرًا!

صفعني باستهتارِه بشرفي، قلتُ له وأنا مُرهقةٌ وعاجزةٌ:

- لأنّك بلا شرفٍ.

هذه جريمتي، هذا كلُّ ما في الأمرِ، نعم أراهم بلا شرفٍ، ألا يَرون أنفسَهم هكذا؟ أتوجِعُهُم الحقيقةُ؟ أيُعقَل أنّ كلمةً هوجاء طائشةً

قيلتْ في ظلِّ يأسٍ تُلقي بصاحبِها إلَى الموتِ، هكذا، بلا حساباتٍ؟ هل كان تأدبّي في الحديثِ إلَى المَحكمةِ سيغيّر مِنْ واقعِ هلاكي شيئًا؟ فيمَ أخطأتُ؟ هل خالفتُ درسَكِ عندما كنتِ تقولين: "إنّ الشّجاعةَ بلا حذرٍ كالحصانِ الأعمَى تُهلِك صاحبَها؟ وأنتِ يا "ريحانة" لا تبذلين جهدًا في جعلِ الآخرين يُسيئون فهمكِ".

طيّب، ها هُم أساءوا فهمي فدبغوا مصيري بالموتِ.

العزيزة "شعلة"؛ رسالتي يعجز عَنْ احتوائِها الكلامُ، لا أريدكِ أنْ تعرفي عنْ موتي إلّا أنّه حدث وكفَى، حيث إنّ الأثرَ قدْ تركتُه لكِ مكتوبًا، إنّه إرثي الذي يجب أنْ تضمني بقاءَه مِنْ بعْدي يا "شُعلة".

ها قدْ جهّزوا كلّ شيءٍ، زيّتوا الذّراعَ الحديديّة وجرّبوها مرّةً واثنتيْن، ووقف المُعيّنُ عليها ينتظر.

متّنوا باطنَ الأسطوانةِ الخشبيّةِ بمزيدٍ مِنْ المسامير والغراءِ، ومِنْ الخارجِ كان الإمامُ يقرأ القرآنَ، وبُحَ صوتُه، وتنغّم، وبدا يؤهّلني للنّعيمِ القادمِ، ووقفتْ ضابطتان عَنْ يميني وعَنْ يساري.

كان وجهي مستورًا بالسّوادِ، لمْ أكنْ أرى إلّا سديم الذّكريات الذي أخذ يضوّي، وسمعتُ دقّات السّاعةِ، دقّة بقلبي، دقّة بروحي، دقّات تتناقص بتناقصِ لحظاتي بالحياةِ، وتقدّمتُ مع الضّابطتيْن إلَى حيث وقوفٌ تامٌّ دون خطوةٍ أخرَى.

- نفّذ.

"شُعلة"، أعرف أنّكِ ستموتين ألف مرّةٍ في اللّحظةِ التي يشدّون

فيها الذّراعَ، إنّما تماسكي، أريدكِ أنْ تصغري للقدرِ، أنْ توقني أنّي معكِ، لنْ أغيب، لا يغيب مَنْ لهم في القلوبِ حكايات حبيبتي.

كنتِ تشدّدين على سلوكي في ممارسةِ الحياةِ، إذا ذهبتُ إلى المدرسةِ عليّ أنْ أكون بنتًا واعيةً متفهّمةً لا أدخِل في شجارٍ لستُ طرفًا فيه ولا أشكو مِنْ شيءٍ ضرَّ غيري، أنْ أكون إيجابيّةً تجاه الحياةِ، ودودةً، أُحسِن الظّنَ بالجميعِ حتّى يتكشّف السّوءُ.

إنّ تعاليمَكِ هذه لمْ تدعمني ولمْ تساعدني حين وقفتُ أمام قاضي المحكمةِ العُليا، سامحيني حبيبتي، لقْد تلا حيثيات حكمِه، فغاض فؤادي، وقدْ كنتُ واثقةً في القانون، في براءتي، لذا، لمْ أتوسّل الصّفحَ، لمْ أذرف دمعةً، سألني: "هل تركبين الدّراجات؟"، أجبته: "ألا تركب أنت الدّراجات؟".

اتّهمني بتسفيه المحكمةِ وعدم احترامِها، والتّقليل مِنْ بشاعةِ الجُرمِ، وأنّ الدّمَ المسفوحَ لمْ يُشعرني بأيِّ ذنبٍ! أنتِ تَذْكُرين أنّي كنتُ أخاف حتّى مِنْ قتلِ البَعوضِ، حتّى الصّراصير التي كان يُصادف أنْ أعثر عليها، كنتُ أُلقي بها بعيدًا وأتركِ تقتلينها، تعرفين أنّي كنتُ أسقط أرضًا عنْد رؤيتي للدّم.

سأل الشّهودَ؛ الذين لا أعرفهم، لمْ تكنْ لي بهم علاقةٌ، معظمهم مِنْ الضّباطِ الذين باشروا التّحقيقات معي، وستّفوا تحريّاتهم ضدّي، قالوا: "تخالف تعاليم الإسلام.. لا ترتدي الحِجاب.. تتشبّه بالرّجالِ.. تربّي كلبًا في بيتِها".

قالوا؛ فيما قالوا: "المجني عليه متديّنٌ.. نجلُه يرتدي خاتمًا مِنْ

العقيقِ وزوجته ترتدي شادورًا.. مِنْ المستحيل أنْ يقوم باغتصابِ فتاةٍ أجنبيّةٍ".

كيف تحوّل المتآمرون إلَى شهودٍ؟!

أيّ عدلٍ يا أمّي؟! هل هكذا تجري العدالةُ في بلادِنا؟ لم يرَ القاضي في قضيّتي دفاعًا عَنْ النّفسِ ولمْ يقبل أيّة دفوعٍ لتخفيضِ الحُكمِ، لمْ يأخذ بشهادةِ الشّهودِ الذين كانتْ أقوالُهم في صالِحي!

سَبعُ سنواتٍ وأنا أتنقّلُ مِنْ سجنٍ لآخر، كان الصّمتُ صاحبي المُختار يا "شعلة"، ذُقتُ عبرها ما لا يُحتَمل، حدّدوا، بعْد سنواتِ الأملِ، رغم واسطةِ الحقوقيِيْن والنّشطاءِ والمؤسّساتِ الدّوليّة، موعدًا لإعدامي.

"أحمد شهيد"؛ مقرّر الأمم المُتّحدة لحقوق الإنسان، اتّهمهم صراحةً أنّ كلَّ الأدلّةِ لمْ تؤخَذ في اعتبارِهم، بل إنّ إجراءات مُحاكمتي برمّتها مشكوكٌ فيها، وكلّ الاعترافات انتُزعَتْ منّي قسرًا، وبموجبِ ضغوطٍ نفسيّة وبدنيّة رهيبة، وأيّدتُه المنظّمات الدّوليّة، ضربوا بكلّ الاحتجاجاتِ والبياناتِ عَرضَ الحائطِ، وقالوا كلمةً حاسمةً لا رادّ لها: ستُعدَم "ريحانة" يوم الخامس والعشرين مِنْ شهرِ تشرين الأوّل.

عيّنوا يا "شُعلة" سِجنَ "كوهردِشت" موقعًا للإعدامِ، السّجنُ الذي كنّا نعرفه عبر الحكايات، السّجنِ صاحب أسوأ سمعةٍ في إيران كلّها، الذي لا يكتظّ إلّا بسجناءِ الرّأي والسّياسيِيْن، السّجنُ الذي يتحكّم الحرسُ الثّوري فيه، منفردًا، بمجموعةٍ من الزّنازين، يُودِعون فيها الخَونةَ والعُملاءَ؛ وفِق وصفهِم.

قبل موتي أريدُ أنْ أطلب منكِ طلبًا: إنّ أوّل وصاياي إليكِ ألّا تبكي عليّ.

واسمعيني جيّدًا يا "شُعلة"، هذا جزءٌ من وصيّتي أيضًا؛ أريدكِ أنْ تذهبي إلى المحكمةِ، وتُعلني رغبتي، حيث لا يمكنني إعلان هذه الرّغبة من داخلِ السّجنِ، فسامحيني إنْ كان عليكِ أنْ تعاني من أجلي مرّةً أخيرةً، ربّما هذا هو الأمر الوحيد الذي لنْ أغضبُ منكِ إذا اضطررتِ أنْ تتوسّلي مِنْ أجلِه، وأنتِ تعلمين أنّي رفضتُ أنْ تتوسّلي قبل ذلك للعفو عنّي مِنْ الإعدامِ.

"شُعلة"، أخشى على جسدي مِنْ أنْ يتعفّن تحت الثّرى، لا أريدُ أنْ تتحوّل عيناي اللّامعتان ولا قلبي الشّاب ولا جسدي الجميل إلى بَددٍ، بالله يا حبيبتي توسّلي إليهم أنْ يمنحوا قلبي وعينيّ وكِليتي وكَبِدي وعِظامي وكلّ ما يُمكن زراعتُه في جسدٍ آخر إلى مَنْ يحتاج إلى مثلِ هذه الأعضاءِ، توسّلي أنْ يعطونَكِ تصريحًا عاجلًا بتسلُّمِ جثّتي مِنْ المشرحةِ.

إنّها وصيّتي الأخيرةُ يا عزيزتي، ورجاءً لا أريد لمَنْ يحصل على جسدي، مهما كان عددُهم، أنْ يعرفوا اسمي، لا أريدُهم أنْ يدعوا لي أو يشكروا روحي الطّيبة ولا حتّى أريدُهم أنْ يشتروا لي ورودًا ليضعوها على قبري، تخيّلي أنْ ينعتونني بالمقبورةِ، في النّهاية لا أريدُ أنْ أوضع داخل قبرٍ كلّما تزورينَه تألّمتِ، القبرُ الحقيقي ليس في الأرضِ بلْ في القلبِ.

لا بأسِ إنْ ارتديتِ الأسودَ مِنْ بعْدِي، حِدادًا علَى ما مضَى وما

كان، وابذلي كلّ طاقتكِ يا حبيبتي وكلّ ما في وسعكِ لكي تنسي الأيّام المريرة التي مررنا بها معًا، واتركيني كي تبعثرني الرّيـحُ، إنّ العالم لم يحبّني يا "شُعلة"، إنّ العالمَ وقحٌ، تجرّد مِنْ إنسانيّتِه، ولم يتركني كي أختار مصيري، نعم سأستسلم الآن، سأقابل الموتَ كأنّه رفيقُ سفرٍ طويلٍ مُرغمةٌ علَى صحبتِه بمُنتهَى الرّضا.

وموعِدُنا يا حبيبتي أمامَ محكمةِ الله، سأتّهمهم جميعًا، لنْ أصفَح عنْ أحدٍ، كنتِ تقولين إنّ في العَفو لذّةً لا توجد في الانتقامِ.

لكنّي لنْ أعفو يا "شعلة".

سلامًا؛ إلَى لقاءٍ قدْ لا يكون، وإنْ كنتُ أريد أنْ أضمّك حتّى المماتِ، لكن لا بأس، دعينا ننتظر إرادة الله، لمْ يخذلنَا الله مِنْ قبل، فهل سيخذلنَا الآن؟ ما أجمَل أنْ نكون ضحايا يدينون لنا بالذّنوبِ! وهوّنا عليكما، ودّعي أبي بالنيابةِ عنّي، وقبّلِيه، ودعيه يحكي لكِ حكاياته يا أمّي، لا تصدّي شغفَه بنزعِ العبءِ عَنْ كاهلِه بالله عليكِ، شاطريه أحمالَه، اقتلعي مِنْ داخلِه الوجعَ، وقولي له إنّ ابنتكَ لمْ تنسَ حنانَك ولا طيبتَك معها، ولا أوقاتكما الجميلة، ولمْ تدَع جسدَها كي يدّنسه مُغتصبٌ شهَوانيّ تعوّد أنْ يستخدم سلطته في إيذاء الآخرين، ابنتُك علَى عهدِها مَعْ الله، عاشتْ مؤمنةً، وماتتْ مؤمنةً، وعلَى كلّ حالٍ، أحبّكما، وسأفتقدكما.

(18)

5 تشرين الثّاني- 2011

سجن فشافويه- ملحق سجن طهران الكبير- محافظة طهران

قطعوا الكهرباءَ عَنْ السّجنِ، وكنّا قدْ تكدّسنا في العنبرِ إلَى حدٍّ أنّ إحدانا نامتْ واقفةً مِنْ شدّة الإنهاكِ، وكانتْ روائحُنا كرائحةِ جيفٍ نافقةٍ.

لمْ يسمحوا بدخولِنا للتحمّم منْذ أكثر مِنْ شهرٍ، لكنْ في هذه اللّيلةِ دخلتْ الحارسةُ تبشّرنا:

- ستُفتَح المراحيضُ للاستحمامِ مدّة ساعةٍ، تجهّزن.

ونحن نحاول أنْ نستبصر الرواقَ؛ خرجنا.

كنّا في منتصفِ اللّيلِ، وفي منتصفِ كلّ الأفكارِ اليائسةِ عَنْ التشطّفِ؛ أقلّه عَنْ الذّنوبِ.

استمسكنا بأجسادِ بعضِنا البعض وخطونا نحو المراحيضِ في طابورٍ طويلٍ.

كانتْ الحارسةُ واقفةً هناك تنظّم دخول المسجوناتِ وخروجهنّ، علَى ألّا تتجاوز الواحدةُ دقيقتيْن بالدّاخلِ، وتحت قدميها فرشَةٌ وُضعت عليها أرغفةُ خبزٍ جافٍّ، وكلُّ مَنْ تدخل إلَى المرحاضِ تناولها

الحارسةُ رغيفًا، اقتصادًا للوقتِ، وحتّى لا تضيّع الحارسةُ عمرَها في توزيعِ الخبزِ علَى العنابرِ!

كان هذا الممرّ الضّيق بمثابةِ البَراح، ورغم تكالب أجسادِنا علَى بابِ المرحاضِ كنّا نشعر أنّنا في نزهةٍ، فانطلقتْ المسجونات يطلقن ريحًا، يتجشأن، كأنّ أجسادَهنّ انفكّتْ، ورحن يتبادلن الأحاديث مَعْ الحارسةِ الجهمةِ التي بدتْ لا تستمع ولا تكترث، بلْ كانتْ تنظر إلَى ساعتِها، وبينما مسجونةٌ تحادثها ضربتْ بابَ المرحاضِ بقدمِها وهي تصيح: "تأخّرتِ!".

شدّتْ المسجونةَ التي تتحمّم مِنْ ضفيرتِها فأخرجتها، وطرحتها أرضًا وهي تشير بيدِها إلَى صاحبةِ الدّورِ التّالي كي لا تُهدِر فرصتَها في الدّقيقتيْن، كانتْ المسجونةُ عاريةً ترتجف، وكانتْ جدرانُ الرّواق تنشع برودةً حدّ التجمّدِ، لسعتْها علَى ثديها وعلَى ردفِها حتّى ازرقّا، وهمهمتْ:

- أهذه عاقبة الدّلال؟!

دخلتُ، تغوّطتُ مكاني وفتحتُ صنبورَ المياهِ، كان الماءُ باردًا لا يُحتمل، غير أنّي كنتُ أرغب في نزع كلّ وساخات الانتظارِ عَنْ جسدي، اصطكّت أسناني وأنا أغرف الماءَ بالآنيةِ وأرشّ به جسمي، مسحتُ شعرَ عانتي وفيما بيْن ردفيّ، كسحتُ بإصبعي كُتلةَ خُراءٍ تكوّمتْ عنْد فتحةِ الشّرجِ، لكنّي اشتممتها، أغمضتُ عينيّ لثوانٍ، رائحةُ خرائي أعطر مِنْ روائحِ العنبرِ بالدّاخلِ، لعقتُ إصبعي بلساني، كزّتْ نفسي، أوّل مرّةٍ أجرّب فيها نكهةَ تمخّضي، بينما يبدو أنّها ليستْ الأخيرة.

علَى عجلٍ، خوفًا مِنْ غضبِ الحارسةِ، دخلتُ في ملابسي، خرجتُ وكان شعري مبتلًّا، كان جسمي يرتعش لا إراديًا، إنّما البرد هنا أهون العذابات، وكان رغيفُ الخبز في يدي، ابتلّ بدورِه، صار طريًّا يؤكَل، قضمتُه علَى جوعٍ وأنا أقفل عائدةً إلَى العنبرِ.

مِنْ البردِ عرجتُ، فقدتْ ساقاي اتّزانهما، في العتمةِ تسنّدتُ علَى كتفِ مسجونةٍ، عُدنا معًا إلَى العنبرِ، التحفتُ بالبطّانيّةِ علَى الفورِ.

تشاركتُ أخرَى موضَعَ النّومِ، تداخلتْ ساقاها بساقيّ، لمْ نعرف كيف نستدفئ، لكنّ زميلتي حكّتْ بركبتِها في عظمِ عانتي تستجدي وسيلةً لمغالبةِ هذا الصّقيعِ.

فتحتُ لها ساقيّ أكثر، فضمّتْ نفسَها تحتي أكثر، كغريقةٍ صادفتْ طوقَ نجاةٍ، حشرتني بيْن ذراعيها، كانتْ العتمةُ قدْ أخفتْ ملامحنا، فلمْ تعرفني ولمْ أعرفها، استدلّتْ إليّ بحاسّةِ العوز إلَى دفءٍ، وعلَى فطرةٍ لا يُشتبَه عليها مدّتْ أناملَها تحسّس في رقبتي، تركتها لأنّي أريد الدّفءَ أيضًا، في حين بدأ جسدُها يرتعش ارتعاشةَ سخونةٍ وليدةٍ، وجسدي يتقلّص، استعدادًا لاسترخاءٍ خبليّ.

ضممتُ وركيّ علَى ركبتِها، أنّتْ، وازدردتُ لعابي، الجسدُ الذي هُتك صار يعرف خريطةً مغايرةً للعصيانِ علَى الواقعِ، عضّتْ بأسنانِها علَى لحمِ بطني كجائعةٍ، فتأوّهتُ، لكنّي استطبتُ، نشبتْ أظافرَها في لحمِ ردفيّ، فرفعتُ لها جسدي أمكّن أصابعَها مِنْ الولوجِ أكثر، وعلَى غير حذرٍ دفعتْ إصبعًا في ثقبٍ أُوغِلَ خراءً لأيّامٍ متتاليات، شبّكتُ وركيّ ببطني، فضمّتْ إصبعيْن وغرستهما، وبعْد

قليلٍ باتتْ تحتي، وبتُّ فوقها علَى ظهري، عضّت أكثر، فحّتْ، تركتها تأتِي تشبّعًا دون عجالةٍ، أمامنا وقتُ العالمِ، فلتُغرِق كفّيها بسوائلي اللّزجةِ، ولتلعقهما.

لمْ يخطئ حدسِي مِنْ قبْلِ بشأنِ الحرمانِ، فتحتْ عينيها تستطلعان في ظلّ العتمةِ، دقّقتُ فيهما النّظرَ، ولمْ أرهما رغم ذلك، كانتا تشعّان ضبابًا كثيفًا، ضبابًا كنُدفٍ رماديّةٍ، الأعين هنا لا يُمكن أن تشعّ نورًا، انطفأ فيها النّورُ، لمْ أكنْ قادرةً علَى فهم هذا التشظّي، كلّ شيءٍ صار مهزوزًا.

تختمر رأسِي المعلّقةُ علَى أنصافِ الآمالِ، تُسكرني روائحُ الأمكنةِ المهجورةِ بامتدادِ الطّفولةِ البعيدةِ، أشعر أنّي شظيةٌ تمضي في مساراتٍ متقاطعةٍ، كأنّها تبحث عَنْ لحمٍ طريٍّ كيما تستقرّ، أفكّر في الأشياءِ التي كانتْ خسارتُها فادحة، هل يُمكن اعتبار جسدي أحد هذه الأشياء؟

إنْ كان تُرك هذا الجسد لمنتهكٍ ذات قسرٍ، فلمَ لا يُترَك؛ وبإرادةٍ شريفةٍ، إلَى محرومةٍ؟!

(21)

9 كانون الثّاني- 2012

سجن إيفين- سعادات آباد- شمال غَرْب محافظة طهران

كنتُ طفلةً عندما كنّا نخرج لنداعب بأعينِنا سويًا العصافيرَ التي تفترش صدرَ السّماء في أيامِ الصّيف المشمسةِ، ونجلس في حديقةِ برج "آزادي" تعلّمني الرّسم، نُطالع الوجوه، نراقب التعبيرات، وتُمسك بيدي فتطوّعها لتنحني مع انحناءة يدِها علَى الأوراقِ، نجلس حِذاء الشّارع الأسفلتي الذي يصل ما بين باحةِ برج "آزادي" والميدانِ، وتميل عليّ تهمس وهي لا تكاد تتمالك نفسَها مِنْ فرط الضّحك:

- انظري إلَى البرج كيف أنشأوه، ألا يشبه امرأة تفتح فيما بين ساقيها؟ لا بدّ أنّ بنّاءيه كان لديهم كبتٌ عاطفيّ.

ضحكتُها تتّسع، تحتويني، تستوعب قسوةَ المنفَى.

كانتْ تعلّمني أيضًا كيف أعثر على بارقةِ ضوءٍ رغم العتمةِ، كيف أستبطِن علّاتَ المسائل، كانتْ تعزّز بداخلي غرائزَ الاستشرافِ، فأسترشدُ بملاحظاتِها، وكانتْ غوايتي الصّعود ليلًا إلى سطحَ البيتِ لأراقبُ النّجوم التي تلمع كالأحلامِ المأمولةِ، كانتْ تقول وهي تلكزني ضاحكةً:

- إنّ العشّاقَ فقط مَنْ يحبّون اللّيل والأسطحَ يا ابنتي، وأنتِ صغيرةٌ علَى العِشق.

فأردّ بمكرٍ:

- بلْ كبيرة علَى الجهلِ بالعِشقِ.

فِي نوباتِ المَطرِ، توسّدني بعباءتِها، وتظلّ طويلًا رافعةً عينيها للسّماءِ والمَطرُ يهطل كأنّها تفكّك أحجيةً، لمْ أعُدْ أذكر عددَ النّوباتِ التي أدمعتْ فيها السّماءُ على مدينتِنا، إنّها مطيرةٌ بالدّوامِ، إنّما أذكر انضمامي لأطفال الحيّ الذين يقرعون الصّوانيَ ويصيحون، نُغمض أعيننا حال سقوط قطراتِ الماءِ من أعلى، وندعو سرًّا، كلّ مَنْ له أمنيةٌ ستحقّق بقدسيةِ المَطرِ المُبارك، هكذا كان يُخبرنا أئمتُنا، إنّ المَطرَ فرجٌ، والدّعاءُ واجبٌ، والتّلبيةُ حتميةٌ بإذنِ الله.

أرَى أمّي وهي جالسة في الشّرفة تطلّ بعينيها تتفرّس في الوجوه، كانتْ تقول دومًا:

- وجوه النّاس مصفرّة، لا بدّ أنّه الفقر، بئس الفقر!

تجلس إذا الصّبحُ يتنفّس على استحياءٍ، وغشاءٌ رقيقٌ مِنْ ضبابٍ يواري ملامحَه، إذا يبدأ النّاسُ يخرجون لأعمالِهم، ومن عادتِها أنْ تتابع، بحسّها الفنّي ورهافةِ روحها، حركة الحيّ منذ نشوءِ الصّباح وإلى أن تغيب الشّمسُ، وكنتُ أجالسها لأنّها إذا انطلقتْ في الحَكي لا تتوقّف، وأحبّ إذا استرسلتْ تُفرِج عَنْ الحكايات مِنْ رأسِها، كانتْ متوافقةً مع الجميع، لكنّها مِنْ حينٍ لآخرَ تتأسّى قائلةً:

- الزّمن يمرّ على المدينةِ ولا يترك إلّا أثر الوجع والضّيق والحزن، تتدرّج الهمومُ شيئًا فشيئًا مع مرورِ الوقت، يصبح الحالُ غير الحال.

وكانتْ تحكي لي الحكايات المُلهمة دومًا، كانتْ تعرف أنّي أخاف مِنْ الظّلام، فتُشعل لي ضوء الغرفة، وتتمدّد جواري، وتحكي لي عن أصدقائِها الملائكةِ، وكانتْ لها سنٌّ ذهبيّة، تلمع إذا ضحكتْ، وكثيرًا ما كانتْ تضحك، وكانتْ تقول لي:

- احرصِي على البَهجةِ يا ابنتي دائمًا، البهجةُ سُنّة الصّغار، وهي سنّةٌ زائلةٌ.

وتقول لأبي إذا عوقبتُ علَى فعلةٍ:

- لا يوجد إنسٌ كامل، شرطُ الغفرانِ الخطيئةُ، دعها تجرّب الحياةَ يا رجل.

هكذا كانتْ "شُعلة"، أقامتْ لي وطنًا في صدرِها، ومنحتني جنسيته، وكنتُ شعبَه الوحيد.

عنْد طلعةِ الصّبح، كلّ يومٍ، كان يمرّ في حيّنا درويشٌ، يلوّح لي ولأمّي بيدِه ونحن واقفتيْن في الشّرفةِ.

تلك عادتُنا، نستيقظ في وقتٍ محدّدٍ، تحضر لنا أمّي فنجانيْن مِنْ القهوةِ المحوّجةِ بالزّعفرانِ والدّومِ المبشورِ.

لا تكاد الشّمسُ تتمطّى حتّى يدخل حينا الدّرويشُ يتوكّأ علَى عصاه، يلمحنا واقفتيْن فيهلّل وجهُه، يصيح:

- السّلامُ عليكما، كلّ عامٍ وأنتما طيّبتيْن.

كلّ صباحٍ يُطيِّب علينا دونْ أنْ يزيد أو ينقص، الجملةُ نفسها،

الفَرحةُ نفسها، فقط يضحك ضحكةً طفوليّة ويستكمل طريقَه.

لمْ نفكّر يومًا أنْ نسأله عَنْ اسمِه، ندعوه لكوبٍ مِنْ الشّاي أو فنجان مِنْ القهوةِ، لمْ يشغلنا يومًا أنْ نعرف حكايته، مِنْ أين جاء وإلَى أين يمضي، ولماذا حيّنا تحديدًا دونًا عَنْ كلّ أحياءِ طهران؟!

فجأةً اختفَى الدّرويشُ، لمْ يظهر لأسبوعٍ، ثمّ أسبوعين، ولمّا انقضَى شهرٌ بدأتُ في السّؤالِ عليه.

كان أهلُ الحيّ مثلَنا لا يعرفون عنه شيئًا، وبالمصادفةِ عثرتُ علَى سيّدةٍ عجوزٍ تعرفه، قالتْ بلا مبالاة:

- مات في مقاطعة أبهر في محافظة زنجان ودُفن هناك.

أهكذا؛ أُرسِل لكي يرمي السّلامَ، ويمضي، فقط؟

لكنّ السّيدةَ انتبهتْ لأمرٍ وشدّتني ومالتْ علَى أذني:

- يقولون إنّهم وجدوه مُضرجًا في دمائِه وقدْ قطّع صدرَه بسكّين، أتعرفين ماذا وجدوا أيضًا! لقدْ كتب كلمة "عدالة" علَى صدرِه بالسّكين قبْل أنْ يموت.

عدالة! ما أبعْد العدالة!

العدالةُ يا "شُعلة"، لا شيءَ عادل، يُراق شرفي هنا كأنّي سبيّةٌ ملك يمينهم، كعاهرةٍ تتكسّب مِنْ شرفِها كلّ ليلةٍ، لكنّ العاهرةَ تضبط البيعَ بإرادةٍ منفردةٍ وفق الثّمن الذي تحدّده، وأنا أُراق بلا مقابلٍ، لا ثمنَ لي، حدّدوا سلفًا قيمتي: صفر. وبناءً عليه؛ أموتُ كلّ لحظةٍ في

محاولةِ أنْ يصعَد المؤشّر ولو قليلًا، دون جدوَى، ثبتَ المؤشّرُ علّى الصّفرِ، كما لو أنّهم عطّلوه.

المُديةُ بيْن أصابعي، أفكّر قليلًا، قدْ لا يكون مِنْ السّهل علَى المرءِ أنْ يمزّق نفسَه، لكن روحي بلَتْ، أيصبح لجسدي أهميةٌ؟

أمواجٌ مِنْ الذّكرياتِ تتدفّق إلَى رأسِي، موجةٌ بعْد موجةٍ، يتناثر رذاذُها علَى الخيالِ، تُرَى أيمكن للخيالِ أنْ يغيثنا؟

لا بأس، قدْ يظنّ بعضُهم أنّكِ مجنونةٌ يا "ريحانة"، الجنونُ في هذا العالم نجاة، إنّ الجنونَ يحكم المسارَ في حقيقةِ الأمر، الأنبياءُ اتّهموا بالجنونِ، الطّيورُ تغرّد في جنونٍ، البحر يهيج في جنونٍ، المطر، السّحاب، الأفق مصبوغٌ بالجنونِ.

الآن، تحت ذكرَى بعيدةٍ، يرقد خيالي ميّتًا، بلا كفنٍ، والوجوه حيثما ولّيتُ بذهني تتبَعني، عندما تُغلِق الذّاكرةَ علَى وجوهٍ بعينِها ثمّة شيءٌ منها يعلَق بك، يُطاردك، ثمّة روائح، تناقضات، ثمّة حنين، "إيوان"؛ سامحني، انقطعتْ عنكَ رسائلي.

المُديةُ بيْن أصابعي، لماذا لمْ أطعنُه؟ كان واقفًا أمامي مثْل قصاصٍ مُستحق، لماذا لمْ أغرس المُديةَ في قلبِه؟ ممَ كنتُ أخاف؟ أنا ميّتةٌ في كلّ الأحوالِ.

أخلَع ثوبي، أحكّ جسمي بالجدارِ الناتئ، أجرّب لحظةَ السّحجِ، كلّما حككتُ جسمي تورّم، تلمع المُديةُ بعينيّ، تتراجع يدي لكنّ قهري يحرّكها، أُسقِط بصري حيث سأتمّم الأمرَ، أضع نصلَ المُديةِ فوق سرّتي، أشقُّ به نفسِي، أشقُّ به ألمي، مِنْ تحت ثديي يمرَ النّصلُ

ينزل لأسفلِ، الحرف الأوّل، ينفجر الدّمُ، أتقيّأ، أستعيد عزيمتي، يصعد النّصلُ ليشقّ حرفًا ثانيًا بجسدي، يُغرق الدّمُ مساحةَ بطني، أُكمل، حرفًا ثالثًا فرابعًا، أنتحب، أنتحب وأرتمي إلَى الجدارِ، أقوّس حركةَ المُديةِ لتكتب حرفًا أخيرًا، ثمّ ألقي بها جانبًا وبكاملِ ارتياحي، استرحتِ الآن يا "ريحانة"، دعيهم يعرّونكِ كي تقرأ أعينُهم ما لمْ يؤمنوا به: العدالة.

العدالةُ يا "شُعلة"، العدالةُ التي لا يريدون منحها لي، سيقرؤونها علَى جسدي، لا شيءَ يُمكن أنْ يمحو عَنْ أعينِهم عدالتي، في كلّ اغتصابٍ، ومَعْ كلّ هتكٍ، سيشهَدون العدالةَ حاضرةً، بدوامِ النّزيفِ.

العدالة! عامانِ يا "شعلة" لمْ أركِ، أهذه هي العدالة؟ أتنقّل بيْن السّجونِ وفق الأوامرِ، ووفق السّعةِ العدديّة، وقوائم المحكوم عليهم بالإعدامِ، والهوَى، والعبث، وكلّ آمرٍ مَريدٍ، أتنقّل حيث يُمكن لمغتصبٍ جديدٍ باغٍ أنْ يستحلب ما بقيَ مِنْ روحي، ما أكثر المهدورة حريّاتهم!

إنّ الأوامرَ الجديدةَ قضتْ، أيضًا، بإنشاءِ فواصلٍ زجاجيّةٍ عريضةٍ تحجِز لقاءَ الأحبّة في باحةِ الزّيارات بمدخلِ السّجنِ، هل هذه عدالة؟

أبلغوني أنّ لي زيارةً صباح الغدِ، ونقلوني إلَى عنبرٍ جماعيّ، قضيتُ اللّيلةَ بلا نومٍ، وعلَى غير عادتي اغتبطتُ، وأقمن لي في العنبرِ احتفالًا، غنّين وصفّقن وباركن، وكلّما انقضتْ لحظةٌ نحو موعدِ الزّيارةِ ارتجّ قلبي، كنتُ مكتسحةً بالهزائمِ لكنّي آليتُ علَى نفسِي أنْ أجازف لآخر نفسٍ، ألا يُمكن أنْ أنتصر ذات قدرٍ؟

ارتديتُ الشّادورَ، تبعتُ حارسةً إلَى أنْ بدتْ الباحةُ فغمّوا عينيّ، لمْ أعترض، هنا لا يُسمح بالاعتراضِ تحت أيّ بندٍ، حتّى بند اللّا معقوليّة، إنّ الوسيلةَ الوحيدةَ لكي أطمئِن مشاعري سدّوها عليّ، ارتعدتُ مِنْ مجرّدِ تخيّلِ أنّي لنْ أرَى أمّي، لكنْ سوف أحاول أنْ أستبصركِ يا "شُعلة" طالما لستُ قادرة علَى الإبصارِ، سوف أستشعركِ، إنّ التّجاربَ بيْننا كفيلةٌ بإيجازِ كلّ المشاعرِ، ظللتُ أستشعركِ دون أنْ أراكِ، ألملم دعواتكِ مِنْ بيْن حُجبِ السّماء وأقفل عليها في خيالي، لا بأس يا "شُعلة"، طلّي عليّ بعينيكِ، علَى أنْ أطلّ عليكِ بقلبي، اعتدنا هذا بلا سجونٍ، أتذكرين؟

كنتِ تعصّبين عينيّ، تعلّمينني الإحساسَ بالأشياءِ، تقولين: "ها، ماذا أفعل الآن؟". فأردّ عليكِ: "كذا وكذا". مرّة بعْد مرّةٍ أدركتُ أنّ استشعارَ أفعال البشرِ أعمَق مِنْ رؤيتها، أتذكرين يا "شُعلة"؟ علَى يديكِ عرفتُ كيف أخطو خطوةً خطوةً وعلَى بصري غمامةٌ، سمعتُ الموسيقَى آنذاك تسري تلقائيًّا في رأسِي، واسترجعتُ كلّ قراءاتي، وردّدتُ الشّعرَ، وبكيتُ وضحكتُ وحرّكتُ القدرَ، وأنا أضع علَى عينيّ شريطًا.

أوقفنا ضابطٌ، سمعتُ الحارسةَ ترطن، بعْد جدالٍ فكّتْ عينيّ، أومأ الضّابطُ برأسِه آذنًا لي بالدّخول، كانتْ الباحةُ مزدحمةً، مضيتُ أبحث بعينيّ عنْ أمّي، وجدتهما خلف الزّجاجِ، أمّي وأبي.

كانا يتسنّدان علَى بعضِهما البعضِ، علَى الصّبرِ، علَى كلّ أملٍ لمْ تُهدره الظّنونُ اليائسةُ، قدْ شاخ أبي، قدْ اكتسَى جسمُه بمرارةِ التّجربةِ، فبانتْ عَظامُ وجهِه، وبدتْ عيناه مهزوزتيْن، دنوت منهما، كان فاصلُ الزّجاجِ بيْننا لكنْ تأجّجتْ مشاعرُنا، جاوزتْ الزّجاجَ

والزّمنَ والأسَى، تشابكتْ أصابعُنا ولو بينهما حاجزٌ.

لمْ نُدرك مِنْ اللّحظةِ العابرةِ إلّا الدّموعَ، إنّها الشيء الأخير الذي لا يستطيعون حبسَه، انهرتُ علَى هذا الجانب، وعلَى الجانبِ الآخر انهار كلاهما، أخذا يتمتمان، لمْ أسمعهما ولمْ يسمعا مِدادَ شوقي إليهما، إلَى كلّ الأوقات القديمةِ الآسرةِ، يعرفان أنّ موتي تقرّر، في جحودٍ، في استئسادٍ بالفريسةِ، تقرّر، لكنّهما يؤمنان بالغيبِ، يؤمنان أنّ منعطفًا قدريًّا سوف يحوّل الاتّجاه، لا يعرفان أنّ الغيب حتّى يكتبونه ويقرّرونه في بلدِنا، ألا يريان بأعينهما هؤلاء الذين يقفون عاجزين عَنْ العثورِ علَى أبنائهم؟ ألا يريان نهايةَ الطّريق الحتميّةَ؟ كيف يؤمنان بالغيبِ وقدْ هيض كلّ شيءٍ بداخلي؟

أجل أريدُ عناقهما، أجل أريد أنْ يحملا ما تبقّى منّي إلَى حيث نهايةٌ أخرَى، أجل أريدُ أنْ يخيّطا شتاتي كما خيّطا كلّ شتاتٍ مِنْ قبْل، إنّما؛ هل يؤمنون هنا بالرّجاءِ؟

كانتْ زيارةً خاطفةً، ستوقد في فؤادي شوقًا للزّيارةِ القادمةِ، وإنْ كانتْ بعْد أعوامٍ، أو بعْد موتٍ، الموتُ لا يفرّق، الموتُ يُلزِم بالمحبّة إلَى الأبدِ، يُلزِم بالتّذكّر الشّفيفِ، يُمكن لأيّ أحدٍ أنْ يموت، بالطّريقةِ التي يشاء، يُمكن أنْ ينتظر الموتَ في لحظةٍ قادمةٍ، لكنْ لا يُمكن لأيّ أحدٍ أنْ يعيش كما كنّا، هل تندثر الأساطير يا "شُعلة"؟ أليست حياتنا، رغم كلّ حسرةٍ، أسطورة فريدة في تمامِها؟

صاح الحَرسُ:

- انتهتْ الزّيارةُ.

شدّوني ولمْ أتركهما، كنتُ أريدُ أنْ أشكو، أشجب، أصرخ، لكنّهم شدّوني مِنْ أمامهما، فتُركتُ فيهما وداعًا إلَى حين، غابا مِنْ أمامِ بصري، وعلَى مدخلِ العنابرِ سقطتُ، تعرّق وجهي، رأيتُ الأشياءَ تفنَى، كلّ ما أمكنني سماعَه مجرّد همهمات خافتةٍ، وهم يحملونني إلَى عيادةِ السّجنِ، همهمات قيلت هُزوًا، علَى غير اكتراثٍ.

- حرارتها ترتفع!

- حُمّى!

- جسمها وهِن.

- ماذا إنْ ماتتْ؟! فلتَمتْ، إنّها ميّتةٌ في كلّ الأحوالِ بحكمِ محكمةٍ.

- كمّادات.

- لنْ يستجوبنا أحدٌ!

- كمّادات.

- فلتَمُتْ.

- كمّادات.

- نستريح مِنْ كلفةِ طعامٍ وشرابٍ وغطاءٍ.

لكنّي لمْ أسترح، كي يستريحوا، بلْ كان ثمّة وازعٌ يدفعني للحياةِ، لمْ أكنْ أُدركه، لمْ أكنْ أريده، وازعٌ كأنّه النبضةُ المؤهّلةُ للرّجوع، القشّة المُقدّرة للنّجاةِ، كأنّه التشبّث بيدِ أبي ذات زحامٍ، أو القبض علَى خصرِ أمّي ذات فكاهةٍ.

المكانُ: عدمٌ.

الزّمانُ: أبَدٌ.

أنحدر إلَى خُلدٍ، لا تضاريسَ، لا جُغرافيا، لا تفاصيلَ، بخارٌ ضبابيٌّ يحمل روحي لسدرةِ المُنتهَى، واللّونُ أبيضَ، وصوتٌ يتخفّى في هيئةِ نغمٍ يدوّي مِنْ حولي، صوتٌ بلا صدَى، وبخارٌ بلا ظلٍّ، وروحٌ بلا رقيبٍ، ليس هناك أثرٌ لشيءٍ عدا الذّكريات المخمليّة.

هل غِبتُ في جلالِ المعنَى؟ لا أعرِف، لكنّ المعنَى فقدٌ.

تلمّستُ طريقي بيقينِ بلوغِ التّمام إلَى ذكرَى لمْ تكنْ لتكتمل.

أهي ذكرى عَنْ الحياة، ما اشتهيتُ ولمْ يرضِني، ذكرَى عَنْ وداعٍ قديمٍ؛ مثلًا؟

سعلتُ، فتحتُ عينيّ، يداي لا تتحرّكان، ونورٌ ينبعث مِنْ ثقوبِ البصرِ المُتلاحمةِ، لا شيءَ يظلّ مستقيمًا بداخلي -لا يتعرّج ولا يتحوّر- سوَى الذّكريات؛ تلك التي منحتني عُمرًا أخيرًا، تلك التي كان بناؤها حياةً مضتْ.

أهو الغيبُ المُرتجَى إذن "شُعلة"؟ أهو اللّقاء المُنتَظر "إيوان"؟

أهو الأملُ مِنْ بعْدِ أفولٍ؟

سامحني "إيوان"، هذه رسالةٌ لنْ تصِل، لعلّك ترغب في معرفةِ دافعِ تقلّبي بيْن كلّ مسافاتِ الأسَى، لماذا أُبقيَ عليّ رهينةَ البيْن بيْن؟ فلا أنا أسلّم للمصيرِ ولا أنا أنالُ السّلامَ، في النّهايةِ بعضُنا لا يسلَم

شطحات هذه الحياةِ، صدّقني هنا تفوق الضّلالات تصوّر كلّ عقلٍ، هنا أراني بعْد ألفِ موتٍ، تتساقط ذكرياتي بيْن يديَّ، أدفنها في معيّةِ العَدمِ، هل يُمكن أنْ نحتفظ، إذا رحلنا، بذكرياتِنا التي صنعناها عَبْر الحياةِ؟

لا أستطيع هنا تقديرَ مسافةِ الخضوعِ، كلّما أجهَدني البغي قلتُ سأخضع، لكنّ شيئًا يدفعني للوراءِ، يجعل المسافةَ جائزةً للأملِ، اللّونُ القاتمُ "إيوان" صار لونَ حياتي، لا أتحيّز لألمي، لكنّها الحقيقةُ، مجبولةٌ علَى اليأسِ "إيوان"، وعلَى الأملِ أيضًا، هذا التّناقض تصنعه المصادفات، بلْ تصنعه الذّكريات، أرفع رأسِي إلَى السّماءِ، أترقّب عفوًا، في الوقتِ الذي يدفع بي كلّ شيءٍ إلَى الاستسلامِ، وأخشَى، إذا استسلمتُ، أنْ أفقدكَ كذكرَى كانتْ يومًا مثْل ألوانِ قوس قزح، فيها كلّ بهجةٍ، وكلّ عزاءٍ.

قدْ أراك مِنْ بعْدي خُضتَ الحياةَ بقلبٍ شُفيَ بي، سلّمتك رايةَ التطهّر لتمضي بها إلَى حيث تكون نجاتُكَ، طهّرتُكَ مِنْ الحزنِ، أليس كذلك يا "إيوان"؟ مَنْ إذن يطّهرني مِنْ الألمِ؟

عذرًا "إيوان"، إنّها رسالةٌ مُهدَرةٌ، أكتبها إليكَ بحبرِ الخيالِ، كي أنزِع عنْ فراغي رتابته، لمْ أعُد وعدًا تحمله حمامةٌ، بلْ صرتُ حزنًا أبديًا لنْ ينقضي بانقضاءِ الأحزانِ العاديّةِ، هل ستحزن عليّ؟ هل يُمكن أنْ يصل بكَ إحساسُنا إيّاه إلَى البكاءِ؟ ماذا ستخبر أمّك عنّي؟ ضلّت "ريحانة"! اقترفتْ الجريمةَ! هل هذه يا "إيوان" مَنْ أعادتكَ مِنْ غيابةِ الجُبِّ؟

(19)

8 كانون الثّاني- 2012

سجن إيفين- سعادات آباد- شمال غَرْب محافظة طهران

نزَع عنّي غِطاءَ رأسِي، مرّر أصابعَه علَى شعرِي، أغمضتُ عينيّ وأنا أبلَع ريقي، أدركتُ ما أنا مُقبلةٌ عليه، لمْ يعُد يحرس جسدي شرفٌ، كأنّهم يخبرونني أنّ جسدي هذا الذي ضيّعتُ عمري لأجلِه، الذي سأُعدَم ذودًا عنه، جسدي الذي أبقيتُ عليه مغلّفًا لمْ يمَسّ، سيدهسونه، لا قيمةَ له.

قادوني إليه بعْد جلسة المحكمةِ التي قرّر فيها الشّهودُ أنّي أتشبّه بالرّجالِ، فردَ قدميه علَى المكتبِ، تصفّح جَردَ القضيّةِ القادمِ مِنْ المحكمةِ، بمواعيدِ الاستئنافاتِ والجلساتِ والطّعون، غربلني بعينيه، تحاور معي لأقلّ مِنْ عشرِ دقائقٍ، حدّثني عَنْ الجامعةِ، تطّلعاتي، الرّسم، الأصدقاء، العمل، وذكَر، بشكلٍ عابرٍ، قصّتي مَعْ السّيّد "إقبال"، ضابط مناوبةِ السّجنِ؛ الذي انتقَل مِنْ هنا إلَى المخابرات مُنْذ عامين، ولمّا اكتشفَ أنّي أنثى كاملةٌ وأظافري طويلة عكس مزاعم الشّهود، حين أدركَ أنّ صوتي صوتُ أنثى، مظهري، أفكاري ورغباتي حتّى، ولا أتشبّه بالرّجالِ، تبدّل، فجأةً، عنّفني، استدعَى حارسًا، واقتلعَ، بمعاونتِه، أظافري واحدًا واحدًا، لمْ أشأ أنْ أمكّنَهُ مِنْ رؤيةِ ألمي، فحاولتُ أنْ أكابد هذا الألم، أبتلعه بداخلي، لكنّي، لمْ أحتمل،

رحتُ أصرخ، كأنّهم يَحْشُون روحي، بالجمرِ، علَى بطءٍ، ورغم الدّماءِ التي كانتْ تجري مِنْ جروحي لتخضّب الأرضَ، عرّاني، قضَى وطرَه سريعًا، ثمّ وهو يرتدي ملابسَه، تمتم:

- إنّها فقط تقدمةٌ كي أحاول أنْ أستطعمكِ، أختبر جمالكِ.

كنتُ قدْ تهاويتُ أرضًا، كذبيحةٍ، عنْدما لمْ يكتفِ، ضربني بقدميه، تركته يضربني كيف شاء، يسبّني بكِ يا "شُعلة"، بأبي، بكلِّ لحظاتِنا الحلوةِ، قال إنّي جميلةٌ، لكنّ جمالي جمالٌ خبيثٌ، ولنْ يخدعه هذا الجَمال، قلتُ له إنّ الأشياءَ التي نراها جميلةً بأعينِنا قدْ لا تراها أعينُ الآخرين جميلةً.

- لنا موعدٌ آخر مَعْ جمالكِ.

كافئني على كوني جميلةً بعينيه بأنْ أودعني في الحبسِ الانفرادي أحدَ عشر يومًا، رغم هُزالي، رغم جروحي، آنذاك لمْ أكنْ أسمع إلّا وشيش الذّكريات، إنّهم يأتون الجورَ في بساطةٍ يُحسدون عليها يا "شُعلة"، كما لو أنّهم يمضمضون أفواهِهم بحسرتِنا وهوانِنا.

استدعاني، بعْد فترةِ الحبس الانفراديّة، قال:

- ها، هل استعدتِ لياقتَكِ؟ هل طابتْ مشاعرُكِ؟

أدركتُ ما أنا مُقبلةٌ عليه، سرَى خدرٌ علَى خدّي وهو يحاول أنْ يدغدغ مشاعري بلمساتِه، لا يعرف أنّه مثالٌ حيٌّ لكلّ ما أمقتُ، أسنَد مؤخّرتَه علَى مقدّمةِ مكتبِه وقوّس ظهرَه، أسبَل جفنيه وتشمّم فيّ كذئبٍ، حرّك أنفَه علَى صدري يحاول استثارتي، همس في نبرةٍ لئيمةٍ:

- لِمَنْ استرحتِ أكثر، أنا أم السّيّد "إقبال"، الحبيب القديم؟

لمْ أردّ، غصّ حلقي، كلاكما جحيمٌ، كدتُ ألفظها، أتقيّأ معناها، تذكّرتُ قول أمّي: "إنّ الشّجاعةَ بلا حذرٍ كالحصانِ الأعمَى تُهلك صاحبَها".

- عمومًا مشاعرُكِ لا تخصّني في شيءٍ، أنا مكلّفٌ بكِ، أؤدّي واجبًا وطنيًّا سأُجازَى به.

وطوَى بطّانيّةً مِنْ الصّوف بازدواجٍ، ثمّ بسطَها أرضًا، رقدتُ طائعةً، رقدتُ علَى بطني، كتّفتُ ذراعيّ تحت ذقنِي واستغرقتُ في تأمّل الغرفةِ بحسرةٍ، فيما يتمّم ما كُلّف به.

كان الطّلاءُ الأخضرِ قدْ بدأ يتساقط عَنْ الجدران كاشفًا الجصّ المشوّه ببصماتِ أصابعِهم، وكانتْ ثمّة رموزٌ منقوشةٌ علَى الجصّ، كأنّهم كانوا يسجّلون اعترافات ضحاياهم بالشّفرات.

رفع عباءتي، انكشف ظهري، سحب الكلوت، أراح صدغَه علَى ردفي، تمتم:

- بلا مقاومةٍ سيجري كلّ شيءٍ علَى انبساطٍ وبلا عنفٍ.

- لمْ يعُد جسدي يملك ترفَ المقاومةِ علَى أيّةِ حالٍ.

أحسّ بتهكّمي، مدّ يدَه تناول مُديةً مِنْ علّى المكتبِ، وجزّ بها قِسطًا مِنْ لحمِ ردفي، وقال:

- وهكذا! ما رأيكِ في هذا التَرف؟

لمْ أُشعرُه بألمي، ولا كأنّه اقتطع جزءًا مِنْ جسدي، بدوتُ صامتةً، اعتدتُ التغاضيَ عمّا يؤلمني بالصّمتِ، وهؤلاء أعداء الصّمتِ، صمتُ الضّحيّةِ يحزّ في كرامتِهم، كأنّما تراخوا عَنْ إتمامِ مهامهم علَى الوجهِ الأمْثلِ، كزّ علَى أسنانِه، وثب مِنْ عليّ وصاح:

- ظنّكِ أنّكِ تغيظينني؟! حسنًا، افتحي فمكِ.

وأدارني إليه وقبض علَى فكيّ، فتحهما عنوةً، دنا وبصق بداخلِ فمي، وأغلقه، ابتلعتُ بصقتَه، كما ابتلعتُ بصقاتهم جميعًا، يومًا بعْد يومٍ، مهانةً في إثر مهانةٍ، أغلقتُ جفنيّ عَنْ وجهِه، ولمْ يكفِه، فتح فمي ثانيةً، وبصق، بصقة فبصقة، صرختُ، تقيّأتُ عليه، ضربني بكوعِه، قال:

- لا أحدَ هنا بإمكانِه سماعكِ.

وعرّاني كما ولدتني "شُعلة"، أجل أنا خائبةٌ، أستحق هذا العذاب، افعل ما بدا لك، ظننتُ الشّرفَ أولَى، لكنّه مرتبةٌ أخيرةٌ لديكم، أجل مارس مِنْ خلالي كلّ واجباتك الوطنيّة، لقد خنتُ طموحي، خنتُ أملَ أمّي وأبي بي، كان مِنْ الممكن أنْ أحيا، لكنّي اخترتُ الموتَ.

علّق ساقيّ بالهواءِ ثمّ داس عليهما برسغِه فانضغطا علَى ثدييّ والتصقا، وباتْ جسمي نفقًا يعبر منه إلَى حيث كُلّف، سعَل في وجهي ولمْ تكنْ بيننا مسافةُ شبرٍ، أشعَل سيجارةً بيدِه الأخرَى، ثمّ دسّها فيّ مِنْ أسفلٍ، وقهقه:

- اسحبي هذا الدّخان بفرجكِ ثمّ أخرجيه مِنْ فمكِ.

وخلَع حزامَه ولمْ يزل ضاغطًا برسغِه علَى ساقيّ، أمسكتُ فخذيّ بيديّ وقرّبتُ ساقيّ منّي أكثر تحاشيًا للألمِ المُرتقبِ، فصرتُ في كمالِ تهيؤي، انسلخ عَنْ بنطلونه، فكّ زرًّا في قميصِه فبرز شعرُ صدرِه كأنّما يتباهَى، تسمّرتُ تحته مِنْ فزعي، وسرعان ما غيّب إصبعًا بداخلي، لمْ أقاوم، لا فائدة، كان جسدُه يغطّيني مثْل كفنٍ، شعرتُ بالإذلالِ، كأنّي تعرّيتُ في ميدانٍ عامٍ، لا مناصَ إلّا الاحتمال، ألفُ رصاصةٍ تخترق حواسِي، ألفُ جرسٍ يدوّي في أذني، احترقتُ، تشرذم جسدي أشلاءً، وهو التصقَ بي تمامًا، فاستقام ما بداخلِه بداخلي بلا مقدّماتٍ، فصرختُ، تمادَى، صرختُ، دكّني فانبعجتُ، تشرّختُ، أحسستُ بدفء الدّمِ النّازلِ مِنْ وراءٍ، تشبّثتُ بساقيّ خشيةَ أنْ يخذلاني فيتراخيا، فيثور علَى ثورتِه، تحطّبتُ، عضضتُ علَى شفتيّ مِنْ قسوةِ الألمِ، كدتُ أدفعه عنّي فتراجعتُ، تركته يُباشر واجبَه، وتركتني مَعْ الوجعِ، تحطّمتُ مثْل تمثالٍ أُسقِط مِنْ شاهقٍ، وظلّ يخرج ويدخل كماردٍ يستلذّ بعذاب البشرِ، بعثرني، كأوراقٍ ممزّقةٍ تطير في هواءٍ، صرختُ، أكملَ، صرختُ، قبضَ علَى فخذي، ثمّ دنا منّي بسوائِله يُفرغها في فمِي، ولمّا وقعتْ رأسُه علَى صدري، كانتْ الفقاعةُ انفثأتْ.

وبينما يلملم نفسَه، سحبتُ المُديةَ، أسرعتُ أخفيها في صدرِي، أدركتُ أنّه سينساها، كأشياءٍ أخرى، مثْل اللّحظة العابرة التي قضاها معي، إنّها لحظةُ الواجبِ التي لا بدّ أنْ تُنسَى.

ما أزحَم أوقات الواجبِ في هذا السّجنِ!

(7)

25 شباط- 2007

بيتٌ مهجورٌ أمام مبنَى البلديّة- مدينة طهران- محافظة طهران

أطفأتْ "شُعلة" ضوءَ المصباحِ في الغرفةِ وهي تبرطم ضاحكةً، شدّتْ الغطاءُ مِنْ علّى جسم "ريحانة"، ارتعدت مِنْ لسعةِ الهواءِ لوهلةٍ، عبّقتْ "شُعلة" الغرفةَ بالبخورِ، دارتْ في زواياها ترتّل، ثمّ اتّجهتْ إلَى النّافذةِ تُزيح السّتائرَ، وهي تتمتم:

- إلَى متّى ستوقدين ضوء المصباحِ وأنتِ نائمة؟ لا أعرف لماذا تخافين مِنْ الظّلامِ؟! بيتُنا قرآني لا تسكنه الأشباحُ.

الشّمسُ سطتْ علَى عيني "ريحانة"، تثاءبتْ، همستْ:

- تربّيتُ علَى النّورِ يا "شُعلة"، علّى يديكِ.

لفّت "شُعلة" نحوها وضربتها بالوسادةِ، وهي تغرغر مِنْ الضّحكِ:

- يعلّمونكِ الفلسفةَ في الجامعةِ أم الهندسةَ؟ هذه الفلسفة لن تدفع لنا فواتير الكهرباءِ.

ودنتْ منّها، طافتْ بالمبخرةِ علَى رأسِها تدمدم، قالتْ وهي تسعل من الدّخان:

- لا تخافي عليّ مِنْ الحَسدِ.

- بلْ لا يُحسَد إلّا مثلكِ.

الحيُّ، كعادتِه، يضجّ.

تدخل "ريحانة" إلَى الحمّامِ بعْد أنْ تقضي دقائقَ في الشّرفةِ، يتفكّك جسمها بفِعل الماءِ السّاخنِ، تغتسل مِنْ الخيالاتِ الجنسيّةِ المشروعةِ، كلّها خيالاتٌ تُفضي إلَى "إيوان"، رأتهُ يستحمّ معها، تغطّيهما رغوةُ الصّابونِ، وشعرتْ به يهدهدها، فتدغدغتْ مشاعرها مَعْ لمساتِه، ضحك، فضحكتْ، لمّها بيْن ذراعيه فساحتْ أحاسيسُها، ذابتْ بينهما كالصّابونِ، كانتْ رأسُه تصل إلَى بطنِ السّقفِ الرّخامي تلامسه، فشعرتْ بالاحتواءِ.

كان أبوها قدْ أفطر ومضَى إلّى البازارِ، وصعدتْ أمّها إلَى السّطحِ، ارتدتْ ملابسها ولحقتْ بها، كانتْ متقوّسةً تغرِف مِنْ الطّبقِ الفخّاري بيدِها وترشّ الحبَّ للدّجاجات، اطمأنّتْ عيناها علَى حمائمها، تراكضتْ الدّجاجات وأمّها تحاصرها بالسّأسأةِ كي تدخل إلَى القنّ، تقافزتْ مِنْ حولها، كان الرّيش يغطّي أرضَ السّطحِ، وقفتْ علَى أوّل الدّرجِ الهابطِ لأسفلِ، قالتْ وهي تقبّلها مِنْ بعيدٍ:

- خذي قبلتكِ عبر الهواءِ، لنْ أوسّخ حذائي بمخلّفاتِ الدّجاجِ، وعمومًا سأذهب إلَى الجامعةِ، وقدْ أتأخّر في المساءِ حسب الموعدِ الذي أخبرتكِ عنه.

- رعاكِ الله.

فقبّلتها بدورِها.

نزلتْ، نفضتْ بعضَ الرّيشِ الذي هاش إلَى صدرِها، أخرجتْ المرآةَ مِنْ الحقيبةِ تطمئنُّ لثباتِ مساحيق الزّينةِ، تأبّطتْ الحقيبةَ وهي تسير بيْن النّاسِ الذين يحيّونها بابتساماتِهم، فكّرتْ في كتابةِ رسالةٍ جديدةٍ إلَى "إيوان"، كيف يُمكن أنْ تُفصِح له عَنْ كلّ مشاعرها؟! في مثْل هذه الحالات يعجز الكلامُ، يُصبِح الاتّصالُ حسيًّا وعَنْ طريق الاستقراء، تُرَى هل يستقرئ "إيوان" ما تودّ التعبيرَ عنه؟!

قضتْ يومها في مقهَى الجامعةِ، تحتسِي النّسكافيه بالحليبِ كوبًا بعْد آخر، وتفكّر في "إيوان"، تركتْ المحاضرات ولاذتْ بركنها المفضّل في المقهَى، علَى الطّاولةِ فرشتْ الألوانَ، وبدأتْ في رسم ملامحِ "إيوان" بأكثرِ مِنْ انفعالٍ، تخيّلتهُ غاضبًا، فرِحًا، حزينًا، تخيّلت نفسها معَه، فراشةً، حمامةً زاجلةً تُبلِغه رسائلَ القلبِ، بلْ بدأتْ في تخيّلِ وجهِ أمّه، وجهٍ ساكنٍ، تعبيراتُه ناعمةٌ هادئةٌ، راح خيالها إلَى الشّاطئِ، البحرِ، سبحا معًا، وصلا إلَى جزيرةٍ لمْ تحطّ عليها قدمٌ، طالعتْ معَه الغيبَ، ورأتهما تجرّدا مِنْ الزّمنِ، رأتْ الزّمنَ هناك يسير بالنّاسِ دونهما، كأنّه ثبَتَ عمريهما علَى هذه اللّحظةِ.

بينما تستذكر مشاعرها هاتفها "مرتضَى":

- علَى موعدِنا؟!

قالتْ:

- بالطّبعِ.

لملمتْ أوراقها وألوانها وانفعالات "إيوان"، وهبطتْ إلَى حيث الموعدُ، تمشّتْ قليلًا في رحابِ الجامعةِ تُصرِف الوقتَ المتبّقي

حالما يحضر، هاتفها خلال نصف ساعةٍ:

- لا توجد أماكن انتظارٍ كافية أمام بوّابةِ الجامعةِ، أسرِعي مِنْ فضلكِ.

كانتْ البوّابةُ بالفعلِ علَى بُعْدِ خُطواتٍ، سمعتْ نفيرَ سيّارتِه علَى الجانبِ الآخر مِنْ الطّريقِ، انتبهتْ له، لوّح لها بذراعِه مِنْ داخلِ السّيارةِ، انتظرتْ أنْ يتخفّف مجرَى الشّارعِ مِنْ الزّحامِ وهرولتْ عابرةً.

نزل وفتح لها بابَ السّيارةِ، كان صديقه "شيخي" يجلس في المقعدِ الأمامي، هزّ لها رأسَه بابتسامةٍ باهتةٍ، تقرفصتْ في المقعدِ الخلفي، كانتْ ثمّة كراتين معدّات، أزاحها "مرتضَى" بيدِه وهو يبتسم متحرّجًا:

- عُذرًا، دواعي العمل.

أشعل "مرتضَى" سيجارةً وقام بالسّيارةِ، انطلق يتعرّج بيْن السّيارات، كان عصبيًّا، كلّما انعطفتْ عليه سيّارةٌ تُضايقه سبّ وشتم بأقدحِ الألفاظِ، لا يكترث لوجودِ أنثَى بالمقعدِ الخلفي، التصقتْ بالنّافذةِ، مرّرتْ عينيها علَى اللّافتات العاليةِ الدّعائيةِ وديكورات المحلّات، كان صديقُه قدْ أراح رأسَه علَى ظهر المقعدِ وأغمض عينيه، ومَعْ كلّ دورانٍ، كانتْ السّيارةُ ترتجّ، تجتاز المطبّات علَى سرعةٍ متهوّرةٍ، وكانوا قدْ اقتربوا عندما أوقف "مرتضَى" السّيارةَ واستأذنها:

- خمس دقائق في الصّيدليّة، أجلب حبوبَ دوائِي.

- علَى راحتِك.

لا تعرف ممَ يُعالج، ولمْ يهمّها، ظلّ صديقُه مغمضًا عينيه، كان صامتًا، لمْ يحاول أنْ يخاطبها ولو مِنْ بابِ التُعارف العابرِ، بدا غامضًا، إمّا لا يعنيه الأمر وإمّا هناك شيءٌ يدبّر، لا تستوعبه، ارتابتْ وخالجها شعورٌ بالتّخوّف، بعْد قليلٍ كان "مرتضَى" يفتح بابَه، قبْل أنْ يتحرّك استأذنته أن تُرجئ الموعدَ، دبّ يدَه علَى صدرِه:

- هل أغضبتكِ لا سمح الله؟!

قالتْ:

- أبدًا، لكنّي مُجهَدةٌ وأشعر بالغثيانِ.

أردف:

- ثوانٍ ونصل، أنا طبيبٍ ويُمكن أنْ أفهم علّتكِ، لا تحتاجين إلّا إلَى القليلِ مِنْ العصيرِ المسكّر.

دون أن يُضيف مضَى بالسّيارةِ، اضطرّتْ للصّمتِ، في هذه السّاعة لمْ تكنْ تعرف عَنْ نيّتِه شيئًا، لكنّها دسّتْ يدها في حقيبتها تطمئنُّ لوجودِ سكّينها، اشترتها تحسّبًا بعْد حادثةِ السّينما بنصيحةٍ مِنْ "شُعلة"، صارتْ تخشَى الشّوارعَ، النّاسَ، تخشَى الزّحامَ الذي يُمكن أنْ يؤدّي إلَى كارثةٍ، تدافع عَنْ نفسها إذا فوجئتُ بخطرٍ، الشّرُّ لا تنبؤَ له، يطوّف علَى كلّ الأشكالِ والهيئاتِ.

بلغوا المكانَ، الشّمسُ إلَى مغيبٍ، والأفقُ مضمّخٌ بألوانٍ قانيةٍ تتخالط ببعضِها البعض، طراز البيوت في المنطقةِ غربيّ، وفي الميدانِ

يجلس رسّامون وباعةُ حُليٍّ ومِنْ حولِهم يتجوّل النّاسُ، تتفرّع مِنْ الميدانِ عدّةُ شوارعَ، تُنقّل عينيها بيْن البيوتِ.

دلفوا إلَى أحدِ الشّوارعِ المتفرّعةِ مِنْ الميدانِ، ركن سيّارتَه في جراجٍ ملاصقٍ للمبنَى، رفعتْ عينيها، كان المبنَى مهجورًا، قالتْ متشكّكةً:

- هل هذه هي عيادتكِ؟!

فطِن، قال:

- اشتريتُها حديثًا وتحتاج إلَى توضيبٍ، أخبرتكِ بهذا!

علَى غيرِ اهتمامٍ هبط صديقُه مِنْ السّيارةِ، توجّها إلَى مدخلِ المبنَى، تقدّماها، أصابها الوجلُ، لكنّها صعدتْ بعْدهما، توقّفا أمام إحدى الشّقق بالطّابقِ الثّالثِ، أخرج "مرتضَى" سلسلةَ مفاتيحَ مِنْ جيبِ بدلتِه، شخشختْ في يدِه ثمّ دسّ مفتاحًا في البابِ، استدار وقال:

- تفضّلي.

اتّجه إلَى غرفةٍ أضاء نورَها بينما جلستْ وصديقه في الرّدهةِ، لوّح لها بيدِه:

- تعالي لو سمحتِ.

ثمّ استدرك:

- انتظرنا يا "شيخي"، هل تريد أنْ تطّلع علَى الاتّفاقات السّريّةِ؟

وضحك.

دخلتْ إليه، كان جالسًا خلف مكتبٍ متهرّئٍ، أشار بيدِه فجلستْ إلى طاولةٍ أمامه، لفّ بعينيه حوله واستطرد:

- ها أنتِ ترين بعينيكِ، ما الذي يتطلّبه الأمرُ؟

كان قدْ خلع الجاكتَ وفتح زرّيْن مِنْ قميصِه، قالتْ لعلّها عادتُه وإنْ توجّستْ، دارتْ ببصرها في الغرفةِ:

- يتطلّب وقتًا وجَهدًا ومالًا.

- لا بأس، أملك الوقتَ والمالَ وتملكين الجَهد.

وانحنَى فتَح بابَ ثلّاجةٍ صغيرةٍ، تناول زجاجةَ عصيرٍ، قدّمها لها:

- تفضّلي، سيزول إرهاقُكِ.

ارتبكتْ:

- تأخّر الوقتُ، فلنتحدّث عَنْ التّفاصيلِ.

- إنّها زجاجةٌ مُبرشمةٌ علَى أيّةِ حالٍ، لا أعرف ما الذي يُفزعكِ! هل تعاملين كلّ زبائنكِ بهذه الطّريقةِ؟

تناولتها منه وتأكّدتْ أنّها مغلقةٌ، ارتشفتُ رشفةَ التّعبِ، ثمّ أخرَى، بدأتْ رأسِها تطنّ، ظنّته الإرهاق، وجدتْ نفسها تسقط بداخل المقعدِ، ليستْ قادرةً علَى لملمةِ عزمِها، وسرعان ما غامتْ الرؤيةُ، فيما كان طيفُه يتحرّك ببطءٍ نحوها، يستدير مِنْ وراءِ

المكتبِ، يفكّ بقيّة أزارِ القميصِ، عجز ذهنها عَنْ التفكيرِ، جاهدتْ أنْ تُعيّن اللحظةَ التي سلَبتْ منّها حواسها، دونما جدوَى.

تضيع في فراغٍ لولبيّ، تحاول التركيزَ، ترتفق بقبضتها علَى كوعِ المقعدِ لتنهض، تقع ثانيةً، تتعثّر الكلمات علَى شفتيها:

- هذا العصير....

أطفأ ضوء الغرفةِ، أطفأ التّلفازَ، أطفأ روحها فجأةً حين تعرَّى، "سيّد "مرتضَى"، ماذا تفعل؟"؛ قالتْ.

كلصٍّ يغويه الظّلامُ، كفكرةٍ يستحيل تمامُها، كعبثٍ، كسيفٍ، يقتحم ثباتها، يمزّق وعيها، يتعرّى، فترَى الشّرَّ مُنفلِتًا، ملامحُه ترتعش، جفناه مُسبلان، يشدّ طرحتها، يهرب شعرها مِنْ حصارِه، تسقط زجاجةُ العصيرِ الغادرةُ، تتهشّم، تتناثر شظاياها تحت قدميها، يُميتها الظّنُّ الأسود، بلْ يُصبِح الظّنُّ مُستباحًا، يجنّده الواقعُ المريرُ، تقاوم كأنّها أضغاثُ عزمٍ، ما أسهل أنْ يأتيها وينفض يديه في مثْل هذا الوهن!

يضع سبّابتَه علَى عُنقِها، ويهبط بها إلَى ثديها، بالسّبابةِ والإبهامِ يقرصه، ويجأر، يقرصه، ويُنتَشَى، كسكّيرٍ تُغالبه الفوضَى، فيتجرّد مِنْ التحشّمِ واللّياقةِ والضّميرِ، علَى غيرِ ظنِّ الضّلالِ وقعتْ في براثنِ العارِ، تُرَى إلَى أين يُمكن أنْ تذهب به نزوتُه؟ أهي نزوةٌ طارئةٌ؟ أهي تجربةٌ لاستعادةِ الظّفرِ بما ضنّ عليه به عمرُه؟ أيشيب الرّجلُ دون أنْ تنضج هفواتُه؟

يُقعَى علَى ركبتيه، لا يتمالك أعصابَه، فيرتعش مِنْ النّشوةِ، تهتزّ أطرافُه، تزيحه بلا حيلٍ، يجفّف لسانَه في صدرها، وبيديه يُبعِد ذراعيها كي تتّسع مساحةُ عبثِه، تضربه في رأسِه فلا يرتدِع، تدوخ أكثر، وتختفي عيناه خلف انبساطِه، تبيضّان، تتحوّلان إلَى عيني وحشٍ كاسرٍ، والرّيح ترفّ مِنْ وراءِ ستائرِ النّافذةِ.

هل بالإمكان أنْ يضربه الله، الآن، بصيبٍ، سخطٍ، مثلما ضرب أهل الفيلِ وقومَ "لوطٍ" و"فرعون" و"هامان" وجنودهم؟! فيمَ يختلف عَنْ كلّ هؤلاء؛ أهل الضّيومِ الذين عاثوا في الأرضِ، ولهم خلفاءٌ مثله؟!

تتخفّى ملامحُه خلف ضبابِ النّشوةِ، تحاول ألّا تتهالك لتمامها، ترَى يدَه معروقةً تنصّلها مِنْ ملابسِها، تضمُّ، في وهنٍ، يدها علَى يدِه، ترجوه أنْ يفرج عنها، تتخشّب يدُه، يسلّمها شعورٌ إلَى شعورٍ نقيضٍ، تتسحّب في بطءٍ مِنْ المنطقةِ العدميّة المختلّةِ، تدفعها لتعود أدراجها إلَى وعيها، لكنّه كان قدْ استأسد وتحطّب جسمُه، بدا عفريتًا مِنْ أولئك الذين لا يجوز أنْ يسكنوا ظلامَ غرفتها، تترك نفسها للضّبابِ مرغمةً، قالتْ "شُعلة" هذا الصّباح: "لا يُحسد إلّا مثلكِ!".

بلْ لا يُحطّم إلّا مثلها يا "شُعلة"، لماذا لمْ يزوّجانها ليخلصا مِنْ تداعياتِ طموحها؟ لماذا تركاها للطّموحِ الأهوج مِنْ الأساس؟

يواصل، تواري خيبتها، خذلانها، بمقاومةٍ قاصرةٍ، ينزع طبقات شعورها، يهمس: "قطرة.. قطرة.. تلين الصّخرةُ"، كأنّ الشّبق حوّله

شاعرًا! يقطّر مشاعرَه الموبوءةِ فوق جسدها، تبحث عَنْ طريقةٍ مُثلَى كي تودّع هذا الجسد، في العموم سيُبلَى عمّا قليلٍ، بلْ ربّما تبحث عَنْ الطّريقةِ التي ستودّع بها أبويها، تذكر أنّ "شُعلة" قالتْ: "سننتصر، حتمًا سننتصر، إننّا، بفطرتِنا، مقاتِلون". واجهتْ كلّ شرٍّ وصمدتْ، كلّ طغيانٍ، كلّ هولٍ، ونجتْ بهما، حتّى أوقات الأحزانِ، البعيدة، تجاوزتها، بصمودِها، ألا يُمكن أنْ تصمد بدورِها؟ والعار؟ والشّرف؟ أهي مصطلحات مستهلَكة؟

آه، هذا الجسد، الذي قُدّ مِنْ ترابٍ، وسينتهي إليه، يوسّخه الوحلُ، يؤلمه، يعذّبه، إنّما الوحل مجاز، مجرّد مجازٍ، أليس كذلك يا "شُعلة"؟

مثْل غمامةٍ، يلفّها، يحاوطها بذراعيه، تتسلّل يدُه إلَى ما تحت بنطلونها، تضمّ ركبتيها في رفضٍ، بيدِه الأخرَى، بقوّتِه، يرغمهما علَى الانفراجِ، يضرب ردفها بيدٍ، ويشدّ شعرَ عانتها بيدٍ، تتكسّر عزيمتها، لا تجد إلّا الدّموع تتضرّع إليه بها، تعميه نشوتُه، لا يريد أنْ يصدّق عجزها أو قلّة حيلتها، يقبلّها حيثما يضع شفتيه، قبلات متسرّعة، عنيفة، كأنّما يختلِس، أوَ ليسَ يختلِس؟

يزمّ شفتيه، وقدْ دسّ إصبعَه في الفراغِ المُحرّمِ، يزمّ شفتيه ويئنّ، ويعقِد حاجبيه مستلذًّا، لكنّه، وكلّما أوغل بإصبعِه، ما بلَغ حدّ الفضّ، وكلّما أوغل سحبتْ أعصابها للوراءِ تُحصّن ما قدْ يبقَى مِنْ طيحةِ العُمرِ، كُتبتْ، منْذ خُلقِتْ، رسالةً إلَى "إيوان"، رسالةً لا يُمكن لرجلٍ أنْ يفتحها، حتّى وإنْ كانتْ مؤجّلةً.

يتقلّص وهو يباشر بهجتَه المشوّهةَ، ثمّ يستقيم، يفضّ، علَى عجلٍ، واقيًا ذكريًّا.

تتلزّج أنامله وهو ينزل به ليُغطّي انتصابًا أتَى بعْد اصطراعٍ شعوريٍّ، وبيديه المتحجّرتيْن يحاول أنْ يرفعها، لا تستجيب، بسهولةٍ، لكنّها نازعتْ أولًا، قبْل أنْ يرفعها ويحاول أنْ يخلع عنها بنطلونها.

تنغرس أصابعُه في لحمِ ظهرها وهو يشدّه، ينقطع الحزامُ، يدكّها، يتقوّس، تبرق عيناه لمّا ينكشف نصفُ مؤخّرتها، يكالب أنْ يكبسَه فيها، وبقليلٍ مِنْ عزمٍ تستمسك بالبنطلون، إذا انخلع لآخرِه انخلع معه شرفها، والشّرفُ إنْ انخلع لا يقيمه حزامٌ ثانيةً، لكنّها، وهو ينازع أنْ يضعه، أحسّتْ بلزوجتِه، كغراءٍ، أحسّتْ بسخونتِه، وكأنّما بذلتْ سخونتُه بداخلها جَهدًا مضاعفًا ومنحتها قليلًا مِنْ العزيمةِ، فاستطاعتْ، ولو علَى أملٍ بعيدٍ، أنْ تضربه فيما بيْن ساقيه، فيتلوّى، ويركع أرضًا.

تَحِين الفرصةُ، تسحب، بعجالةِ الفرصةِ نفسها، سكّينها، تغمده في رقبتِه، يعضّ شفتيه، يثور، يستكلب في ذراعها، تترك السّكّينَ في غمدِها، تلملم نفسَها، تدفعه بقدمها مرّةً أخرَى، يقع، يتحسّس الدّمَ المتفجّرَ مِنْ عروقِه.

منْذ قليلٍ، كادتْ هذه العروق تنفجر مِنْ فرطِ هياجِها، الآن، تنفجر دمًا، تفتح بابَ الغرفةِ، تفتح بابَ النّجاةِ، تفتح منفذًا للحياةِ مِنْ جديدٍ، تخرج راكضةً، يقابلها صديقُه، تدفعه، بدتْ عيناه لا تستوعبان، تدفعه وتنزل، تقفز، تصرخ، تصيح: "الحياة".

تندلق إلَى الشّوارعِ.

تغتبط، ولأوّل مرّةٍ، بالزّحامِ.

سيروني مجنونةً، سيروني عبيطةً، سيروني هاربةً، أجل يا "شُعلة"، فليروني كيف خُيّلتْ لهم الظّنونُ، أجل نجوتُ، هربتُ، أبقيتُ علَى نفسِي كما أبقيتما عليّ، لمْ أهدَر يا "شُعلة"، لمْ أفتَرس.

في هذه اللّيلة المشؤومة يا "شُعلة" كان يُمكن أنْ أكون أنا الصّريعة، كانوا سيرمونني في زاويةٍ ما مِنْ زوايا المدينةِ الضالّةِ، ثمّ سيستدعونكما أنتِ وأبي كي تتعرّفا علَى جثّتي بإشرافِ الطّبيب الشّرعي المتوَاطِئ، وكانوا سيخبرونكما على أسفٍ أنّي اغتُصِبتُ، وصرعني مُغتصبي، وأنّ القاتلَ لم يُستدَل عليه والبراهينُ غير كافيةٍ، وأنّ قضيّتي ستقيّد ضدّ مجهول، أليس كذلك؟

أجل حبيبتي؛ نحن لا نملك نفوذًا ولا مالًا ولا سلطةً مثلهم، تخيّلي ما الذي كان سيحدث وقتذاك؟ كان أبي سيعتَزل العالمَ وينطفئ عارًا وهوانًا وحُزنًا على ابنتِه المسفوحةِ، وكنتِ بعْد أعوامٍ ستموتين بجلطةٍ في القلبِ مثلًا أو سكتةٍ دماغيةٍ مِنْ شدّة الكَمدِ والبكاءِ، لكِ ابنةٌ يرتع قاتلُها باتّساعِ الحياةِ في الخارجِ هناك، يُمارس جنونَه علَى فتياتٍ أخرياتٍ، يسطو بنفوذِه على أعمارهنّ، أجل؛ إنّ الوطنَ مقبرةٌ واسعةٌ، غير أنّها لا تتّسع إلّا للفقراءِ المغضوبِ عليهم.

تخيّلي هذا السّيناريو يا "شُعلة"، شِيء له أن يتغيّر بانحرافٍ قدريٍّ، ترقّيتُ مِنْ ضحيّةٍ إلى مُجرِمةٍ قاتلةٍ، ومِنْ بعْدِها باتْ عليكِ أن تستسلمي للقدرِ دون شكوى، لا جدوَى مِنْ الشّكوى، نعم السّجونُ

تُشبِه القبورَ، غير أنّ الشَّرفَ أبقَى، غير أنّ مصائرَنا لا تتشابه ومصائر الآخرين، بلْ عليكِ بالفخرِ، تعرفين يا "شُعلة" كيف إنّ الموتَ لا يعني تعطّل العدالةِ، سأحصل علَى العدالةِ في مكانٍ آخر، قلتِ لي إنّنا نأتي إلى هذا العالم كي نتعلّم الدّروس ونستقي مِنه الخبرات، وإنّنا نُولَد وعلَى أكتافِنا مسئوليةُ القتالِ والمثابرةِ والمجازفةِ، مهما أحدّق الخطرُ في غياهبِ المجهولِ هُناكَ، علينا أنْ نقاتِل كي نعيشُ بكرامتِنا أو نموت دونها.

سيادة القاضي: "لأنّك بلا شرفٍ لمْ يعنِك أنْ أدافع عنه".

ماذا ستفعل؟ ستقرّر عليّ الموتَ! فلتفعل، مرحبًا بالموتِ.

سيادة القاضي؛ هذا ما جرَى.

(22) مكرّر

24 تشرين الأوّل- 2014

سجن كوهردِشت- مدينة كَراج- غَرْب محافظة طهران

أمدّ للحارسةِ ساعديّ، تحلّهما مِنْ القيدِ، كي تحمّمني، تحمّمًا أخيرًا، أبتسم لها، تتحيّر، كأنّما تقول: "وهل مثلكِ يبتسم، وهو مقبلٌ، هكذا، علَى موتٍ؟".

تضع يدَها علَى كتفي، تتغرغر عيناها، ترتعش ملامحُها، تقول:

- "ريحانة"، هل ستسامحينني؟

أحدّق فيها بثباتٍ.

- إنّها أوامرُ الضبّاط، وكنتُ أعارضها دومًا.

أربّت عليها:

- أعرف أعرف، لا بأس، المهمّ أنْ تكوني موجودةً في الصّباحِ، إنّه موتٌ عزيزتي، علينا أنْ نحتَفِل.

أدمعتْ:

- للأسف تنتهي نوبتي بعْد ساعتين، أراكِ في حياةٍ أخرَى.

تحيطني بذراعِها، تتمشّى بي علَى مهلٍ، تنعطف بي إلَى حيث

الحمّاماتُ الخصوصيّةُ.

- اخلعي ملابسكِ، سأحمّمكِ بيدي..

وهمستْ مبتسمةً:

- رغم إنّها الأوامرُ أيضًا، لكن ما أطيب أنْ أحمّمكِ عزيزتي!

تركتُ لها نفسِي، أصبحتُ عاريةً، كتمثالٍ إغريقيّ، ضبطتْ الماءَ، انهمرتْ الخيوطُ فضيّةً، وقفتُ تحت العمودِ السّاقطِ، ومدّتْ يدَها تحكّك جسدي بقطعةِ ليفٍ نخليّةٍ، ترفع ذراعيّ، تلج يدَها بيْن ساقيّ، تطمئنّ أنّي متأهّبةٌ للموتِ علَى غير عفنٍ، تفركُ الصّابون، تخفيني تحت رغوتِه، تدلّكني، تمشّط شعري بأناملِها، أستريحُ إلَى تبخّر مشاعري مَعْ أدخنةِ الماءِ الكثيفةِ، تُديرني، تُفزَع، تقرأ حروفَ "العدالة" بعرضِ بطني، تتسمّر تحدّق فيّ، أطمئنها:

- لقدْ حقّقوا في الأمرِ، وعوقبت عليه بالفعل لمدّةِ شهرٍ في الحبسِ الانفراديّ، لا داعيَ لخوفكِ.

- كيف تبحثين عَنْ العدالةِ بالدّم؟! بإزهاق روحكِ؟!

- لمْ تُزهق، للأسف، روحي، بلْ كنتُ أذكّرهم، أذكّر نفسِي ليس أكثر، هل توجد عدالةٌ بالفِعل؟

- إنّ الله عادلٌ.

- والبشر؟!

- طُردوا مِنْ الجنّةِ حبيبتي، العدالةُ هناك، ليستْ علَى الأرضِ.

وضمّتْ كفّيها علَى جمجمتي برفقٍ.

- كفاكِ أسئلة "ريحانة"، إنّه أوان الإجابات لا الأسئلة.

لا أسأل صدّقيني، أنا أُدرِك كلّ شيءٍ، أُدرك أنّي عابرةٌ، ستنسونها، سرعان ما ستفعلون، ما أكثرني هنا! مثلي مجرّد أسماء في دفاترِكم، أردتُ فقط توجيه سؤالٍ إلَى الله: "لماذا يترككم هكذا؟".

لا أسأل، ما أنا بصدِده الآن أبعْد مِنْ السؤال، أعظم مِنْ الإجابةِ، أحاول فقط أنْ أصوّر في خيالي العالمَ مِنْ بعْدي، أصوّر كارثةَ غيابي، لعنةَ الوباءِ الذي سأخلّفه بينكم وأرحل، أحاول رؤيةَ انهيارِ المُدنِ، البيوتِ، الأبنيّةِ، رؤيةَ الضّبابِ وهو ينبعث مِنْ بيْن أفخاذِ الضّاليْن، الرّعبَ الذي سوف يحصدونه كعاقبةٍ علَى موتي، القلوبَ التي ستتحجّر بيْن أضلعِهم، هكذا، فجأةً، أتعرفين "ميدوسا"؟ إنّها الملعونة، أتعرفين حكايتها؟ تحوّل كلّ ما ينبِض إلَى حجرٍ، فقط بعينيها، لعلّك تتوهّمين أنّ عينيّ ستموتان وتبليان معي! علَى العكسِ، إنّهما هما، حاضرتانِ بغيابِ العدالةِ، هاتان العينان ستوقدان لياليهم لهيبًا، ستجعلانهم يستغفرون، لكنّ الذّنوبَ ستبقَى معلّقةً برقابِهم، فلا غفران.

أسألكِ! أنتِ؟! مثلكِ لمْ يُجبَل علَى الإجابةِ، مثلكِ مبرمجٌ علَى أنْ يصمتْ، يؤدّي، فقط، لا يملك لا حقّ السّؤالِ ولا حقّ الجوابِ، ما أنا بصدِده عزيزتي شيءٌ مختلفٌ، مبهمٌ، عصيٌّ علَى التّدوينِ، عصيٌّ علَى الإعدامِ.

أمرٌ شديدُ الغرابةِ، كما لو أنّي أقف هناك، عنْد الفجوةِ التي ستبتلع

العالمَ، أراكم، وأنتم تعتقلونني منْذ سبعِ سنواتٍ، وأراني عندما بدا كلّ شيءٍ في عينيّ قدْ ينقضِي، ربّما، يومئذٍ، لمْ يكنْ بمقدورِ استشرافي إلّا أنْ يرَى الأمرَ علَى هذا النَحو، لمْ أفطِن، لمْ أحترِز، لكنتُ تركتني هناك، عنْد حدودِ هذه الطّفلة، ما فكّرتُ في التقدّم بالعمرِ، يومًا واحدًا.

صدّقيني عزيزتي لا أسئلةَ لديّ، إنّها فقط نزاهةُ التّسليمِ بالموتِ.

مضتْ تقلّب جسدي بيْن يديها، ترنّم، ولمّا انتهتْ، دعكتني بالفوطةِ، وعلَى بابِ الحمّامِ، قدّمتْ لي، بحرجٍ، رداءً أزرَق، بطرحةٍ سماويّةٍ اللّونِ، تنحنحتْ:

- هذه الملابس.. لا بدّ.. أنْ..

قبضتُ علَى رسِغها بيدي، وبالأخرَى مسّدتُ شعرَها.

- أفهم، الأمرُ لا يحتاج للشّرحِ، علَى أيّة حالٍ لا بدّ لعزرائيلِ أنْ يراني بلونِ السّماءِ.

ومِنْ فرجةِ النّافذةِ، رأيتُ، صندوق سيّارةٍ أبيض، سيّارة الثلّاجة، تتحرّك ببطءٍ، كي تركن في ساحةِ السّجنِ، لمطلعِ الصّباحِ، إنّها ستحمل جثّتي إلَى المشرحةِ.

- لقدْ كويتُ لكِ الملابسَ، أوصيتهم ألّا يستخدمونها لحالةٍ أخرَى، سأحرقها بيدِي بعْد...

لمْ تُكمِل، ضمّتني، لمْ تبكِ، وإنْ كادتْ، لكنّ صوتَها بُحّ وهي تقول:

- ستموتين غدًا عزيزتي، كلّ موتٍ هنا ينتقِص مِنْ حياتي نفسِها، صدّقيني، أنا لا أرغب في أنْ يموت أيّ مخلوقٍ.

يدوّي مكبّرُ الصّوتِ:

- "ريحانة جبّاري"، زيارة.

مستحيل أنْ يسمحوا لأمّي أو أبي بزيارةٍ كهذه، قبْل إعدامي بيومٍ!

طبطبتْ الحارسةُ علَى صدري:

- ارتدِ ملابسكِ، لعلّها زيارةٌ أخيرةُ.

علَى عجلٍ وثبتُ في ملابسِي، مهما كانتْ الظّروف، أو دوافع الزّيارةِ، فعليّ أنْ أبتهج، لعلّ وسيطًا تدخّل فسمح لهما بالزّيارةِ، حتّى وإنْ كان هذا ضدّ قانونِ السّجنِ.

ركضتُ في الملابسِ الزّرقاءِ، تمامًا كغيمةٍ صباحيّةٍ في سماءٍ زرقاء، قطعتُ الممرّ في طرفةِ عينٍ، استوقفني ضابطُ المكتبِ الأمامي:

- تمهّلي، إنّها زيارةٌ خاصّةٌ، بتصريحٍ مِنْ لواء استخبارات، يعني ستأخذين راحتكِ مَعْ زائركِ.

- زائري! رجل؟

- نعم، إنّه خطيبُكِ.

لوّح بيدِه لحارسةٍ كي تفتّشني، تركتُ لها جسمي وعيناي راحتا تصبوان إلَى باحةِ الزّيارةِ، بقلقٍ، توتّرٍ، باحتمالٍ لمْ يكنْ مِنْ قبْل، ربّتتْ تُصرفني، فأكملتُ ركضي، وهناك، علَى مقعدٍ جلدِي، كان يجلس، عرفتُه، استدار لي، شبّ علَى قدميه، عدل نظّارته، رأيتُه، أشبه ببلعةِ ريقٍ، قطرةِ ماءٍ، بعْد ظمأ.

إنّه الله، يتدخّل في أحلك الأوقاتِ، وحينما لا يكون ثمّة شفاعةٌ لأيّ شيءٍ، يتدخّل، إنّه الله، عادلٌ كفاية، عادلٌ بالتّمامِ، بتمامِ الإيمانِ.

وقبْل أنْ يقترب منّي كنتُ قدْ نثرتُ جسمي عليه، ارتميتُ علَى صدرِه، ولتحترق أعراف السّجنِ، ماذا سيحدث أبعْد مِنْ الموتِ؟ ليخبطوا رؤوسَهم في جدرانِهم الظّلاميةِ، صرختُ:

- "إيواااان".

عضّ شفتيه بكاءً، سال مخاطُه علَى وجهي، تشمّمني، ولّى الضّابطُ وجهَه، وانشغل في أمرٍ آخر، كأنّه سمحَ لنا بقضاءِ هذا الشّوق، دون تنغيصٍ.

- أنتظر علَى الشّاطئ أنْ تسافري إليّ منْذ سبعِ سنواتٍ.

- أنتظر أنْ تحجّ إلَى قلبي مُنْذ بدء تكويني.

جلس بي، ولمْ أزل متكوّمةً بين ضلوعِه، كغريبةٍ تنشد ملاذًا، كضّالةٍ عثرتْ علَى بوصلةٍ، شبّك أصابعَه بأصابعي، كانتْ عيناه تغوصان في عينيّ، كانتْ رائحتُه كالنّجاةِ، قلتُ:

- لماذا تأخّرتُ؟

قال:

- تعرفين، ظللتُ لشهورٍ أراقبُ حمامَ السّماءِ، تعبر الأسرابُ فوقي تتجاهل لوعتي، أقول ها هي "وصال"، جرتْ الشّهورُ، شهرًا بعْد شهرٍ، لمْ أعرف كيف يُمكن أنْ أجدكِ؟! بالطّبعِ لا أتابع شيئًا ممّا

يحدث، في كلّ يومٍ يعدِمون دزينةً مِنْ الشّرفاءِ، قرّرتُ أنْ أسافر إليكِ، أسافر إلَى ريحانتي، عزيزتي، ولمّا عرفتُ كلّ شيءٍ بكينا أنا وأمّكِ وأبوكِ معًا، دون أنْ يعرفاني، إنّهما يبكيانك معْ أيّ عابرٍ، لا أحدَ يريد أنْ يصدّق.

- وأنت! هل تصدّق؟

- أصدّق رسائلكِ.

- يا لصبرِك! كلّ هذه السّنوات تضنّ عليّ برؤيتِكَ؟

- قلتُ هي الحياة دومًا تسلّمني مِنْ حزنٍ إلَى حزنٍ، لكنّ شيئًا بداخلي ظلّ يستحثّني علَى العثورِ عليكِ، بمرورِ عامٍ علَى غيابِكِ بدأ القلق يعتريني، ولمّا سافرتُ إليكِ وأدركتُ كلّ شيءٍ، أخبرتُ أبويكِ أنّي زميلُكِ في الجامعةِ، لمْ أزرهما مرّةً أخرَى، أفنيتُ جَهدي في المحاكمِ، تقدّمتُ بطلبِ زيارةٍ إلَى المحكمةِ مرّة بعْد مرّةٍ، تحجّجوا أنّ لا صلةَ قرابةٍ بيننا، تخيّلي ستّ سنواتٍ وأنا علَى أبوابِهم، اضطررتُ لاستخدامِ بعضَ معارفي في المطارِ، وها أنا، قبْل ليلةٍ واحدةٍ، جيز لي أنْ أكون معكِ.

- وأمّك، كيف حالُها؟ طمئنني عليها.

أخفَض بصرَه.

- ألمْ أخبركِ أنْ كلّ شيءٍ مِنْ حولي محكومٌ عليه بالموتِ؟!

ولمس أنفي بأناملِه.

- حتّى أنتِ.

- مَنْ قال إنّي سأموتُ؟ بلْ سأُحيَى فيكَ، ألمْ نتّفق علَى السّعادةِ؟ علَى اللّقاءِ؟ علّى الخلودِ؟

- لكنّنا لمْ نتّفق علَى الحُزنِ حبيبتي.

ضربتُ كفّي في رأسِي، وانهرتُ علَى يديه، جاش صدري، وفيما كانتْ مشاعري تتوهّج، والدّموعُ تتسرّب إلَى صوتي، قلتُ:

- حبيبتكَ! لماذا لمْ تقلْهَا مِنْ قبْل؟ لماذا لمْ تكتبْهَا؟

- وهل كان شيءٌ سيتغيّر؟

صحتُ فيه، قبضتُ علَى راحتِه.

- كنتُ سأستمسكُ بالحياةِ، سأستمسك بكَ، سأقايض روحي بجسدِي، آه.

صرختُ، بين يديه، صارتْ كتلةُ جسدينا كالغمامِ، كثيفةً، حلزونيّةً، شفّافةً في جزءٍ، ومحمّرةً بلونِ الشّوقِ في أجزاءٍ، كأنّ مَنْ سيرانا سيختلج قلبُه، مَنْ سيرانا، سيتحوّل، بطبيعةِ هذا الشّوقِ، إلَى إنسانٍ مِنْ جديدٍ.

علَى يديكَ العدالةُ "إيوان"، علَى يديكَ معنَى صبري، احملني مِنْ هنا، هيّا، طِر بي، ركبُ الأحلامِ ينتظرنا، سحابةُ العُرسِ مزيّنةٌ في السّماءِ، سترّفنا الملائكةُ، سيُنْشِد الصّابرون أغنيةَ القَصاصِ، وقبْل أنْ تدخل بي، بالجسدِ الذي لمْ يفتَك به، قبْل أنْ نحلّق مرورًا

بالوجوهِ المحفورةِ في ذكرياتِنا، ثِق أنّكَ ستلتهم وليمةً مِنْ الأشواقِ، كي تغذّي مشاعرَكَ، ثق أنّ الأحبّة سيلوّحون لنا مِنْ شرفات الأرضِ، الدّموعُ في أعينِهم، هذه، ليستْ دموعَ فَقْدٍ ولا وداعٍ، إنّها دموعُ لقاءٍ مِنْ بعْد انتظارٍ.

دفنتُ رأسِي بيْن كفّيه، ملأتهما دموعي، قلتُ بصوتٍ مُستعَاد:

- الآن أُجزَى علَى صبري، الآن حبيبي، عليّ أنْ أموت علَى عشقٍ.

تمّت بحمدِ الله

(نبذة عن المؤلّف)

أدهم محروس عبد العزيز محمد؛ وشهرته "أدهم العبودي"، روائي وكاتب مصري، مواليد 17/ 10/ 1981، يعمل محاميًا بالاستئناف العالي ومجلس الدولة.

صدر له:

جلباب النبي (مجموعة قصصية) 2011

باب العبد (رواية) 2012

متاهة الأولياء (رواية) 2013

الطّيبيّون (رواية) 2014

خطايا الآلهة (رواية) 2015

الخاتِن (رواية) 2016

نوستالجيا 80 (أدب ساخر) 2017

حارس العِشق الإلهي 2017

بينما نموت "روح بن أسماء الرّب" (رواية) 2018

قلبي ومفتاحه (رواية) 2019

معشر الجن "المدينة التي تخشى المغيب" (رواية) 2020

الجوائز:

* جائزة الشارقة للإبداع العربي في الرواية 2012 عن رواية باب العبد

* القائمة القصيرة لجائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع 2020

* إحسان عبد القدّوس في القصّة القصيرة 2011

* جائزة بهاء طاهر باتّحاد كتّاب مصر في الرواية 2015 عن رواية متاهة الأولياء

* تنويه جائزة دبي الثقافية في الرواية 2015 عن رواية خطايا الآلهة

* جائزة لجنة الشباب باتحاد الكتاب في القصة القصيرة 2014

* جائزة iread في القصّة القصيرة بالتعاون مع مهرجان القاهرة السينمائي الدولي ودار الشّروق 2019

المؤتمرات:

كُرم في مؤتمر أدباء مصر كشخصية عامة عام 2012

شارك في ملتقى الشارقة للسرد العربي 2017

شارك في ورشة جائزة الشارقة للإبداع 2012

شارك في مؤتمر الرواية العربية بالمجلس الأعلى للثقافة المصرية 2019

كُرم في مؤتمر أدباء مصر كشخصية عامة عام 2019

معلومات أخرى:

ترجمت روايته "باب العبد" للفارسية، كما ترجمت روايته "متاهة الأولياء" للفارسية والهندية، وروايته "بينما نموت" للكردية، وترجمت بعض نصوص مجموعته "جلباب النبي" للإنجليزية.